

# حافظ إبراهيم

شاعر النيل

شاعر الأحران وحامل هموم الإنسان

تأليف الدكتور

يوسف الحشكي

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م



دار الفكر العلمية للنشر والتوزيع

# حافظ إبراهيم

شاعر النيل

شاعر الأحرار وحامل هموم الإنسان



# حافظ إبراهيم

شاعر النيل

شاعر الأحران وحامل هموم الإنسان

تأليف الدكتور

يوسف الحشكي

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م



دار الفكر العلمية للنشر والتوزيع



٨١١, ٩٢

الحشكي، يوسف

حافظ إبراهيم: شاعر النيل: شاعر الأحزان وحامل هموم الإنسان /  
يوسف محمد الحشكي \_ عمان : دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.  
( ) ص

ر.إ: ١٦٤٤ / ٥ / ٢٠١٠

الواصفات : / الشعراء العرب / / الشعر العربي / / العصر الحديث /

\* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

### جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ويمنع طبع أو تصوير الكتاب أو إعادة نشره  
بأي وسيلة إلا بإذن خطي من المؤلف وكل من يخالف ذلك  
يعرض نفسه للمساءلة القانونية



دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - تليفاكس ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٧٧٨٧٧٠

ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن

E-mail: dar\_yafa@yahoo.com

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبي الهدى وآله وصحبه أجمعين ،

الحمد لله الذي سخرنا فيمن سخر لخدمة لغة كتابه المبين.

وبعد:

تقول العرب (الشعر ديوان العرب) فيرون أنه مستودع حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقاموسهم اللغوي والفكري، والشعراء متباينون ومتفاوتون في مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه شعوبهم وأممهم، فمنهم الملتزمون بالتعبير عن آمالها وآلامها، ومنهم المتحللون الغائبون عنها، ومنهم المتأرجحون بين هؤلاء وأولئك، إلا أن الملتزمين بها هم أكثر التصاقا بشعوبهم ، وشعوبهم أكثر ميولا إليهم. ومن خلال دراستي للشعر العربي في مراحل الزمنية المتعاقبة، فقد اطلعت على الكثير من نتاجه، وأزعم أني اختزن الكثير منه في مستودع ذاكرتي، كما أحفظ الكثير منه ، ولم أفضل أو أقدم شعرا على شعر ، أو شاعرا على شاعر إلا بالمقدار الذي يصيب هوى في قلبي، ويثير إحساسا في نفسي ووجداني متمثلا بقول الشاعر العربي المصري محمد عمر الطوانسي الذي يقول :

الشعر نبض وإحساس وعاطفة      ما أروع الشعر إن أملاه وجدان

قرأت الشعر لكثير من شعراء العربية قديمهم وحديثهم ، أجوس في رياضهم وأتصيد في ديوان أو كتاب أو مجلة، مسير بدافع الحس المفعم بالعاطفة المتأججة والخيال المجنح المشبوب والشعور الملهب أن الشعر هو كل شيء في الوجود ((ديوان العرب)) للتعبير عن الخير والجمال، والتحدث عن المعاني النبيلة الفريدة، ومواقف المروءة والشهامة، والحب

والحنان والعاطفة والإخلاص: من كل جوهر متألق السنا باهر اللمعان، وليكون للروح قائدا ودليلا ، يحفزها للانطلاق والتقدم بسائر الميادين، ويبقيها للازدهار والتوهج، لتخلد وتبقى بعد فناء الأجسام وانحلالها، وليأتي بعد ذلك الباحثون، فيقرؤونها في كتاب نفحة عاطرة، تستعصي على الزمن، وتقف شاحخة بوجه الأيام.

ولطالما وقفت أمام الصورة الشعرية، فأغيب عن الوجود ومن فيه ، وتتلاشى أمام ناظري مظاهر الألم والشقاء، وأنسى هموم الحياة وتصاريقها، وأشعر أنني دخلت عالما مسحورا، فيه روائع الرؤيا تلوح للعين ، ويتملى منها الفكر والقلب فينغمس في جو من البهجة، وخضم واسع من المعاني السامية الكبيرة.

لم أجد منذ عشقت الشعر فارقا بين قديمه وحديثه، فالجمال والصدق يستهوياني ، ويشدانني في أي مشهد من المشاهد التي يصورها فنان ماهر مبدع كشف الله - سبحانه - عن بصره وبصيرته، فاجتاز الأبعاد وقطع الآماد، ولم يعترف بالزمن فاصلا بين فكر وفكر، وقلب وقلب، وقف تصهره حرارة الشمس، وعانى من ألق النبوة الساطع، رشح جبينه عرقا، وأخذته هزة الموحى قبل أن يقول كلمته، ويفيض بالنفائس الغوالي، فليس سر الشعر في وزنه، ولا في قافيته وموسيقاه، ولا فائدة من التعاريف التي ظن أصحابها أنها حدود قاطعة له، من قولهم: (الشعر كلام موزون مقفى إلى قولهم: (هو انفعال مصور أو هو التصوير المعبر عن انفعال ذاتي) ولا من تقسيمه إلى أغراض الغزل والوصف والفخر والمدح والرثاء وإلى غير ذلك.

فالشعر لا تتحكم فيه نظريات وقواعد ، ولا تدنو من مقامه الرفيع محاولات لا تتسم بوحى إله ومعجزة نبي ، هو من الأدلة الكبرى على سمو الروح وفضلها وقوة جوهرها،

نحس به، ونكبو عند التعبير عنه، هو الحياة بما فيها من خلجات ونبضات ونوازع، وأهداف، هو الجمال والصدق والذوق والنعم، ومن حسب أنه يستطيع حدها فقد جانب الصواب، وضل ضلالا بعيدا .

والشاعر أكمل الأفراد في مجتمعه وأولاهم بحمل الرسالة والدعوة لها، والتضحية من أجلها، وبذل جميع ما يقدر عليه من وقت وجهد ومال، ليرى أحلامه وآماله وأهدافه قريبة التناول من يده .

يهمنا قبل كل شيء أن يكون صادقا بما يقول من شعر، مؤمنا بما يدعو إليه، ينطلق من مبدأ قويم ثابت في نفسه ، لا يساوم، ولا يجامل فيه، ولا يجيد عنه، ولا يجعل من شعره وغناه الفكري والنفسي شركا يصطاد به، ويقتنص الأطماع والرغائب، وله بعد ذلك أن يعيش كما يريد.

أما القول بأن الشعر فن مستقل لا علاقة له بالحياة العملية، ولا داعي بموجب ذلك لالتزام الشاعر بما يقول، فهو ادعاء لا يقره منطق ولا يرتضيه وجدان .

إن الشاعر الحق هو سفير مجتمعه والناطق باسمه والمعبر عن حاجاته وآماله وآلامه، وهذا ما يدفعنا للوقوف أمام القمم الشاخنة والذرى السامقة والتحدث عن مثل هذه النخبة من الشعراء الذين كانوا مثالا للفكر النير والبيان الناصع والتعبير الصادق، ولم أر تفسيرا لذلك الوقوف سوى القول بأنهم كانوا -ولا يزالون- حملة المشعل في دنيا العرب، ومنارة الإشعاع في عالم التعبير عن حاجات أمتهم وهمومها.. خلدتهم شعرهم فخلدوا، وظلت الأجيال المتعاقبة تحفظ أشعارهم وتقولها حيثما كانت المناسبة .



وبعد... فإن الشاعر حافظ إبراهيم كان واحدا من هؤلاء الشعراء الذين أخذوا على عاتقهم التعبير عن واقع تعيشه أمتهم، بل تجاوز ذلك حدود الإقليمية إلى عالم الإنسانية جمعاء، ولا غرو في ذلك، فحياة هذا الشاعر العربي المصري لم تعرف الاستقرار والاطمئنان منذ ولادته، فقد احترم الموت والديه، فلم ينعم بحياتها طويلا، فقد انتقلا لرحمته -تعالى- وهو لم يجاوز الرابعة من عمره، وكانت تلك أولى محطات فقدان الحنان والرعاية الأبوية، فكفله خاله وكان يعمل مهندسا، ويبدو أن حافظا ضاق ذرعا بالحياة في بيت خاله، وجعله يشعر بالمرارة والألم لواقع يعيشه، فأراد الحرية والانطلاق، والخلاص من المنة، فخرج من بيت خاله تاركا له بيتي الشعر التاليين :

ثقلت عليك مؤونتي      إني أراها واهية  
فافرح فإني ذاهب      متوجه في داهية  
بهذه الكلمات المتأثرة المتألدة يودع حافظ خاله، غير آسف أو آبه بما يمكن أن يواجهه في سبيله، أو يلقي به في دهاليز حياة غامضة مجهولة.

لكن، نجده يدخل في صباه المدرسة الخيرية، ثم مدرسة ابتدائية اسمها المدرسة القريبة، يشتغل بعد ذلك عند بعض المحامين، ويرافع أمام المحاكم، لكن لم يطل به المقام في تلك المحاماة، وطال به السفار، وامتد ليله، فكان يتقلب بالبؤس والشقاء، ويصارع المقادير، ويشكو الأحداث، ولم يختلف شأنه بذلك عن شأن غيره من العصاميين الذين بنوا أنفسهم بالصبر والكفاح، ثم تقوده المقادير إلى الالتحاق بالمدرسة الحربية ليتخرج فيها ضابطا، وهو ابن العشرين عاما، ثم يعين في الحربية وبعدها ينتقل إلى الشرطة، ومن ثم يشترك في حملة (كتشنر) في السودان، حيث لقي هناك ضيقا وشدة في العيش، ويشترك في ثورة الجيش في

السودان، وضيق عليه ، فأحيل بعدئذ إلى التقاعد، ويبقى متعطلا عن العمل، إلى عام ١٩١١، حيث عين مديرا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية إلى عام ١٩٣٢ حيث أحيل إلى التقاعد لبلوغه سن الستين، ومات بعد قليل.

لم ينل حافظ إبراهيم حظا من التعليم المستمر، فكانت دراسته ابتدائية ثانوية متقطعة ، ولم يحصل على شهادة مدرسية، وقد تعلم الفرنسية، ودرس الحربية، وكان يجد في نفسه ميلا إلى الأدب وتذوقه، فأقبل على دراسة العربية وآدابها ولا سيما الشعر معتمدا على نفسه، واطلع على معظم نتاج العرب الشعري، وخصوصا شعر الفحول من الأقدمين ومعاصريه.

لقد لازم الفقر والشقاء حافظ إبراهيم طيلة حياته، طفلا وشابا وكهلا ، وألقيا بظلالهما المؤلمة على معظم شعره، فكان هذا من العوامل التي عملت على تكوين شخصيته، إضافة إلى يتمه المبكر وصعيدته التي أعطته جرأة وشجاعة وصرامة ونفورا من الظلم، فجعلت منه مصريا صميما، كما كان للفقر والعوز واضطرابه في الدراسة والمعيشة وعسره الدائمين الملازمين الأثر الكبير في هيكلته شخصيته ، فهو القائل:

خلق الشاعر والبؤس معا      فهما خلان لم يفترقا  
صدقا بالودي ياليتها      بمواعيد الهوى لم يصدقا

ونضيف إلى العوامل حياة الشعب المصري في ظل الانتداب البريطاني والاستبداد الأجنبي الخارجي والداخلي، وانتفاضة الشعب للخلاص منها، كما كان لأحرار الفكر الذين عاصروهم وعاشهم أثر كبير في نفسه، وذلك من أمثال الشيخ محمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، كما كان لمواهبه الأدبية وروح الفكاهة والدعابة الغالبتين عليه ، وثقافته الخاصة الأثر الكبير في صقل شخصيته وتكوينها بصورة متميزة.

إن المتتبع والمتأمل لشعره ، الذي قاله للشعب المصري ، وما كان يعانيه من ظلم وقهر واستبداد، واعتداء على الممتلكات والأموال والأعراض، يجد فيه مسحة الحزن وعلائم الألم التي تعصر قلبه، وتذيب حشاشة نفسه، كما يحس بشكل جلي أن الألفاظ المستخدمة في هذه المعاناة تحمل في طياتها هموم واقع مرير معتم، ومستقبلا غامضا مجهولا ، يحاول الخلاص منها.

وإن المرء ليقف حائرا أمام بعض الظواهر في الحياة لا يستطيع لها حلا ، فإن للروح أسراراً وللقلوب رموزاً، تعجز الذهن المحدود عن الوصول لحقيقتها، ويتعثر في سبيل فهمها وجلاء غامضها:

عجبا لأمر الفكر تصرعه	ويحب دوما أن يطل فيصرعا
ما انفك يجري في مجال متعب	يسعى فيعجز في الطريق إذا سعى
شكلين تبصر في جمال رائع	والطيب حل بواحد فتضوعا
للروح دنيا من جمال غامض	حسب المفكر أن يحس فيعرفا

يشقى إنسان ويكدح ، ويتعل الدماء، ويشرب المر الزؤام ، ويسيع الأذى ، ومع ذلك تراه قريبا من القلوب والنفوس، تعطيه الحياة من عواطف الناس وحنانهم ورحمتهم، ما يعوض عنه الفئات ويسترد المفقود، فتراهم يرضون منه بالقليل، ويقبلونه على ما فيه من هنات، ويسعد إنسان بجاهه وسلطانه ووسائله المادية، ويرتفع بفكره ومواهبه الطبيعية، وتغدق عليه الحياة ما تشاء من عز ومنعة وشرف وجاه، ويتنكر له الناس، وتفتش عن عيوبه، ولا ترضى منه بغير ما يثقل الكاهل ويعجز المواهب.

وإذا ما سبرنا غور الحياة وتعمقنا في البحث عن نموذج واضح أبلغ لمن حظي بحب الناس، واحترامهم حيا وميتا، كالمرحوم حافظ إبراهيم، شاعر الحسرات والآلام والأنين، ومهما تباينت الآراء، وتعددت المذاهب، على كثرة ما قيل حديثا وقديما بموضوعه، تبقى حقيقته ثابتة لا يعرفها ريب، ولا يساورها ظن أو شك، ولا يتناولها تبديل، وهي أن الشاعر إن لم يعيش الخاطرة التي ينقلها، والفكرة التي يظهرها، والعاطفة التي يصورها، لا يمكن أن يؤثر ويدوم.

وشعر حافظ إبراهيم يتسم بصدق الشعور والتأثر الصحيح، حتى أنك تلمس خلجات نفسه، وترى الإحساس كيف ينمو ويقوى بين جوانحه. وهو لا يعتمد للبحث إلا في حالة الانفصال، الشديد فيأتي شعره واضحا متصلا بالنفوس والقلوب، فكأن البوح عنده دائما أنه مشتاق ونفته مصدور، وبيان جلي لخاطرة كريمة دخلت الفكر المشرق، وحلت بالقلب النير العامر بالإيمان، وهذه سمات اتصف بها حافظ في جل الشعر الذي قاله، وسنين هذه الجوانب في الباب الثاني من هذه الدراسة، ولكن لا بأس أن نورد في هذا السياق شيئا من شعره... فهاهو يصور واقع شعبه وما يعانيه من عوز وفقر وجوع، حيث يقول في قصيدته (غلاء الأسعار):

أيه المصلحون ضاق بنا العيش	ولم تحسنوا علينا القياما
عزت السلعة الذليلة حتى	بات مسح الخذاء خطبا جساما
وغذا القوت في يد الناس كالياقوت	حتى نوى الفقير الصياما
يقطع اليوم طاويا ولديه	دون ريح القطار ريح الخزامى
ويخال الرغيف في البعد بدرا	ويظن اللحوم صيدا حراما



إن أصاب الرغيف من بعد كد      صاح: من لي بأن أصيب الإداما

وكان حافظ ذا شعور وطني يأبى الضيم والاستبداد، ويمقت الاستعمار والمستعمرين أحب وطنه، وتغافى في الدفاع عن حياضه، وقاوم المحتل الأجنبي بجسمه ولسانه، فهو ليس من أولئك الشعراء الذين يصنفهم النقاد والأدباء في دائرة أن الشاعرية فن مستقل، لا علاقة بينه وبين الحياة العملية التي يعيشها الشاعر، فربما تغنى بشيء لا يؤمن به، ونسج قصيدة لا تعبر عن حقيقة شعوره، وصور بمواقفه أشياء بعيدة عن نفسه وقلبه، وأتى بالرائع المبدع، واستدلوا بذلك بأقوال الأعلام من الشعراء السابقين كأبي الطيب المتنبي وغيره، فإنهم كانوا يمدحون ويهجون، ويتحدثون عن أمور بعيدة عن نفوسهم وقلوبهم، رغبة في مطمع، وسعيا وراء كسب، وزعموا أننا لا يحق لنا أن نحاسب الشاعر على حياته الخاصة في جده وتصرفه الاجتماعي وهواه ومرحه، فإن ذلك له وحده، ويعيننا قبل كل شيء التجويد والإبداع، نقف أمام الأثر الرائع فنقدر ما فيه من جمال وخصائص فنية، ونترك ما عدا ذلك للشاعر، لكنهم لم يدركوا أن الشاعر نبي صغير أو سفير أمين لأمته، يتأثر بما يصادف أكثر من سواه، يعي الحياة، ويحس بجميع ما فيها، وينفعل بأحداثها، ويتخذ لنفسه بكل ذلك المواقف التي يفرضها عليه الخلق النبيل والضمير الحي، والإنسانية الرفيعة، لم يفهموا أن الشاعر صاحب رسالة، لا خير فيه وفي شعره إن لم ينهض بما تطلبه منه، ويبذل كل ما يستطيع في سبيل عقيدة يؤمن بها، ويدافع عنها، وهو في ألمه وسروره وحزنه وفرحه وجميع مواقفه في الحياة يصدر عن تلك العقيدة المتمكنة من قلبه وشعوره، والتي تحيا معه، فتسعه أو تشقيه، وتكون المحور لوجوده كله يصدر عنها وإليها يعود في تصرفاته، هي خلقه ودينه وشرفه ومعناه.

إن هذا الذي بسطنا فيه القول لم يكن بعيدا عن مفاهيم جماعة من المتقدمين، فهذا معاوية يقول لعبد الرحمن بن الحكم، إنك قد لهجت بالشعر، فأياك والمدح فهو كسب الأنذال، ولكن افخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك، وإن لم تجد من المدح بدا، فكن كذلك المرادي حين مدح فجمع في المدح بين نفسه وبين الممدوح، فقال:

أحللت رحلي في بني ثعل      إن الكريم للكريم محل  
وهكذا كان حافظ أحب الشعب وفني فيه، وحن لوطنه ومجد بلاده، وعانى الفقر والحرمان، فأحس مع الضعفاء، ونشد العدالة الاجتماعية، فقال:

أيها المصلحون أصلحتم الأرض      ويتم عن النفوس نياما  
أصلحوا نفوسا أضربها الفقر      وأحيا بموتها الآثاما  
تؤثر الموت في ربوع النيل جوعا      وترى العار أن تعاف المقاما

حقا تستحق يا حافظ إبراهيم أن تكون شاعر النيل والشعب، وقديما قيل: الوفاء في الرثاء، والرثاء هو لغة الحزن والأسى على فقيد، وفيه تظهر صدق العاطفة أو زيفها، وقد ظهرت عند (حافظ) عزته ونبله ووفائه لأصدقائه وأعلام الفكر من معاصريه، مصريين وغير مصريين، فلم يقل الرثاء تزلفا أو نفاقا، لم يرث من لا نباهة له، أو لقربه من حكام عصره، فإن مثل هذا الرثاء لا يعدو كونه تعزية عابرة لا أكثر ولا أقل. وقد أشار الدكتور طه حسين لهذه الناحية في حافظ إبراهيم فقال: ((... ورحم الله حافظا، لم يكن فردا يعيش لنفسه بنفسه، وإنما كانت مصر كلها، بل الشرق كله، بل الإنسانية كلها في كثير من الأحيان تعيش في هذا الرجل، تحس بحسه، وتتألم بقلبه، وتفكر بعقله، وتنطق بلسانه، ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ إبراهيم

رحمه الله .... هكذا كانت الصلة بينه وبين الناس، فليس غريبا أن تقع الحوادث والكوارث من نفسه أشد وقع، وأن تثير فيها لذاعة من الألم والحسرة، ومن الحزن واللوعة، وليس غريبا أن ينطق لسانه بالشعر في تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد في غير مشقة ولا عناء، ويصل إلى هذه المنزلة التي لا يصل إليها الشعراء، إلا أن يكونوا مطبوعين صادقين، أو تكون الظروف قد واتتهم، وأتاح لهم من أساليب القدرة والبراعة ما يقرهم من المطبوعين، وهي أن يبلغوا بالذين يقرأونهم ويستمعون إليهم مثل ما في نفوسهم من الحزن واللوعة، ومن الحسرة والأسى، فإذا بكوا بكى معهم الناس صادقين، وإذا تألموا تألم معهم الناس مشاركين، وإذا جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

فهذه منزلة بلغها حافظ إبراهيم لم يبلغها كثير من شعراء العربية في العصر الحديث، فبين شعرائنا في هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء، ويحيدون وصف الفقيده الراحل وتعديد مناقبه ومآثره، ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه، ويبلغون البراعة في ضرب الأمثال السائرة. والحكم البالغة، ويجمعون من هذا كله ما يحس وقعه في القلوب وما يلذ الأسماع والعقول معا، ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله ما في النفوس من عواطف الحزن الكامنة، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة، كما كان يفعل حافظ إبراهيم؛ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن من غير حزن صادق، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة، وهم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه، وعلى أن مكاتبتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم في الرثاء كلمة مسموعة، أما حافظ فكان يرثي؛ لأنه يحزن، وكان يحزن؛ لأنه يحب، وكان يجب؛ لأن الله وهبه نفسا رضية مؤثرة لم تبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة وكما برئت من الضغينة والحقده .

هذه إذن شهادة من عميد الأدب العربي في حافظ إبراهيم، وهي شهادة لعمرى لا تبعد عن الحقيقة كثيرا، ولا تجانب الصواب، وإن قيل ما قيل من نقاد محدثين غير منصفين في حق هذا الشاعر الكبير.

فها هو يبدو متأثرا أشد التأثر حين يخاطب (إبراهيم بك الهلباوي) المدعي العام بمصر، إثر حادثة قرية (دنشواي) التي تقع في الوجه البحري من مصر، وكان ضباط إنجليز يصطادون فيها الحمام، فأصابوا بعض أهلها، فاصطدموا مع الإنجليز، فقتل أحدهم، فحوكم الأهلون، وشنق فريق منهم، وجلد فريق في القرية أمام الناس، فيقول حافظ إبراهيم مصورا ذلك الحدث ملقيا اللوم على ذلك المدعي العام الذي كان يآتمر بأوامر الحكام وينفذ قراراتهم:

أيها المدعي العمومي مهلا	بعض هذا فقد بلغت المراد
قد ضمنا لك القضاء بمصر	وضمنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر	عهد مصر فقد شفيت الفؤادا
لا جرى النيل في نواحيك يا مصر	ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصر	فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقا بالأمس	فأدمى القلوب والأكبادا
إيه يا مدره القضاء ويا من	ساد في غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا	قد لبسنا على يدك الحدادا

واستمع إليه وهو يرثي (مصطفى كامل) في قصيدته التي أنشدها في العشرين من آذار

عام ألف وتسعمائة وثمانية:

نثروا عليك نوادي الأزهار  
زين الشباب وزين طلاب العلا  
غادرتنا والحادثات بمرصد  
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا  
ورأيت كيف تفي الشعوب رجائها  
تسعون ألفا حول نعشك خشع  
إلى أن يقول:

نعم الجزاء ونعم ما بلغته  
في منزليك ونعمى عقبى الدار  
والقصيدة تصل أبياتها إلى أربعة وأربعين بيتا، وفيها شاهد ساطع وبرهان قاطع على أن  
الوفاء في الرثاء لأولئك الذين يستحقون الرثاء . وحافظ إبراهيم يحب لغته العربية ويغار  
عليها، ويتأسى على ما تتعرض له من حملات مغرضة ودعوات هدامة، تنادي باستخدام  
اللغة العامية، فيهزه هذا الأمر ويشعر بأنها أصبحت في حال يدعو إلى اليقظة والتنبه والعض  
على النواجذ في الحفاظ على اللغة الفصحى، لغة كتاب الله العزيز، القرآن الكريم.  
فها هي تنعي حظها بين أهلها فنقول :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي  
رموني بعقم في الشباب وليتني  
ولدت ولما لم أجد لعرائسي  
وسعت كتاب الله لفظا وغاية  
وناديت قومي فاحتسبت حياتي  
عقمت فلم أجزع لقول عداي  
رجالا وأكفاء وأدت بناتي  
وما ضقت عن آي به وعظا

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة  
أنا البحر في أحشائه الدر كامن  
أيطربكم من جانب الغرب ناعب  
أرى كل يوم بالجرائد مزلقا  
وأسمع للكتاب في مصر ضجة  
يهجرني قومي عفا الله عنهم  
إلى معشر الكتاب والجمع حافل  
فإما حياة تبعث الميت في البلى  
وإما ممات لا قيامة بعده

وتنسيق أسما لمخترعات  
فهل سألوا الغواص عن صدقاتي  
ينادي بوأدي في ربيع حياتي  
من القبر يدنيني بغير أناة  
فأعلم أن الصائحين نعاني  
إلى لغة لم تتصل برواة  
بسطت رجائي بعد بسط شكاتي  
وتنبت في تلك الرموس رفاتي  
مات لعمري لم يقس بمات

ولم يكن حافظ إبراهيم بمنأى عن زعماء مصر وقادتهم الأحرار كما أنه كان قريبا من دعاة الإصلاح وأعلامهم، لقد تأثر بمبادئهم الوطنية فسجلها في ديوان شعره، ومن هنا نجده الإنسان الوفي الذي يحفظ الود والتقدير لهؤلاء الأعلام، فرثاهم رثاء ينم عن شعور صادق وإحساس شفاف خالص، وسيرد ذكر هؤلاء في الباب الثاني من هذه الدراسة مع ما قاله فيهم من قصائد خالدة.

وعلى الرغم من كل ما أحاط بحافظ من سوء الطالع وملازمته للشقاء والبؤس وإحساسه الصادق بما يعانيه من آلام واستبداد داخلي، وخارجي، إلا أن هذا الشاعر الكبير المتألم الذي تبتسم له الحياة إلا نادرا، امتاز بالروح المرحية والدعابة الخفيفة الرقيقة، وقد رويت عنه طرائف كثيرة، نذكر منها:



أنه كان يلبس بذلة واحدة في جميع فصول السنة، فسأله مرة أحد أصدقائه: لم لا يغير هذه البذلة؟ فأجاب: لأن بها صفتين من صفات الله: الوجدانية والقدم.

وكتب الدكتور هيكل مقالا عنوانه: (شوقي وحافظ)، وبلغه أن شوقي غضب للجمع بينه وبين حافظ، فقال: لماذا يغضب؟ أما سمع الناس يقولون: خيار وفقوس، وسميط وجبنة، وعسل وبصل؟ أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى.

وكان الشاعر إمام العبد من أصدقاء حافظ، وهو من أهل المرح والدعابة، وكان إذا ذكر حافظ، يقول: أنا الذي خلقت، مشيرا بذلك إلى أنه سبب شهرته وظهوره، ومرة جاء إمام العبد لحافظ يطلب منه نقودا، فقال له: رب أنا كما خلقتني.

ويصطحبه ذات مرة شوقي إلى دار الأوبرا المصرية لمشاهدة فيلم سينمائي، فما أن وصلا باب الأوبرا وإلا أحد الذين يقفون على باب الدخول يطلب منهما التذاكر، ولم يكن حافظ يحمل تذكرة ولا نقودا، وهنا يتخلص حافظ من هذا الموقف الحرج، فيقول لهذا المسؤول لو قلت لك بيتين من الشعر ونالا منك الإعجاب والرضى ألا تسمح لي بالدخول؟ فقال له: قل: فقال حافظ إبراهيم:

رياض الأزيكية قد تجلّت	بأنجاب كرام أنت منهم
فهبهاجنة الخلد قد فتحت	وأدخلني مع المعفو عنهم
وعندها أذن له بالدخول.	

ومع كل هذه الروح المرحية والدعابة الظريفة، نجده يصف سعيه المتواصل، وبؤسه وإبائه ويتمنى الراحة من ذلك بالموت، يقول:

سعت إلى أن كدت أنتصل الذما  
لحى الله عهد القاسطين الذي به  
سلام على الدنيا سلام مودع  
أضرت به الأولى فهام بأختها  
فهبي رياح الموت نكبا وأطفئي  
فما عصمتني من زماي فضائي  
فيا قلب لا تجزع إذا اعضك الأسى  
ويا نفس كم جشمتك الصبر والرضا  
فهذا فراق بيننا فتجملي  
ويا قبر لا تبخل برد تحية  
وهيهات يأتي الحي زائرا  
ويا أيها النجم الذي طال سهد  
لعلك لا تنسى عهد منادم

وعدت وما أعقبت إلا التندما  
تهدم من بنياننا ما تهدما  
رأى في ظلام القبر أنسا ومغنا  
فإن ساءت الأخرى فويله منها  
سراج حياتي قبل أن يتحطما  
ولكن رأيت الموت للحر أعصما  
فإنك بعد اليوم لن تتألما  
وجشمتني أن ألبس المجد معلما  
فإن الردى أحلى مذاقا ومطعما  
على صاحب أوفى علينا وسلما  
فإني رأيت الود في الحي أسقما  
وقد أخذت منه السرى أين يما  
تعلم منك السهد والأين كلما

يمثل هذه اللغة الحزينة يصف حافظ إبراهيم سعيه المتواصل وإبائه ولكن بلا جدوى  
ويتمنى الراحة من ذلك بالموت.

ولا يغيب عنا الإحساس الجمعي والقومي بأنه كان حاضرا في شعر حافظ إبراهيم. فهي  
هي قصيدته التي حملت عنوان ( سوريا ومصر )، تنهض شاهدا على ذلك، فتعبر عن  
إحساسه القومي وما يحمل بين جوانحه من آمال بأن يرى الأمة العربية أمة واحدة تسودها



المحبة والمودة، فالأقطار العربية وإن اختلفت أسماؤها يجمعها ويوحدها هدف واحد ومصير مشترك.

يقول:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب	هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعها	قلب الهلال عليها خافق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورها	ولا تحول عن مغناهما الأدب
لو أخلص النيل والأردن ودما	تصافحت منهما الأمواه والعشب
بالوادين يمشي الفخار مشيته	يحف ناحيته الجود والدأب
أيرغبان عن الحسنى وبينهما	تلك القرابة لم يقطع لها سبب
هذي يدي عن بني مصر تصافحكم	فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على	ربوعها من بنيتها سادة نجب
لولا رجال تغالوا في سياستهم	منا ومنهم لما لنا ولا عبثوا
إن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم	فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

ولم يكن حافظ إبراهيم مصريا صميا وحسب، بل كان شاعرا إنسانيا، لا تعرف إنسانيته الحدود، ولا تتعصب لأرض دون أرض، ولا إنسان دون إنسان، فهي هو ينظم قصيدة طويلة، تناول فيها النكبة التي حلت بمدينة (مسينا) الإيطالية، فوصف آثار الزلزال الجبار الذي داهمها فقلب سافلها عاليها، ودمرها تدميرا، كما وصف الفيضان الجارف الذي سحب الزلزال، فأصبحت أثرا بعد عين.

يقول فيها:

ما لمسينا عوجلت في صباها  
خسفت، ثم أغرقت، ثم بادت  
بغت الأرض والجبال عليها  
ويزيد الحادث تصويرا، فيقول:

رب طفل قد ساخ في باطن  
وفتاة هيفاء تشوى على الجمر  
وأب ذاهل إلى النار يمشي  
باحثا عن بناته وبنيه  
كان حافظ إبراهيم شديد الحساسية قوي الشعور، ولا سيما بالأرزاء التي حلت بوطنه،  
لذلك كان شعره سجلا للإحداث التي مرت بمصر، ومع ذلك لما كان موضوع قصيدة، ( مسينا ) موضوع مأساة وهو الذي عاصر المآسي، وولع بوصفها، وقد وجد ميدانا يصول فيها  
ثابت الخطو، موفور النشاط، فإن طبيعة موضوعها تنسجم مع طبيعة الشاعر، فهو يتناوله  
بالحماس الذي يتناول فيه مأساة مصرية وطنية.

فمثل هذه القصيدة وغيرها من قصائده الإنسانية، يدل دلالة واضحة على أن حافظ  
إبراهيم كانت تحركه الآلام التي تصيب الناس أينما كانوا بغض النظر عن أصولهم ومذاهبهم  
وأجناسهم.

ولا يفوتنا أن نذكر في هذه المقدمة أن حافظ إبراهيم كان عالي الخلق جيم التواضع، وهو القائل المعتذر عندما شغله شاغل عن حضور ذلك الحفل الذي أقامه أمير الشعراء أحمد شوقي بمناسبة زفاف ابنته:

يا سيدي وإمامي	ويا أديب الزمان
قد عاقني سوء حظي	عن حفلة المهرجان
وكننت أول سماع	إلى رحاب ابن هاني
حرمت رؤية شوقي	ولثم تلك البنان
فاصفح فأنت خليق	بالصفح عن كل جان

رحم الله حافظ إبراهيم رحمة واسعة.

## الباب الأول/ الشاعر

### ١ - اسمه ، ولادته ، يتمه المبكر / نشأته

هو ((محمد حافظ)) بن إبراهيم فهمي، فاسمه مركب، كدأب المصريين وغيرهم من العرب في تسمية أبنائهم بأسماء مركبة، مثل: ((محمد حسني)) و ((محمد أنور)) و ((محمد منير)) و ((محمد علي)) وما إلى ذلك، ولكن يغلب عليهم الاسم الثاني من الاسم المركب، ولهذا عرف باسم حافظ إبراهيم.

ولد حافظ إبراهيم في (ديروط) من أعمال مديرية (أسيوط) عام ١٨٧٠ في مصر من أب مهندس وأم تركية، وكان أبوه يعمل مهندسا مشرفا على بناء قناطر أسيوط، وما عثم أن فقد أباه، ولم يكن قد تجاوز الستين من عمره، مات أبوه فقيرا في ديروط، فانتقلت به أمه إلى القاهرة حيث يقطن خاله فكفله، وجعله تحت رعايته، فأدخله (المدرسة الخيرية)، فمدرسة المتبذيان، فالمدرسة الخديوية، ثم انتقل خاله إلى (طنطا) فنقله معه، ف قضى فيها بضع سنين متبطلا متعطلا، يزجي فراغه بالقراءة، ويصرف ملاله بنظم القريض ومطالعة الكتب الأدبية والدواوين الشعرية.

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يبعد عنه غمة اليأس وذلة اليتيم، فكثيرا ما كان يبدو متبرما بالعيش، متأففا بالناس، متعجيا على القدر، لا ينظم إلا في ذاك، ثم اضطرت الحاجة إلى مكاتب المحامين ليعمل مرافعا أمام القضاء، إلى أن حانت له فرصة دخول المدرسة الحربية وتخرج فيها ضابطا بالجيش، ثم نقل إلى الشرطة، ثم أعيد إلى الجيش، وأرسل إلى السودان بقيادة (كتشنر) فبقي هناك زمنا كان لا ينفك فيه متبرما متمردا، حيث لم تطب له الحياة في

ذلك البلد، وكان يلح مطالباً بالعودة إلى مصر، فلما أخفق مسعاه ثار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش (التقاعد).

حاول بعدها الفرار من فشله إلى معالجة الشعر ومطالعة دواوينه ومخالطة الأدباء، لكن حياته لم تعرف الاستقرار ولم تحظ الاطمئنان، فعاد كما كان يضطرب في الحياة المبهمة الغامضة، لا يستريض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية محددة، وإنما يضطرب نهاره منتقلاً من مقهى إلى مقهى، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، ويفيء إلى ظل الإمام (محمد عبده)، فينتفع بعلمه وجاهه، ويعيش على رفده ونواله، ويغشى مع ذلك أبواب النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ودعابته الخفيفة، وينادهم برقيق شعره، وجديد نظمه، وفي سنة ١٩١١ عينه (أحمد حشمت باشا) وزير المعارف يومئذ رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ثم وكيلاً للدار، وظل في هذا المنصب حتى أحيل إلى التقاعد في بداية سنة ١٩٣٢، وكان في هذه الفترة قد نعم بشيء من سعة العيش وحسن التقدير، وتوفي صيف سنة ١٩٣٢، رحمه الله.

## ٢ - بيئته الخاصة والعامة:

بدأت حياة حافظ سيئة الطالع، اخترم الموت والديه مبكراً، فعانى اليتيم وفقد الحنان، وكابد الضياع، وقاسى حياة الفقر والحرمان، فعاش بحكم طفولته المشردة عيش الكسل والتبطل، لا يرغب في علم، ولا ينشط إلى عمل، وكان مبدؤه الأدبي مبدأ اليوم، كما كانت حياته المادية حياة الساعة، يعيش ليومه ويترك غده للقدر، رأى الآمال في البداية تتهافت حيناً على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الأستانة، فجرى لسانه بالشعر المطبوع في مدح الخديوي عباس والسلطان عبد الحميد، ثم اتصل بالإمام (محمد عبده) وأنصاره من سراة البلاد وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه في هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة (فكتوريا) وتتويج الملك (إدوار السابع)، ووداع اللورد (كرومر) عبر بها عن الرأي الارستقراطي في ذلك الحين، ثم انقطع للشعب وخلص إليه، فلازم دهماءه، وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء (مصطفى كامل) فمزج شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب وكوامن النفوس أناشيد الجهاد، ونظم أماني الشباب وتطلعاتهم من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره.

لقد عاشت مصر في زمنه حياة كثر فيها الظلم والاستبداد وشاع فيها الفقر والجوع ولم يكن شعوره بالألم وقفاً على لواجع نفسه وأحداث حياته، فقد شارك الشعب في مصائبه، وسمع شكواي المظلومين، وعزى المفجوعين، وآسى المتألمين وقاوم المستبدين والمستعمرين، ونادى برحيل الانتداب والمحتلين.

ومن هنا يمكننا القول بأن حافظ إبراهيم في بيئته الخاصة وبيئته العامة، كان كل منهما في اضطراب يلقي بظلاله على معظم نتاجه الشعري، فقلما نقرأ له قصيدة إلا ونجد فيها تلك

النفس المتألّمة والقلب المكلول، فجاءت معبرة عن واقع مرير، ومصير مجهول ينتظر أن يكشف عما يحبط به ظلام ليزغ النور من جديد، ويبدأ النهار المشرق بعد ليل بهيم طالت ظلمته، وسأذكر نماذج من شعره في هذه الجوانب عند دراسة شعره.



٣- ثقافته:

لم ينل حافظ إبراهيم حظاً وافراً من التعليم المستمر، فقد كانت دراسته متقطعة غير منتظمة، ابتدائية ثانوية، ولم يحصل فيها على شهادة، وكان خاله قد أدخله مدارس عدة، منها مدرسة القلعة الخيرية، ثم مدرسة يقال لها المدرسة القريبة، ومنها دخل المدرسة الخديوية، كانت هذه الدراسة حين كان في القاهرة، ولما انتقل مع خاله إلى (طنطا) ودخل حافظ المعهد الأحمدي، وسرعان ما ضاق حافظ ذرعاً بنفقة خاله عليه، وكان إذ ذاك في السنة السادسة عشرة من عمره، فترك المدرسة، وعكف على مطالعة الكتب الأدبية والعلمية، ومدراسة دواوين فحول الشعراء العرب قديمهم وحديثهم، ومن ثم كان له نصيب من الإلمام بالقوانين عندما انخرط في سلم المتدرجين العاملين في مكاتب عدد من المحامين، منها مكتب محمد الشيمي، ومكتب محمد أبي شادي.

أما ثقافته الأجنبية ولا سيما الفرنسية، فلم تكن نتيجة دراسة منتظمة في معاهد معينة، وإنما كانت بجهد شخصي، مكنه من إجادتها وبالتالي استخدمها في حياته العملية، وفي نتاجه الأدبي، وقد ساعده ذكاؤه الفطري وقوة حافظته على اقتباس معلومات كثيرة، وكانت ثقافته عربية أكثر مما كانت أجنبية.



#### ٤ - حياته العملية، وفاته ، آثاره الأدبية، صفاته الخلقية والخلقية:

مارس حافظ إبراهيم مهنة المحاماة والمرافعة أمام المحاكم، لكنه سرعان ما سئم دنيا القانون وعالم الادعاء والدفاع عن الحقوق، وفض الخلافات والخصومات، فهجر طنطا والمحاماة، ليدخل المدرسة الحربية بالقاهرة، وما لبث أن تخرج فيها برتبة ضابط في الجيش، انتقل بعدها إلى جهاز الشرطة والبوليس في بني سويف القريبة من القاهرة، ثم في شرطة الإبراهيمية، ثم يعود مرة أخرى إلى المدرسة الحربية، ومن ثم اختير للعمل تحت لواء اللورد (كتشنر) للعمل في صفوف الحملة البريطانية المصرية المربطة في السودان.

وكان حافظ يحمل في قلبه حبا كبيرا للسودان، ولكنه شعر أنه جر إلى هذا البلد جراً، فعاش فيه، وهو يعاني من الوحدة والوحشة والغربة، والبعد عن الأهل، والأصدقاء والصحب، ناهيك عما كان يعانيه من وطأة الأوامر التي كان يكلف بها من قبل اللورد (كتشنر) ومن قبل رئيسه المصري (رفعت بك)، فشكل هذا الوضع ضغطاً على نفسه مما أثار حفيظته على هذين الرجلين كليهما، وعلى الوضع السائد في السودان بصفة عامة، فلما قامت ثورة السودان سنة ١٨٩٩، كان حافظ واحداً من ثمانية عشر ضابطاً، ممن وجهت إليهم تهمة التقصير والإهمال بالواجب، وتهمة التمرد على الالتزام بالأوامر العسكرية، فحوكموا محكمة صورية، أحيلوا على أثرها إلى الاستيداع، لكن حافظاً، كان الوحيد من هؤلاء الضباط، إذ طلب إحالته إلى المعاش بدل الاستيداع، فكان له ما أراد.

عاد حافظ إبراهيم بعد إحالته إلى التقاعد إلى وطنه مصر، حيث عاش فيها زمناً طويلاً، ثم يتزوج، لكن هذا الزواج لم يكتب له النجاح والديمومة، ولم يثمر عن عقب يهنا به ويأنس إليه، ثم كانت وفاة الزوجة سنة ١٩٠٨ بعد أن كان طلقها، واكتفى بعدها بالعيش في ظل

زوجة خاله (نيازي بك)، واسمها (عائشة هانم)، وهي أيضا لم ترزق بولد، فحدثت عليه وعلى ابنتين يتيمتين تبنتهما من قبل، واستمر حافظ على هذا الحال حتى وفاة الخالة البرة بالأيتام سنة ١٩٢٩.

كان راتب حافظ إبراهيم حين أحيل على التقاعد، أربعة جنيهاً شهرياً، وهي قيمة لا تسمن ولا تغني من جوع، فهذا المبلغ الضئيل لا يغطي مستلزمات الحياة الحرة الكريمة، فماذا يفعل حافظ؟ وما العمل؟ وما هو الحل؟

لقد عمل حافظ وبمساعدة أحد أصدقائه، في صحيفة الأهرام الذائعة الصيت، ولكن كان العمل فيها لأشهر معدودة، انقطع بعدها عن العمل إلى حين، ثم عين بعد ذلك وبواسطة من وزير المعارف آنذاك - (أحمد حشمت باشا) - رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، فهدأت نفسه بعض الشيء، وشعر بالاستقرار وسعة الرزق إلى وقت غير قصير.

وبعد هذا المشوار الطويل من حياة حافظ المضطربة، تكون نهايتها في ليلة الخميس في الحادي والعشرين من شهر (تموز) عام ١٩٣٢، وخلال تناوله الطعام مع صديقين عزيزين مخلصين له، وفي بيته المتواضع في أحد أحياء القاهرة - حي الزيتون - ثقلت الحال فجأة بالشاعر حافظ، وما أن بادر خادمه الأمين وصديقه المخلصان إلى استدعاء الطبيب المختص، حتى كانت روحه قد فاضت لتنتقل إلى الرفيق الأعلى فكانت خسارة مصر والأمة العربية والإسلامية في واحد من أعظم شعرائها المبدعين، فبكته مصر، وبكاه النيل، وحصل على وسام من الدرجة الرابعة يسمى وسام النيل، فكان يحق شاعر النيل، وشاعر الشعب.

وأما آثاره الأدبية فكانت: كتابا في النثر موسوما بـ (ليالي سطوح)، وترجمة قسم كبير من ((رواية البؤساء)) لفكتور هوجو (Victor Hugo)، واشترك مع خليل مطران في نقل كتاب ((الموجز في الاقتصاد السياسي)) للروابولييه - (Leray Beulieu)، وله في الشعر ديوان يقع في ثلاثة أجزاء يجمع إلى الأغراض التقليدية كثيرا من القصائد الاجتماعية والسياسية.

وفما يتعلق بصفاته الخلقية والخلقية، فكان ذا سحنة سمراء، طويل القامة، مستحکم الخلق والتركيب، يحمل بين جبينه نفسا في غاية السباحة والبساطة، يحب الآخرين، وقريب منهم يرغب في التحدث إليهم بكل أريحية وطيب خاطر، بعيدا عن التكلف والخرج، جواد كريم يعطي من سألته ومن لم يسأله، ذو سريرة سليمة، ومواهب في غاية الرقة واللفظ، والوداعة، ذلكم هو حافظ إبراهيم الذي نشأ فقيرا وأحسن فقر الآخرين، فشاركهم في البأساء والضراء، ((وخاطب العظماء والعامة على سجيته دون مقدمات، ومراسم)) هكذا عبر عنه محمود عباس العقاد.

وعلى الرغم مما عاناه حافظ وكابده في حياته الخاصة والعامة، فقد خلق الله سبحانه - في نفسه ميلا إلى الدعابة والفكاهة، وشغفا بالنكتة، التي يبلسم بها آلامه، ويشفي بها جراحه، ويسلي بها وحدته، كانت نكتته تنم عن ذكاء مفرط وجواب حاضر، لكن مثل هذه الدعابات والفكاهات لم يسجلها في ديوانه، ولم يحفظ في أوراقه شيء منها، وإنما اختزنتها الذاكرة، وشاعت على ألسنة عامة الناس وخاصتهم سواء بسواء.

## الباب الثاني / شعره

سأتناول في هذا الباب الحديث عن شعر حافظ إبراهيم غير ملتزم بتقسيمه إلى الأغراض الشعرية التقليدية التي دأب عليها الأدباء والنقاد، وسأختار من قصائده التي نظمها في مناحي الحياة المختلفة، أبياتا شاهدة على ما نذهب إليه من أن إحساسه بالخزن وحمله هموم الإنسان سمة ظاهرة وبارزة في معظم أشعاره، وقد قسمت هذه الأشعار على النحو التالي:

### ١ - الوطنيات والقوميات:

عاش حافظ إبراهيم جل حياته قريبا من مجتمعه المصري بشكل خاص، ومن مجتمعه العربي بصورة عامة، فصور أحداثها وما يجري على الساحة المصرية والعربية من وقائع، فكان من الشعراء الذين تهفو إليهم قلوب الأمة، يعيش حياتها، فيشقى حين يشيع الشقاء، ويبتهج حين يشيع فيها الرخاء، ويحيا مع أبنائها ويشاركهم حياتهم بكدرها وصفوها، ويتخذ منها مادة لأدبه، فلم يكن منفصلا عنهم أو معتزلا حياتهم، وما يعيشون فيه من آمال وآلام ومواقف اجتماعية مختلفة، وليس معنى ذلك أن الشاعر لا ينبغي أن يصور نفسه، وإنما معناه أنه ينبغي إذا صور نفسه صور من خلالها مجتمعه، فهو لا ينأى بعيدا عنه، بل يمتزج به، بحيث تصبح نفسه صورة لأفراده، ويصبح وحدة حية من وحداته، وبذلك تلتئم في تصويره لنفسه أحاسيسه الذاتية وأحاسيس مجتمعه الموضوعية.

خالط حافظ الشعب واتصل بقيادة الفكر والإصلاح ولا سيما الإمام ((محمد عبده)) وأمدته نزعته الشعبية وعاطفته الوطنية بالقوة التي تدفع به إلى ميدان الكفاح في سبيل رقي

الأمة وازدهارها، ولئن أبعد شاعرنا عن ساحات الوغى فقد فتح له شعره مجالا أوسع للمناضلة والدفاع، فرجع إلى الماضي، وصاغ حياة رجاله في منظومات تعيد إلى النفس العربية الرغبة في الكفاح وما سلف من الثقة والنخوة، وعالج الحاضر بثورته على داء التفرقة وتدخل الأجانب في مصالح الوطن، وبدعوته إلى تهذيب الأخلاق، وتعميم الإخاء - وتعليم الفتاة، وتنشيط الثقافة والتعليم والمشاريع العمرانية، ورمى بنظره إلى المستقبل فتغنّى بآمال الأمة المصرية والعالم العربي بلهجة وثابة حماسية مضيئة بنور الأمل الوطيد والاعتقاد الراسخ، فرسم للوطن صورة خلابة تستفز الهمم وتستهوِي القلوب، واستحق لقب شاعر النيل، فهي هو يحمل هموم شعبه، ويعبر عن تطلعاتهم وآلامهم وآمالهم، ويعرض بالامتيازات الأجنبية وبأهل الحكم والسياسية الذين لا هم لهم إلا مصالحهم الذاتية وأغراضهم الشخصية، يقول في قصيدة ((من مجزوء الوافر)).

سكت فأصغروا أدبي	وقلت فأكبروا أربي
وما أرجوه من بلد	به ضاق الرجاء وب
وهل في (مصر) مفخرة	سوى الألقاب والرتب

ويقول فيها:

أروني نـصف مخـترع	أروني ربـع محتسب <sup>(١)</sup>
أروني ناديا حـفـلا	بأهل الفضل والأدب
ومـاذا في مدارسكم	من التعلـيم والكتب ؟

(١) المحتسب : العالم بتصرف الأموال واستثمارها .

ومــــا اذا في مــــساجدكم      من التبيان والخطب ؟

ومــــا اذا في صــــحائفكم      سوى التمويه والكذب ؟<sup>(١)</sup>

فالشاعر مسكون بغيرته على بني شعبه ومهموم بما هو عليه من حال سيئة مزرية، كما أنه يندد بالألقاب والرتب الشائعة في مصر ، وبمن يحملونها، وفي الوقت نفسه ينعى على بني قومه خلو أوساطهم من أهل العلم والاختراع والاحتساب، ويخاطب أئمة المساجد والصحافة المصرية التي هي عامرة بالكذب والتشكيك .

ولا شك أن ألفاظ هذه الأبيات وعباراتها تنم عن أسى وحزن لما هو عليه بنو قومه .

ويقول في قصيدة منتقدا وغامزا سياسة المستعمر المحتل (من مجزوء الكامل) :

(قصر الدبارة) قد نقضت      العهد نقض الغاصب

أخفيت ما أضمرته      وأبنت ود الصاحب

الحرب أروح للنفوس من      الحياد الكاذب

فالحكام في قصر الدبارة نقضوا العهد شأنهم في ذلك شأن الغاصب، وأظهروا خلاف ما يضمرون، وهم في سياستهم هذه ، إعلان الحرب فيها أهون على الشعب من ادعائهم الحياد الكاذب.

تبدو في هذه الأبيات لغة التذمر والضييق من سياسة المستعمر المحتل الذي يظهر خلاف ما يضمّر، يظهر ذلك في الألفاظ: نقضت العهد، نقض الغاصب، أخفيت ما أضمرته، الحرب أهون للنفوس ، الحياد الكاذب.

(١) التمويه : الكذب والخداع.



وشاعر كحافظ إبراهيم يخرج من محيط وطنه فيستلهم الشعر من أحداث عصره العالمية، من مثل (غادة اليابان) التي تعمل بوحى من مبادئها وخدمة لوطنها وإذعاناً لأوامر (الميكاد) أي ((امبراطور اليابان)) الذي غرس في نفوس رعيته حب الموت والاندفاع ذوداً عن الأوطان ، يقول في قصيدته بعنوان (غادة اليابان) (من الرمل) :

لا تلم كفي إذا السيف نبا      صح مني العزم والدهر أبى<sup>(١)</sup>  
رب ساع مبصر في سعيه      أخطأ التوفيق فيما طلبا  
يطلب الشاعر في هذين البيتين ممن يخاطبه ألا يلومه، فهو يعتذر عما لحقه من فشل في سعيه رغم اجتهاده وإقدامه.

ويقول فيها:

مرحبا بالخطب يبلوني إذا      كانت العلياء فيه السببا  
عقني الدهر ولولا أنني      أوتر الحسنى عقلت الأدبا<sup>(٢)</sup>  
إيه يا دنيا اعبيسي أو فابسمي      لا أرى برقك إلا خلبا<sup>(٣)</sup>

بهذه الألفاظ الحزينة يرحب الشاعر بالخطوب التي تنزل في ساحته، غير مبال بصروف الدهر ونوائبه من مثل: الخطب يبلوني، عقني الدهر، اعبيسي أو فابسمي .

ثم يتحدث في قصيدته هذه عن غادة اليابان، فيقول على لسانها :

---

(١) نبا السيف : أخطأ .

(٢) عقني : ظلمني .

(٣) خلبا : خداعاً ومكراً .

أنا يابانية لا أنثي      عن مرادي أو أذوق العطباً<sup>(١)</sup>  
أنا إن لم أحسن الرمي ولم      تستطع كفائي تقليب الطبأ<sup>(٢)</sup>  
أخدم الجرحى وأقضي حقهم      وأواسي في الوغى من نكبأ<sup>(٣)</sup>  
هكذا (الميكاد) قد علمنا      أن نرى الأوطان أما وأبأ

في هذا المقطع من القصيدة يضمن الشاعر جواب غادة اليابان، حين سأها في أبيات سابقة من القصيدة ، فتجيبه: إنها فتاة يابانية مندفعة متحمسة في سبيل سمعة بلدها والذود عن حياضه ، إنها تخدم الوطن وبني بلدها بكل ما تملك، فهي تواسي الجرحى، وتمسح الدمعة، وتبلسم جراح من جرح من اليابانيين.

وكأنني أنظر إلى حافظ إبراهيم وهو يرصد هذه المواقف وهذه المعاني من فتاة اليابان، بأنه ملتان وحزين لواقع أمته، وكأنه يقول: لماذا لا نكون كأمة اليابان التي ضربت أروع الأمثال في الذود عن الأوطان .

ويقول في قصيدة بعنوان (ارتفاع الأسعار) ((من الخفيف)) :

أيها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنوا علينا القياما  
عزت السلعة الذليلة حتى      بات مسح الحذاء خطبا جساما<sup>(٤)</sup>

(١) العطب: الهلاك.

(٢) الطبأ: جمع طبأة ، شفرة السيف أو السكين .

(٣) أواسي: أداوي.

(٤) جسام: عظيم .



وغذا القوت في يد الناس كاليافوت حتى نوى الفقير الصياما<sup>(١)</sup>  
يقطع اليوم طاويا ولديه      دون ريح القطار ريح الخزامى<sup>(٢)</sup>  
ويخال الرغبة في البعد بدرا      ويظن اللحوم صيدا حراما  
إن أصاب الرغبة من بعد كد      صاح من لي بأن أصيب الإداما<sup>(٣)</sup>  
يتوجه الشاعر في هذه الأبيات إلى المصلحين وأولي الأمر لافتا إلى الأزمة القاتلة التي يمر  
بها الناس جوعا وكدحا وغلاء أسعار.

ويلاحظ أن حافظ إبراهيم ماهر في اقتناص الألفاظ مما ورد في أشعار الأقدمين، كما هو  
في استخدامه للفظ «طاويا» وكأنه ينظر إلى قول الشاعر:

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل      بيداء لم يعرف بها ساكن رسما  
ويقول فيها:

أيها المصلحون أصلحتم الأرض      وبتم عن النفوس نياما  
تؤثر الموت في ربوع النيل جوعا      وترى العار أن تعاف المقاما  
وبنو مصر في حمى النيل صرعى      يرقبون القضاء عاما فعاما<sup>(٤)</sup>

(١) اليافوت من الحجارة الكريمة .

(٢) طاويا : جائعا .

(٣) الإدام : ما يؤكل .

(٤) صرعى : قتل .

أيها النيل كيف نمسي عطاشا      في بلاد رويت فيها الأناما<sup>(١)</sup>

يرد الواغل الغريب فيروى      وبنوك الكرام تشكو الأواما<sup>(٢)</sup>

يحث الشاعر في هذه الأبيات على إصلاح الأمور ووضع حد للفقر والغلاء، وجموع المصريين تتشبث بالأرض وتفضل الموت جوعا في ربا النيل ، وترى العار كل العار أن تعاف أو تكره الإقامة على أرض النيل. ويعجب الشاعر عجبا شديدا من أن يرى المصريين ظمأى في بلد ارتوى الناس عامة من ماء نيله، في الوقت الذي يرد فيه من يريد الشراب أو الطعام فيرتوي ، في حين يشكو أبناء المصريين من الظمأ والعطش الشديدين.

يعود الشاعر فيخاطب النيل متسائلا عن عطش المصريين وجوعهم في حين يكون النيل يغني أهل الأرض لو أحسن استغلاله.

ويقول فيها :

أيها المصلحون رفقا بقوم      قيد العجز شيخهم والغلاما

وأغيثوا من الغلاء نفوسا      قد تمت مع الغلاء الحماما<sup>(٣)</sup>

أوشكت تأكل الهبيد من الفقر وكادت تذود عنه النعاما<sup>(٤)</sup>

ضاق في مصر قسمنا فاعذرونا      إن حسدنا على الجلاء الشأما

---

(١) الأنام: الناس .

(٢) الأوام: الظمأ .

(٣) الحمام: الموت .

(٤) الهبيد: من أخس أنواع الطعام ، يقدم علفا للدواب .

قد شقينا - ونحن كرمنا الله - بعصر يكرم الأنعاما

الشاعر متأثر أشد التأثر في هذه الأبيات لما عليه المصريون من وضع سيء ، ويهيب بالمصلحين بأن يسارعوا لنجدة الشعب ويردوا عنه صولة الجوع ولدغ الفقر، وإن المتأمل في هذه الأبيات المستلة من قصيدة طويلة، يدرك أن الحزن والأسى والألم كلها معان سيطرت على ألفاظ الشاعر التي استخدمها للتعبير عن هذه المآسي، وذلك في قوله: ضاق بنا العيش، عزت السلعة الذليلة، بات مسح الحذاء خطبا جساما، غدا القوت في يد الناس كالياقوت، نوى الفقير الصياما، يظن اللحوم صيدا حراما من لي بأن أصيب الإداما، تؤثر الموت جوعا، بنو مصر وهمي مصر جوعى ، كيف نمسي عطاشا ، نشكو الأواما .

وأقام جماعة من السوريين حفلا تكريميا لحافظ إبراهيم ، فجادت قريحته في هذه المناسبة بقصيدة حملت عنوان (لمصر أم لربوع الشام تنتسب) ((من البسيط)).

يقول فيها :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب	هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما	قلب الهلال عليها خافق يجب <sup>(١)</sup>
خدران للضاد لم تهتك ستورهما	ولا تحول عن مغناهما الأدب <sup>(٢)</sup>

ويقول:

(١) يجب: يرتعش ، يرتجف .

(٢) خدران : مسكنان - الضاد: اللغة العربية .

إذا أملت بوادي النيل نازلة  
باتت لها راسيات الشام تضطرب<sup>(١)</sup>  
لو أخلص النيل والأردن ودهما  
تصافحت منهما الأمواه والعشب  
ويقول:

لولا رجال تغالوا في سياستهم  
منا ومنهم لما لنا ولا عتبوا<sup>(٢)</sup>  
إن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم  
فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

بهذه اللغة يجسد الشاعر الوحدة بين مصر والشام، وكأنه يستشرف المستقبل، فقد تمت  
الوحدة بينهما في النصف الأول من القرن العشرين بعد وفاة الشاعر، ولكنها لم تدم طويلا .  
وهو يرى أن هذه الوحدة حتمية؛ لأنها جمعا المجد من أطراف، على ومجدا ، ولغة وأدبا .

ثم نراه يمد يده مصافحا يد أبناء الشام، بل يد العرب جميعا ، داعيا إلى وحدة العرب،  
بالرغم من دعوة الداعين إلى الفرقة والانقسام. ويرى أن الساسة في بلاد الشام ومصر غالوا  
في سياستهم ، ولولا هذه المغالاة لما لناهم ولا عتبوا علينا ، ويقول إنني أقبل التهمة في مودتي  
لأبناء الشام ويحسبونها لي ذنبا، فأنا لي عظيم الفخر في هذا الذنب.

يبدو في هذه الأبيات الحس القومي المرهف عند حافظ إبراهيم ، على الرغم مما يبرز فيها  
من معاني التألم والتوجع والحزن لفرقة العرب وتباعدهم عن بعضهم البعض، يبرز ذلك من  
خلال اللغة المستخدمة للتعبير عن هذه المعاني ، مثل قوله : يجب ، أملت ، نازلة، تضطرب،  
تغالوا، لنا، عتبوا، ذنبا .

(١) راسيات الشام: جبالها، تضطرب: تهتز، تتحرك .

(٢) تغالوا: بالغوا، تهادوا .

وإن ما عرضناه من شعر فيما تقدم، إنما جئنا به كشاهد على ما ذهبنا إليه من أن حافظ إبراهيم كان شاعرا وطنيا قوميا، ولا داعي للاسترسال في عرض مزيد من هذه النماذج، فحسبنا ما عرضناه.

## ٢ - المقاومات والمنددات بالاستعمار والمستعمرين :

اكتوى حافظ إبراهيم كما اكتوى الشعب المصري بنار ظلم المحتلين المستعمرين، وعانى كما عانى الشعب المصري من وطأة حكم الانتداب المحتل الذي كانت تقوم سياسته على الاستبداد والطغيان وينطلق من مبدأ، فرق تسد، فهب حافظ إبراهيم مدافعا عن وطنه وأبنائه، مهيبا بهم إلى التنبيه واليقظة، وعدم الركون إلى عود الكاذبة وكلامه المعسول.. وقد جسد هذا الأمر والأوضاع التي يعيشها الشعب المصري في كثير من قصائده التي نظمها في هذا الشأن.

نقتطف بعضا من شعره الذي قاله في هذا الجانب :

يقول في قصيدة قالها في السير (غورست) عميد الدولة الإنجليزية وقد جاء إلى مصر خلفا للورد (كرومر) سنة ١٩٠٧ (من الوافر):

بنات الشعر بالنفحات جودي	فهذا يوم شاعرك المجيد <sup>(١)</sup>
وحلي عقدة من أصغريه	يلن هتافه قاسي الحديد <sup>(٢)</sup>

(١) بنات الشعر: ألفاظه وقوافيه ومعانيه.

(٢) الأصغر: القلب واللسان.

فما أنا واقف برسوم دار      أسائلها ولا كلف برود<sup>(١)</sup>  
ولكنني وقفت أنوح نوحا      على قومي وأهتف بالتشيد  
وأدفع عنها بشبا يراع      يصول بكل قافية شرود<sup>(٢)</sup>  
بنات الشعر إن هي أسعدتني      شكوت من العميد إلى العميد

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات بنات الشعر التي هي ألفاظه وقوافيه ومعانيه بأن تسعفه للقول من أجل مصر وشعب مصر، وهو لا يقف مخاطبا أطلال دار درست. ولا يتغزل بفتاة عادة حسناء كما كان يفعل القدامى من شعراء العربية، إنها يقف باكيا نائحا نادبا حال قومه، وهو لا يملك من السلاح سوى يراع قلمه، يصول به مدافعا عنهم باثا شكواهم، فيشكو إلى العميد الجديد ما كان فعله سلفه العميد السابق وهو لا ينكر فضله البتة، بل يغمز من قناته.

ومن الملاحظ أن الشاعر يستخدم ألفاظا وتعابير ذكرها الشعراء القدامى في قصائدهم كقوله: فما أنا واقف برسوم دار..... وكأنه ينظر إلى قول الشاعر القديم النابغة الذهبياني:

وقفت فيها أصيلا أنا أسائلها      عيت جوابا وما بالدار من أحد  
ويقول في هذه القصيدة:

جراح في النفوس نغرن نغرا      وكن قد اندملن على صديد<sup>(٣)</sup>

(١) الرود: الفتاة الغادة الحسنة.

(٢) اليراع: القلم، وشباه: حده وطرفه.

(٣) نغرن: سالتا دما وقيحا، اندملن: برثن وشفين.

إذا ما هاجهن أسى جديد      هتكن سرائر القلب الجليد<sup>(١)</sup>

فأجسام المصريين لم تجرح ، وإنما جرحت نفوسهم فكانت أكثر تألماً ، وقد سالت دما  
وقيحا وهذه الجراح لم تشف منها النفوس حقيقة ، ولكنها رمت على إهمال وفساد ، وكأن  
حافظ إبراهيم ينظر إلى قول المتنبي :

إذا ما الجرح رم على فساد      تبين فيه إهمال الطبيب  
ويقول فيها :

فليت (كرومرا) قد دام فينا      يطوق بالسلاسل كل جيد<sup>(٢)</sup>  
ويتحف (مصر) أنا بعد أن      بمجلود ومقتول شهيد  
لنزع هذه الأكفان عنا      ونبعث في العوالم من جديد  
رمى (دار المعارف) بالرزايا      وجاء بكل جبار عنيد<sup>(٣)</sup>  
يدل بحولته ويتيه تيهها      ويعبث بالنهي عبث الوليد<sup>(٤)</sup>  
فبدد شملها وأدال منهاها      وصاح بها : سبيك أن تبدي

يتألم الشاعر في هذه الأبيات من أفعال (كرومر) في مصر ، وينحي عليه باللائمة ، فقد  
عاث في مصر فسادا عم البلاد ، وقتلا طال الكثير من العباد ، ونهباً أتى على الخيرات ، وقضاء

(١) هتكن : شققن ، الجليد : الصلب .

(٢) الجيد : العنق .

(٣) الرزايا : جميع رزية وهي المصيبة .

(٤) الوليد : اسم الخليفة الأموي العاشر المستهتر بالقيم والدين .



ألمات المعارف والحضارات، ثم يستحث المصريين على النهوض من كبوتهم، وخلع أكفان الحزن والبدء بعهد جديد، يعيد ماضيهم المجيد، ويثبت فيه المصريون وجودهم الفعال في عالم الكون .

ثم يقول مخاطبا العميد الجديد :

أرى أحداً ثكم ملكوا علينا	(بمصر) موارد العيش الرغيد <sup>(١)</sup>
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعا	وضاق بحملهم ذرع البريد
أكل موظف منكم قدير	على التشريع في ظل العميد؟
فضع حدا لهم وانظر إلينا	إذا أنصفتنا نظر الودود
وخبرهم وأنت بنا خير	بأن الذل شنشنة العبيد <sup>(٢)</sup>
وأن نفوس هذا الخلق تأبى	لغير إلهها ذل السجود

فالشاعر مستاء عن سياسة العميد الجديد الذي أمر الأحداث والصبية من الموظفين على المصريين، ويطلبه بأن يضع حدا لهذا الصنع المشين، وأن يعلمهم بأن الذل لا يقبله إلا العبيد، وإن نفوس المصريين أبية عزيزة لا تقبل الذل والهوان ولا تسجد لغير الله الخالق الديان :

ويقول فيها :

إذا ماناح (أسوان) باك	سمعت أنين شاك في (رشيد)
جميع الناس في البلوى سواء	بأدنى الثغر أو أعلى الصعيد

(١) الأحداث: الصغار السن .

(٢) شنشنة العبيد: ما اعتادوا عليه من رطانة .

يتحدث الشاعر في هذين البيتين عن تماسك المصريين ومشاعرهم الموحدة. فإذا ما ناح  
باك في ناحية من مصر سمعت لها صدى أنين أخرى منها، فهم موحدون متماسكون في  
ثغورهم وأعلى صعيدهم.  
ويقول فيها:

أجئت تحوطنا وترد عنا      وترفعنا إلى أوج السعود ؟  
أم (الرد) الذي أنحى علينا      أتى في ثوب معتمد جديد ؟  
يتساءل الشاعر عن مهمة العميد الجديد، قائلاً له: أجئت لرعايتنا ورفع شأننا؟ أم أنك  
جئت تلبس ثوب سلفك الذي لا قينا على يديه كل شقاء وعناء ؟ فكنتما وجهين لعملة  
واحدة.

لقد طال نفس الشاعر في هذه القصيدة، فبلغت أبياتها سبعة وستين بيتاً، ولا غرو في  
ذلك، فحافظ ابن الشعب، عاش مع الشعب، واصطلى بنار سياسة الإنجليز الجائرة، فكانت  
لقريحته هذا الدفق من التعبير والتصوير، مستخدماً الألفاظ والعبارات التي تحمل الكثير  
الكثير من معاني الأسى والألم مما حل بالمصريين، نتيجة سياسة المستعمر الظالمة والتي أهلكت  
الزرع والضرع وأتت على الحجر والبشر، كل ذلك جسده الشاعر في ألفاظه وعباراته، من  
مثل: ما أنا واقف برسوم، ولا كلف برود، أنوح نوحاً، جراح في النفوس، نغرن نغرن،  
اندملن على صديد، هاجهن رأسى جديد، يطوق بالسلاسل كل جيد، مجلود ومقتول شهيد،  
لننزع الأكفان، الرزايا، ضبقنا ذرعاً، شنشنة العبيد، ناح باك، سمعت أنين شاك، البلوي ....  
فكلها ألفاظ وتعبير متألة باكية نائحة .

لقد كان حافظ إبراهيم لسان حال شعبه، وسفير بني أمته، يتألم لما يلحق بهم من أذى، ويتفطر قلبه حزنا على وطنه الذي عاث فيه الاستعمار الفساد ومارس فيه الاعتداء على المواطنين وإذلالهم. فهاهو يقول في قصيدة نظمها إثر حادثة (دنشواي)<sup>(١)</sup> التي وقعت فيها المصادمات بين أهالي (دنشواي) والإنجليز، إثر تعرض بضعة ضباط إنجليز للاعتداء، مما اضطر الحكومة البريطانية ممثلة باللورد (كرومر) إلى الرد على شبان المواطنين في (دنشواي) فحكمت على عدد منهم بالقتل، أو بالسجن، أو بالجلد، والقصيدة من (البحر الحفيف) :

أيهـا القائمون بالأمر فينا	هل نسيتم ولاءنا والوداد
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً	وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاداً <sup>(٢)</sup>
وإذا أعوزتكم ذات طوق	بين تلك الربا فصيدوا العباداً <sup>(٣)</sup>
إنما نحن والحمام سواء	لم تغادر أطواقنا الأحياداً <sup>(٤)</sup>
لا تظنوا بنا العقوق ولكن	أرشدونا إذا ضللنا الرشاداً <sup>(٥)</sup>
جاء جهالنا بأمر وجئتم	ضعف ضعفيه قسوة واشتداداً

(١) دنشواي : اسم قرية تقع في الصعيد المصري .

(٢) جوبوا : تجولوا وانتشروا .

(٣) أعوزتكم : أعجزتكم، ذات طوق : الحمامة ، وكما هو معلوم فإن سبب حادثة دنشواي كان اصطيد الحمام من قبل ضباط الانجليز.

(٤) الأحياد : الرقاب والأعناق .

(٥) العقوق : الجحود .

يخاطب الشاعر الانجليز القائمين على أمر المصريين بأن يحسنوا السياسة ويطبقوا العدالة فلا يأخذوا البريء بالمجرم، ويقول لهم لا داعي لحشد جيوشكم فالأمور كلها بين أيديكم فأنتم الحكام، وإذا لم تتمكنوا من صيد الحمام في ربوع مصر تحولوا إلى صيد العباد .

ويقول فيها:

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو	أقصاها أردتم أم كيدا؟ <sup>(١)</sup>
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو	أنفوسا أصبتم أم جمادا؟
ليت شعري أتلك (محكمة التفتيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا؟	
كيف يحلو من القوي التشفي	من ضعيف ألقى إليه القيادا؟ <sup>(٢)</sup>
إنها مثلة تشف عن الغيظ	ولسنا لغيظكم أندادا <sup>(٣)</sup>
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم	إنما يكرم الجواد الجوادا
إن عشرين حجة بعد خمس	علمتنا السكون مهما تمادى <sup>(٤)</sup>
أمة النيل أكبرت أن تعادي	من رماها وأشفقت أن تعادي
ليس فيها إلا كلام وإلا	حسرة بعد حسرة تنهادي

(١) ضننتم : بخلتم .

(٢) التشفي الانتقام الذي يعقبه سرور المتشفي .

(٣) المثلة : التنكيل بالضحية أو القتل .

(٤) الحجة : السنة، تمادى : طال وامتد .

بهذه الصياغة القوية الرائعة يندد الشاعر بسياسة الإنجليز الجائرة، طالبا إليهم أن يحسنوا العقاب ويعدلوا في الحكم، لكنهم كانوا جائرين في الحكم الذي صدر على شبان بلدة (ونشواي) بالقتل، وهذا مما يعيد ذاكرة الزمن إلى الوراء، لتذكر الأذهان أيام محاكم التفتيش في أوروبا، وأيام محاكمات (نيرون) الإمبراطور الروماني، الطاغية، ويخاطب الإنجليز طالبا إليهم أن يحسنوا القتل إن بخلوا بالعفو وأن يتعدوا عن التعذيب، قائلا لهم أكنتم تنوون القصاص، أم أضمرتم الكيد والضعينة؟ وأكنتم تعاقبون نفوسا بشرية أم جهادات حجرية؟ كيف يحلو للقوي التشفي بالضعيف؟ سلم إليه أمره وامثل لأوامره، حقا إنها جريمة العصر التي تحكي غيظكم وحقكم ونحن لسنا بأنداد لكم، كان عليكم أن تكرمونا في بلادنا، فالكريم يكرم الكريم، فيملكه، واللثيم يخذل الكريم إذا أكرمه. ويتأسى الشاعر على استمرار الاحتلال والاستعمار لأرض النيل، وأن مصر أم الحضارات والاستقرار والحكمة، فمن العار على بريطانيا أن تعيث في هذه البلاد التي ما عرف عنها إلا العدل والتسامح، لا العداء والنفور، ثم يتوجه إلى المدعي العمومي، القاضي المصري الذي كان ألعوبة في أيدي الإنجليز، فنفذ أوامره بالحكم بالإعدام على المصريين، يقول حافظ إبراهيم في ذلك :

أيها المدعي العمومي مهلا	بعض هذا فقد بلغت المراد
قد ضمنا لك القضاء بمصر	وضمنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر	عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا
لا جرى النيل في نواحيك يا (مصر) ولا جادك الحيا حيث جادا <sup>(١)</sup>	

(١) الحيا: المطر.

أنت أنبت ذلك النبات يا (مصر) فأضحى عليك شوكا قتدا<sup>(١)</sup>

أنت أنبت ناعقا قام بالأمس فأدمى القلوب والأكبادا<sup>(٢)</sup>

إيه يا مدره القضاء ويا من ساد في غفلة الزمان وشادا<sup>(٣)</sup>

أنت جلادنا فلا تنس أننا قد لبسنا على يديك الحدادا<sup>(٤)</sup>

تبدو في هذه الأبيات سورة غضب الشاعر على المدعي العمومي الذي حكم بالإعدام على الشباب المصريين بإيعاز من الإنجليز، فقد كان ظالما متآمرا في حكمه هذا وكان مثالا للعقوق والجحود والنكران لمصر وللمصريين، وفي الوقت نفسه ينحى باللائمة على المصريين فهم الذين أوجدوا مثل هؤلاء القضاة والحكام المستبدين؛ نتيجة إذعانهم وسكوتهم على وجود الاستعمار والاحتلال على أرض بلادهم، ويلوم المصريين على تنصيب مثل هذا القاضي، الذي هو بمثابة غراب لا ينطق إلا على خراب ودمار ويذكره بأنه هو الآن جلاد المصريين، لكن عليه ألا ينسى بأنه في قضائه هذا أورث المصريين الحزن، ولبسوا على يديه ثياب الحسرة والألم حدادا على قتلاهم.

وتبدو لغة الحزن في هذه الأبيات والأبيات التي سبقتها واضحة جلية متمثلة في ألفاظ الشاعر وعباراته من مثل: ابتغوا صيدكم، جوبوا البلاد، فصيدوا العبادا، إنما نحن والحمام سواء، لم تغادر أطواقنا الأجيادا، ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا، أحسنوا القتل، أقصاها

(١) القتاد: الشوك.

(٢) الناعق: الزاعق بالخراب.

(٣) المدره: المفوه.

(٤) الحداد: الحزن.



أردتم أم كيادا؟ أنفوسا أصبتم أم جمادا؟ محكمة التفتيش عادت، عهد نيرون عادا، التشفي من ضعيف ألقى إليه القيادا، إنها مثلة، تشف عن الغيظ، علمنا السكون مهما تمدادى، حسرة بعد حسرة تتهاولى، شفيت الفؤادا، لا جرى النيل في نواصيك يا مصر، فأضحى عليك شوكا قتادا، أنبت ناعقا، فأدمى القلوب والأكبادا، أنت جلادنا، لبسنا على يديك الحدادا .

ويقول في قصيدة منددا بسياسية الإنجليز (من الطويل):

فكان لكم بين الشعوب ذمام <sup>(١)</sup>	بنيتم على الأخلاق أساس ملككم
وحل بها ضعف ودب سقام <sup>(٢)</sup>	فما لي أرى الأخلاق قد شاب قرنها
فليس للملك الظالمين دوام	أخاف عليكم عشرة بعد نهضة
لما قام بين الأمتين خصام	أضعتم ودادا لورعيتم عهوده
فليس على باغي الحياة ملام	إذا كان في حسن التفاهم موتنا

يندد الشاعر في هذه الأبيات تنديدا مؤدبا ومهذبا بسياسة الإنجليز، فيذكرهم بأن سياسة العدل والأخلاق التي عرفوا بها في بادئ الأمر، سرعان ما انقلبت إلى قهر وظلم، وفساد، ويلفت نظرهم إلى أن دوام الحال من المحال فلربما لحقتهم عشرة بعد نهضة، لأن ظلم الظالمين إلى زوال وإن طال ليله وظلمته، ويقول لهم: تنكرتم لوداد المصريين فكان ذلك سببا في ظهور المشاكل والخصومات، وإذا كان طلبنا في أن يكون حسن التفاهم هو أساس تعاملنا وكان فيه موتنا، فحينئذ ليس على من يطلب الحياة الكريمة أي لوم أو مأخذ.

(١) الذمام: العهود .

(٢) السقام: المرض والداء .



تبدو في هذه الأبيات لغة الشاعر الحزينة بأسلوب غير مباشر، كاستخدامه للألفاظ والعبارات من مثل : حل بها ضعف، ودب سقام، لما قام بين الأمتين خصام، موتنا، ليس على باغي الحياة ملام....

ويقول في قصيدة يشكو فيها الاحتلال الإنجليزي (من الطويل):

لقد كان فينا الظلم فوضى فهزبت	حواشيه حتى بات ظلما منظما <sup>(١)</sup>
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى	وأن أصبح المصري حرا منعمنا <sup>(٢)</sup>
أعد عهد (اسماعيل) جلدا وسخرة	فإني رأيت المن أنكى وآلما <sup>(٣)</sup>

يعرض الشاعر بالحاكم الإنجليزي ويغمر سياسته، حيث راح يعض ظلما، ما جعل المصريين يتذكرون عهد الخديوي اسماعيل الذي اتسم بالقسوة والعبودية والسخرة .

ويقول فيها :

عملتم على عز الجهاد وذلنا	فأعليتم طينا وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجذب أهلها	فلا أطلعت نبئا ولا جادها السما <sup>(٤)</sup>
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى	به ربه للسوق ألفاه درهما <sup>(٥)</sup>

(١) حواشيه: أطرافه، نواحيه .

(٢) تمن علينا : إشارة إلى الحاكم الإنجليزي .

(٣) المن: التذكير بالفضل والعطية.

(٤) جادها: أمطرها .

(٥) نهش : نبسم : ألفاه : وجده .

فلا تحسبوا في وفرة المال - لم تفد متاعا ولم تعصم من الفقر - مغنما<sup>(١)</sup>

فإن كثير المال - والخفض وارف - قليل إذا حل الغلاء وخيما<sup>(٢)</sup>

يغمز الشاعر ثانية في هذه الأبيات من سياسة الحاكم الإنجليزي، ثائرا في وجهه ووجه أسياده وعملائه، مدافعا عن عزة المصريين وكرامتهم في وجه الاستعمار والاستغلال، ويقول: لقد كان عمل الاحتلال الإغلاء من شأن الجهاد وإذلال المصريين وإرخاص دمائهم، وإذا أخصبت أرض مصر ولحق أهلها الجذب والفقر فإني أسأل الله ألا تجود السماء على أرضها بالماء، ويرى أن المال الوفير الذي تدره أرض مصر يذهب إلى جيوب المحتلين، ولم يكن له أي أثر في طرد الفقر وجلب المسرة.

ولغة الحزن في هذه الأبيات واضحة وتتمثل في الألفاظ والعبارات التي استخدمها الشاعر من مثل: فينا الظلم فوضى، تمن علينا، أعد عهد (اسماعيل)، جلدنا وسخرة. رأيت المن أنكى وآلما، عملتم على عز الجهاد وذلنا. أعليتم طينا وأرخصتم دما، أجذب أهلها، فلا أطلعت نبنا ولا جادها السماء، ألفاه درهما، ولم تعصم الفقر، حل الغلاء وخيما.

ويقول في قصيدة منددا بسياسة الإنجليز ومهددا (من الخفيف):

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجم واحرمونا النسيما<sup>(٣)</sup>

وأقيموا للعسف في كل شبر (كنستبلا) بالسوط يفري الأديما<sup>(٤)</sup>

(١) تعصم: تحفظ.

(٢) الخفض: ضد الغلاء، وهو اليسر والبجوحة، خيم: سيطر وبسط نفوذه.

(٣) اطمسوا: امحوا.

(٤) العسف: الظلم، الأديم: الجلد.

إننا لن نحول عن مصر أو ترونا في الترب عظماء رميا<sup>(١)</sup>

نشتم في هذه الأبيات رائحة التهديد والتنديد بسياسة الإنجليز، فمهما قاموا به من ظلم واستعباد فإنهم لن يستطيعوا أن يثنوا من عزيمة المصريين وإرادتهم.  
ويقول فيها :

فشهدنا ظلما يقال له العدل وودا يسقي الحميا الحميا<sup>(٢)</sup>

فاتقوا غضبة العواصف إني قد رأيت المصير أمسى وخيما<sup>(٣)</sup>  
يقول لقد شهدنا على أيديكم الظلم والاستبداد ، وإن أسميتموه عدلا ، وزعمتم ودنا ،  
وكان نارا سقاء للصديق الوفي القريب.

الألفاظ التي استخدمها الشاعر في هذه الأبيات المستلة من القصيدة تحكي معاني الحزن والأسى وذلك من مثل قوله : حولوا النيل، احجبوا الضوء، اطمسوا النجم، احرمونا النسيما، أقيموا العسف، يفري الأديما، ترونا في الترب عظماء رميا، شهدنا ظلما يقال له العدل، يسقي الحميا الحميا، غضبة العواصف ، أمسى وخيما ....

ويقول في بيتين منتقدا سياسة الإنجليز الحيادية (من الكامل) :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم فمصابكم ومصابنا سيان<sup>(٤)</sup>

(١) رميا : باليا .

(٢) الحميم الأولى : الصديق الوفي القريب ، والحميم الثانية : النار .

(٣) وخيما : سيئا .

(٤) سيان : واحد .

حاربتم أخلاقكم لتحاربوا أخلاقنا فتألم الشعبان

ويسخر الشاعر من سياسة حياد الإنجليز، هي في نظره كاذبة .

الفاظ التألم واضحة في البيتين في قوله: فمصابكم ومصابنا، فتألم الشعبان .

ويقول في قصيدة في السير (مكمهون الإنجليزي) لما عين مفوضا عاما للإنجليز لدى

مصر سنة ١٩١٥ (من مجزوء الكامل):

أي (مكمهون) قدمت بالقصد الحميد وبالرعايه

ماذا حملت لنا عن الملك الكبير وعن (غرايه) ؟

أوضح (لمصر) الفرق ما بين السيادة والحمايه

وأزل شكوكا بالنفوس تعلقة منذ البدايه

ودع الوعود فإنها فيما مضى كانت روايه

يحذر الشاعر السير (مكمهون) من مغبة سياسة الوعود الكاذبة والمماطلة التي دأب

عليها الإنجليز، وفي الوقت نفسه يسأل عما يحمله عن ملك بريطانيا ووزير خارجيتها آنذاك

(إدوار غرايه) ، كما يطالبه بتبديد الشكوك التي ساورت المصريين منذ تعيينه مفوضا في مصر.

ويقول فيها :

أضحت ربوع النيل سلطنة وقد كانت ولايه

فتعهدوها بالصلاح وأحسنوا فيها الوصايه

إننا لنشكو واثقين بعدل من يشكي الشكايه

نرجو حياة حرة مضمونة في ظل رايه

ونروم تعلّياً يكون له من الفوضى وقاياه  
ونود ألا تسمعوا فينا السعاية والوشاياه  
يحث الشاعر حافظ إبراهيم السير (مكمهون) على أن ينهج سياسة صادقة، تعمل على  
توطيد أركان البلاد وترسي قواعد الإصلاح والبناء والحرية والكرامة، وتصون العلم وأهله.  
ويقول فيها:

أنتم أطباء الشعوب وأنبل الأقبوام غايه  
أنى حللتم في البلاد لكم من الإصلاح آيه  
وعدلتم فملكتم الدنيا وفي العدل الكفايه  
إن تنصروا المستضعفين فنحن أضعفهم نكايه  
أو تعملوا لصلاحنا فتداركوه إلى النهايه  
إننا بلغنا رشداً والرشد تسبقه الغوايه  
لا تأخذونا بالكلام فليس في الشكوى جنايه  
هذا (حسين) فوق عرش (النيل) تحرسه العناية  
هو خير من يننى لنا فدعوه ينهض بالبنايه  
يطري الشاعر في هذه الأبيات على بريطانيا وعظمتها ومكانتها بين الدول، وبعد لها  
وسياستها الحكيمة، ولكن يتمنى الشاعر وأبناء مصر جميعاً أن تكون بريطانيا وفيه لمبادئها وأن  
تكون صادقة في وعودها، وأن تؤازر زعيم مصر ومليكيها (حسين كامل) فهو وحده الذي  
يستحق أن يحكم مصر وتصدر عنه الأحكام والقوانين.

ولا يخفى على المتأمل في هذه الأبيات أن الشاعر متوجس ومتخوف من أن تستمر سياسة الإنجليز ذات الوعود الكاذبة، كما أن الشاعر يأمل أن يعيش المصريون عيشة حرة كريمة في ظل راية واحدة، وأن ينالوا حظهم من التعليم ليطردوا به الفوضى، ويحميهم من براثن الجهل والتخلف، كما أنه يثني على البريطانيين من أنهم أطباء الشعوب، يداوون أمراضها، ويشفون أسقامها أينما حلوا وأينما كانوا، كما أنهم يعملون على إشاعة العدل ونصرة المستضعفين، ويطلب منهم أن يعطوا للمصريين حريتهم ويسندوا أمر إدارة بلادهم إلى زعمائهم وحكامهم الوطنيين..

ولا شك أن مثل هذا الإطار من الشاعر للإنجليز هو من قبيل المدح المبطن؛ لأنه سبق أن اتهمهم بالعمل على تجهيل الشعوب وقهرها بظلمهم واستبدادهم .

وقد استخدم الشاعر ألفاظا تنم عن الأمل والخوف في آن واحد وذلك من مثل قوله: ماذا حملت لنا؟ الفرق بين السيادة والحماية، أزل شكوكا، دع الوعود، كانت رواية، إنا لنشكو، بعدل من يشكي الشكاية، نرجو حياة حرة، ونروم تعليما يكون له من الفوضى وقاية، ألا تسمعوا فينا السعاية والوشاية، أنتم أطباء الشعوب، إن تنصروا المستضعفين، نحن أضعفهم، نكاية، فليس في الشكوى جناية .

### ٣- المنوهات والداعمات لدور (رعاية الأطفال) .

حافظ إبراهيم شاعر الشعب، ابن مصر الكادح، القريب من طبقة الفقراء المحرومين والمعوزين المشردين، تحزنه أاناتهم، وتؤلمه أوجاعهم، وتبكيه حسراتهم، جسده هذه المعاني في شعره الاجتماعي، وعبر عنها أصدق تعبير، لأنها كانت تعتلج في قلبه، وتذيب حشاشة نفسه،

فها هو يقول في قصيدة يتحدث فيها باسم يتيم كانت قد كفلته الجمعية وربته ورعته (من مجزوء الكامل) .

قضيت عهد حداثتي      ما بين ذل واغتراب  
لم يغن عنني بين مشرقها ومغربها      اضطراب  
صفرت يدي فخوى لها      رأسي وجوفي والوطاب<sup>(١)</sup>  
وأنا بن عشرين ليس في      طوقي مكافحة الصعاب<sup>(٢)</sup>  
لم يبق من أهلي سوى      ذكر تناساه الصحاب

يتحدث اليتيم في هذه الأبيات عن طفولته ذليلاً مغترباً، فقيراً، بائساً، يتيماً ضائعاً، غص الإيهاب لا يقوى على مواجهة الصعاب ولما يبلغ العاشرة من عمره، وقبل أن ييسم له الدهر، ويتلقفه المسؤولون عن الجمعية الخيرية فيبروه ويحسنوا إليه. ولغة الحزن والأسى ظاهرة في ألفاظ هذه الأبيات وتراكيبها من مثل قوله: ما بين ذل واغتراب، صفرت يدي، فخوى لها رأسي وجوفي والوطاب، لم يبق من أهلي سوى ذكر، تناساه الصحاب .

ويقول فيها :

أمشي يرنحني الأسى      والبؤس ترنيح الشراب<sup>(٣)</sup>

(١) صفرت يدي أي كانت فارغة، الوطاب: سقاء اللبن .

(٢) طوقي : قدرتي ، استطاعتي .

(٣) يرنحني: يجعلني أترنح وأتمايل.



فلكم ظللت على طوى	يومي وبت على تباب <sup>(١)</sup>
والجوع فراس له	ظفر يصول به وناب <sup>(٢)</sup>
فكأنه في مهجتي	نصل تغفل للنصاب
فإذا ظفرت بكسرة	فإدامها مني لعاب <sup>(٣)</sup>
وعلي طمر لو هفت	ريح الشمال به لذاب <sup>(٤)</sup>
فخروقه ومصابي	في العد يخطئها الحساب
ما زلت أوسع محتني	صبرا واحتمل العذاب
حتى تنفس صبح إقبالي	ونجم النحس غاب
فتلقفتني فتية رحة رحب الشائل والجناب <sup>(٥)</sup>	
مهدوا لأنفسهم بما	صنعوه زلفى واحتساب <sup>(٦)</sup>
كم أسرة ضاق الرجاء بها وأعيها الطلاب <sup>(٧)</sup>	

(١) الطوى: الجوع. تباب: هلاك.

(٢) يصول: يهجم. فراس: شديد الافتراس .

(٣) الإدام: ما يؤخذ مع الخبز من الطعام.

(٤) الطمر: الثوب الرث.

(٥) رحب الشائل: ذو صفات كريمة حسنة.

(٦) زلفى: قري.

(٧) أعيها: أعجزها.

دقوا عليها بابها      والليل مسدول النقاب<sup>(١)</sup>  
وتعاهدوها مثلها      يتعاهد النبت السحاب

يستمر الشاعر في الحديث عن هذا اليتيم فيصوره في مشهد مؤلم. إنه يمشي هائما على وجهه مترنحا ترنيح الثمل، يقضي يومه على جوع، ويبيت على هلاك، والجوع حيوان مفترس سلاحه الأظفار والأنياب يصول بها على فريسته، وقد تغلغل الجوع فنفذ إلى قلبه حتى النصاب، وإذا ما ظفر هذا اليتيم بكسرة من الخبز الجاف كان إدامها لعبه، ويلبس اليتيم أطمارا بالية إذا ما مر بها ريح الشمال أطارها وأذابها، وهي ممزقة كثيرة الخروق تشكل مع ما يعانيه من مصائب كما يخطئ من يحاول تعداده أو حسابه، ولكنه كان يلوذ بالصبر ويحتمل العذاب، وما بعد الضيق إلا الفرج، وإن بعد العسر يسرا، فيتنفس صبحه ويقبل سعده، ويغيب نجم نحسه، فإذا بفتية ذوي شمائل طيبة وصفات رحبة حسنة يتلقفونه ويتعهدونه تقربا إلى الله - سبحانه - واحتسابا له، فهؤلاء الفتية يسارعون إلى إغاثة الأسر المعوزة والتي ضاقت بها الدنيا واسودت أيامها.

وقد صور الشاعر مشهد هذا اليتيم تمهيدا للثناء على ما قامت به الجمعية لجهة تقديمها العون للأسر الفقيرة المعوزة.

والأبيات السابقة تفيض بمعاني الحزن والأسى واللوعة وقد جسدتها لغة الشاعر المتمثلة في ألفاظه وتراكيبه من مثل قوله: أمشي يرنحني الأسى والبؤس، ظللت على طوى، بت على تباب، الجوع فراس، نصل تغلغل للنصاب، ظفرت بكسرة، إدامها مني لعب، علي

(١) مسدول النقاب: حالك شديد الظلمة.

طمر، فخروقه ومصائب يخططها الحساب، أوسع محتتي، واحتمل العذاب، كم أسرة ضاق  
الرجاء بها، والليل مسدول النقب.

ويقول فيها :

جميعية خيرية	قامت لتخفيف المصاب
قد كان فيها (عبده)	عونا يلبي من أهاب
لم يدع مساحا إلى	إنعاشها إلا أجاب
ما غاب عنها مرة	حتى تغيب في التراب

يثني الشاعر في هذه الأبيات على صنيع الشيخ (محمد عبده) وحسن رعايته للجمعية،  
وحثه المحسنين على التبرع بالمال للجمعية، الذين كانوا يسارعون إلى إنعاشها ومساعدتها على  
تقديم العون لكل محتاج ملتح، ويذكر أن الشيخ (محمد عبده) كان دائم التواجد والحضور في  
هذه الجمعية، ولم يغب عنها إلى أن مات وغيبه التراب.

ويقول في قصيدة بمناسبة حفل أقيم تكريما لجمعية رعاية الأطفال (من مجزوء الكامل):

هَذَا صَبِي هَائِم	تَحْتَ الظَّلَامِ هِيَامُ حَائِرٍ <sup>(١)</sup>
أَبْلَى الشَّقَاءِ جَدِيدِهِ	وَتَقَلَّمَتْ مِنْهُ الْأَظْفَارُ
فَنَظَرَ إِلَى أَسْمَالِهِ	لَمْ يَبْقَ مِنْهَا مَا يَظَاهِرُ <sup>(٢)</sup>

(١) هائم: يسير في الأرض على غير هدى .

(٢) الأسمال: الثياب الرثة البالية .

- هو لا يريد فراقها <sup>(١)</sup> خوف القوارصي والهواجر
- إني أعيد ضلوعه <sup>(٢)</sup> من تحتها والليل عاكر
- أبصرت هيكل عظمه <sup>(٣)</sup> فذكرت سكان المقابر
- فكانت أيتها هو ميت <sup>(٤)</sup> أحياء (عيسى) بعد عازر
- وتراه من فرط الهزال <sup>(٥)</sup> تكاد تثقبه المواطن
- عجبا أيفرسه الطوى <sup>(٦)</sup> في قلب حاضرة الحواضر
- وتغوليه البؤس وطرف <sup>(٧)</sup> (رعاية الأطفال) ساهر
- كم مثله تحت الدجى <sup>(٨)</sup> أسوان بادي الضر طائر
- خزيان، يخرج في الظلام <sup>(٩)</sup> خروج خفاش المغاور
- متلفعا جلبابا <sup>(١٠)</sup> مترقبا معروف عابر

هكذا يصور الشاعر مشهد هذا الصبي الهائم على وجهه، الحائر في دنياه المظلمة، فقد أتى الشقاء على ما لديه من جديد ملابس، وتقلعت أظفاره، ويطلب الشاعر ممن يخاطبه أن ينظر

(١) القوارس: البرد. والهواجر: جمع هاجرة، شدة الحر.

(٢) عاكر: مدهم، شديد الظلمة.

(٣) عازر: اسم الرجل الميت الذي أحياه عيسى بن مريم عليه السلام.

(٤) أيفرسه: أي أيفترسه.

(٥) أسوان: حزين بائس.

(٦) الخفاش: طائر ليلي معروف، المغاور: جمع مغارة، وهي الكهف المظلم.

(٧) متلفعا: مرتديا، مترقبا: منتظرا.

إلى ثياب هذا الصبي، إنها ثياب بالية مهترئة، لم يبق منها ما يراه فيها الناظر،، ورغم هذه الحالة المزرية، فإنه لا يريد خلع هذه الملابس التي تقيه شدة البرد ولفح الحر، ويستمر الشاعر في تصوير حال هذا الصبي، فيقول: إنني أستطيع عد ضلوعه في الليل المدهم وذلك من شدة هزاله، وقد أصبح ميتاً أحياء عيسى بن مريم، كما أحيأ قبله ذلك الرجل المسمى بـ (عازر)، ويقول: لقد نحل جسم هذا الصبي وأخذ الهزال منه مأخذه حتى تكاد تثقبه أمطار السماء الغزيرة، ويعجب الشاعر من وضع هذا الطفل، متسائلاً: كيف يسمح للجوع أن يقتله وهو يعيش في القاهرة عاصمة العواصم؟ وكيف يترك فريسة للبؤس، ودار رعاية الأطفال تسهر على رعاية أمثاله؟ ويزداد المشهد أسى وألماً، فهذا الصبي يشعر بالخزي والحر، فلا يخرج إلا ليلاً كما يخرج خفافش المغاور كي لا يراه الآخرون، وإذا ما خرج تراه مرتدياً جلبابه منتظراً معروف عابر طريق أو سبيل.

فالشاعر يرثي حال هذا الصبي الضارب في أرض الله في جنح الظلام، وما يعانيه من بؤس وشقاء، وعري، وجوع، وهزال، وقد جسدت هذه المعاني في لغته الحزينة ومعانيه الإنسانية النبيلة من خلال الألفاظ التي استخدمها في هذه الأبيات من مثل قوله: هائم هيام حائر، أبلى الشقاء جديده، تقلمت منه الأظافر، انظر إلى أسماه، لا يريد فراقها خوف القوارس والهواجر، إني أعد ضلوعه، أبصرت هيكل عظمه، ذكرت سكان المقابر، فكأنها هو ميت أحياء (عيسى) بعد (عازر)، وتراه من فرط الهزال، تثقبه المواطر، أيفرسه الطوى، وتغوله البؤس، أسوان بادي الضر طائر، خزيان، يخرج في الظلام خروج خفافش المغاور، متلفعا جلبابه مترقبا معروف عابر....

ويقول في قصيدة استلهمها من وحي الحريق الذي أصاب بلدة (ميت غمر) المصرية  
(من الخفيف) :

سائلوا الليل عنهم والنهارا	كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيهم فقد الأم	وكيف اصطفى مع القوم نارا <sup>(١)</sup>
كيف طاح العجوز تحت جدار	يتداعى وأسقف تتجارى <sup>(٢)</sup>
رب إن القضاء أنحى عليهم	فاكشف الكرب واحجب الأقدارا <sup>(٣)</sup>
ومر النار أن تكف أذاها	ومر الغيث أن يسيل انهارا <sup>(٤)</sup>
أين طوفان صاحب الفلك يروى	هذه النار؟ فهي تشكو الأوارا <sup>(٥)</sup>
أشعلت فحمة الدياجي فباتت	تملاً الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجري يمينا	ورمتهم والبؤس يجري يسارا <sup>(٦)</sup>
فأغارت وأوجه القوم بيض	ثم غادرت وقد كستهن قارا <sup>(٧)</sup>
أخرجتهم من الديار عراة	حذر الموت يطلبون الفرارا

(١) اصطفى: اكتوى .

(٢) طاح: هلك، يتداعى: يتهدم، تتجارى: يسابق بعضها بعضا .

(٣) أنحى عليهم: أهلكهم .

(٤) الغيث: المطر .

(٥) صاحب الفلك: نوح عليه السلام ، الأوار: الظمأ .

(٦) غشيتهم: فاجأتهم وسيطرت عليهم .

(٧) أغارت : ذهبت بعيدا . القار: القطران .



يلبسون الظلام حتى إذا ما      أقبل الصبح يلبسون النهارا

حلة لا تقيهم البرد والحر      ولا عنهم ترد الغبارا

يصور الشاعر هذا الحدث المؤلم، مبينا فظاعة ما حل ببلدة (ميت غمر) من عظيم الهول، إذ أتت النار على كل شيء فيها، فالأطفال الرضع فقدوا أمهاتهم، واكتووا بنيران الحريق مع أهاليهم، وهلك العجائز وانطمرت تحت جدران متهدمة وأسقف تتسابق في الانهيار والسقوط، ويتوجه الشاعر بالدعاء إلى الله قائلاً إن قضاءك أهلكهم وأتوسل إليك بأن تكشف كربهم وتمسك عنهم أقدارك، وأتضرع إليك بأن تكف أذى النار عنهم، وأن ترسل الغيث مدرارا ليطفئ هذه النار، ويحضر الشاعر طوفان صاحب الفلك (نوح عليه السلام) متمنيا أن يكون حدث الآن ليروي هذه النار التي تشكو الظمأ، فهذه النار طبق دخانها وشرارها آفاق الأرض والسماء، وقد غشيتهم وهيمنت عليهم، وهم في نحس يمر عن يمينهم وبؤس يجري عن يسارهم، لقد كانت وجوه القوم في هذه القرية بيضا فغادرتها وقد أحالتها إلى سواد القطران، لقد داهمت بيوتهم فخرجوا منها عراة خشية الموت، طالبين الفرار منها، هائمين يلبسون الليل إذا أقبل ويلبسون النهار إذا أصبح، عراة يلبسون ثيابا لا تقوى على مقاومة البرد والحر ولا تستطيع رد الغبار المنعقدة عنهم .

إن لغة الحزن والتألم ظاهرة في هذه الأبيات جسدها الشاعر في الألفاظ التي استخدمها في التعبير عن هذه النار المستعرة التي تركت آثارها الواضحة على البلاد والعباد، وذلك من مثل قوله: كيف باتت تساؤهم والعذارى، كيف أمسى رضيعهم فقد الأم، اصطلى مع القوم نارا، كيف طاح العجوز، إن القضاء أنحى عليهم، فاكشف الكرب واحجب الأقدار، مر النار أن تكف أذاها، أين طوفان صاحب الفلك؟ يروي هذه النار، تشكو الأوارا، أشعلت

فحمة الدياجي، غشيتهم والنحس يجري يمينا والبؤس يجري يسارا، ثم غارت وقد كستهم قارا، أخرجتهم من الديار عراة، يطلبون الفرار، لا تقيهم البرد والحر، ولا ترد عنهم الغبارا .  
ويقول فيها:

وسمعنا في (ميت غمر) صياحا      ملأ البر ضجة والبحارا  
جل من قسم الحظوظ هذا      يتغنى وذاك يبكي الديارا  
رب ليل في الدهر قد ضم نحسا      وسعودا وعسرة ويسارا  
يستمر الشاعر في تصوير هذا المشهد المؤلم، فيذكر ما كان عليه أهل بلدة (ميت غمر) من صياح وضجة واضطراب، ويحل الله في حكمته، فقد قسم الناس إلى من يتغنى بحظه، وإلى من يندب حظه ويبكي دياره، وقد اقتضت حكمته أن يتفاوت الناس في ليلهم فمنهم من يكون ليله نحسا ومنهم من يكون ليله سعدا، ومنهم يعاني ليله عسرة وعوزا، ومنهم من يمضي ليله لنا هنيئا ، فسبحان من قسم الحظوظ بين البشر فمنهم من يعيش في فرح ومنهم من يندب حظه ، فهذا هو قانون الحياة.  
ولغة الحزن والأسى واضحة في هذه الأبيات من مثل قوله: صياحا، ضجة، يبكي الديارا، نحسا وعسرة ....

ويقول في قصيدة يحث فيها على مؤازرة دور (رعاية الأطفال) ومواساة الغرباء (من الرمل):

أيها الطفل لك البشرى فقد      قدر الله لنا أن ننشرا  
قدر الله حياة حرة      وأبى سبحانه أن تقبرا

لا تخف جوعا ولا عرياً ولا  
لك عند البر في ملجئه  
تبك عيناك إذا خطب عرا<sup>(١)</sup>  
حيث تأوي خاطر لن يكرها  
حيث تلقى فيه حديدا وترى  
بين أترابك عيشاً أنضرا<sup>(٢)</sup>  
يثني الشاعر في هذه الأبيات على دور رعاية الأطفال والأيتام، والساهرين عليها  
ويطمئن هؤلاء الأطفال والأيتام بأنهم سيجدون في هذه الدور كل رعاية وعناية وحنان  
وعطف.

يذكر في هذه الأبيات كما في غيرها ألفاظ الجوع والعري، والبكاء، والخطب، وهي  
مفردات تومئ إلى ما تعاني منه شريحة من المجتمع المصري ولا سيما الأطفال والأيتام منهم .  
ويقول فيها :

لا تسى ظنا بمثرينا فقد  
فغدا اليوم يواسي شعبه  
تاب عن آثامه واستغفرا<sup>(٣)</sup>  
وهو لا يرغب في أن يشكرا  
بركوب الحزم حتى نظفرا<sup>(٤)</sup>  
فغدونا قوة لا تزدرى<sup>(٥)</sup>  
وتواصينا بصبر بيننا

(١) الخطب: الرزء والمصاب. عرا: أصاب.

(٢) الحذب: العطف. الأتراب: الرفاق في السن جمع ترب .

(٣) مثرينا: غنيا.

(٤) الحزم: الأمر الصعب. نظفر: نتصر .

(٥) تزدرى: تحتقر .

يثني الشاعر في هذه الأبيات على جهود الأثرياء المصريين الذين تنادوا إلى بناء تلك المؤسسات الاجتماعية والسهر على حياة الأيتام وراحتهم وإيوائهم، ويشير إلى تعاضد المصريين واجتماعهم على مواصلة العمل وركوب الصعب حتى يصبحوا قوة لا يستهان بها. ونلاحظ استخدام الشاعر لألفاظ وعبارات الحزن، مثل: تاب عن آثامه واستغفرا، يواسي شعبه، تعاهدنا على دفع الأذى، وتواصينا بصبر، غدونا قوة لا تزدري. ويقول فيها:

يا رجال الجد هذا وقته	أن أن يعمل كل ما يرى <sup>(١)</sup>
فابدءوا بالملجأ الحر الذي	جئت للأيدي له مستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا	أن كل الصيد في جوف الفرا <sup>(٢)</sup>
أيها المثري ألا تكفل من	بات محروما يتيما معسرا <sup>(٣)</sup>

يخاطب الشاعر أهل الخير الأثرياء من المصريين بأن يعملوا على الاهتمام بملاجئ الأيتام وكفالة الأيتام الذين يبيتون محرومين معسرين.

لا ينفك الشاعر يكرر ذكر كلمات الحرمان واليتم والعسر، وذلك في قوله: بات محروما يتيما معسرا.

ويقول فيها:

---

(١) آن: حان.

(٢) كل الصيد في جوف الغرى: مثل عربي قديم، يدل على الغنيمة والخير.

(٣) معسرا: فقيرا معوزا.

كم طوى البؤس نفوسا لورعت      منبتا خصبا لكانت جوهرا  
كم قضى العدم على موهبة      فتوارت تحت أطباق الثرى<sup>(١)</sup>  
كل من أحياتيا ضائعا      حسبه من ربه أن يؤجرا  
إنما محمد عقبى أمره      من لأخراه بدنياه اشترى

يبين الشاعر أن البؤس عواقبه وخيمة فكم قضى على نفوس كثيرة لو وجدت من يرعاها لكانت، جوهرا ثميناً، كما يرى أن الفقر يقتل المواهب ويدفنها تحت التراب فتذهب سدى، وأن كل من أنقذ يتيها مشردا يكفيه أن ينال الأجر عند ربه، والعاقبة الحميدة تكون لمن باع دنياه واشترى آخرته فهي خير وأبقى.

يستخدم الشاعر في هذه الأبيات ألفاظا تدل على خطورة إهمال الأطفال والأيتام؛ ولأنهم سيكونون حينئذ ضحية للبؤس والعدم، وفي استعماله (كم الخيرية) مكررة مرتين ما يدل على كثرة هذه المآسي، كما أن استعماله للفظ (كل) ما يدل على العموم والشمول لكل من أراد أن يفعل خيرا.

ويقول في قصيدته التي أنشدها في الحفل الذي أقامته جمعية رعاية الأطفال سنة ١٩١٠ (من الكامل):

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال      لا، بل فتاة بالعراء حيالي  
أُمست بمدرجة الخطوب فمالها      راع هناك وما لها من والي<sup>(٢)</sup>

(١) العدم: الفقر. الثرى: التراب.

(٢) بمدرجة الخطوب: في محك المصائب.

- حسرى تكاد تعيد فحمة ليلها  
نارا بأناة ذكين طوال<sup>(١)</sup>
- ما خطبها عجباً؟ وما خطبي بها  
مالي أشاظرها الوجيعة مالي؟<sup>(٢)</sup>
- دانيتها ولصوتها في مسمعي  
وقع النبال عطفن إثر نبال<sup>(٣)</sup>
- وسألتها من أنت؟ وهي كأنها  
رسم على طلل من الأطلال
- فتململت جزعا وقالت : حامل  
لم تدر طعم الغمض منذ ليالي<sup>(٤)</sup>
- قدمات والدها وماتت أمها  
ومضى الحمام بعمها والخال<sup>(٥)</sup>
- وإلى هنا حبس الحياء لسانها  
وجرى البكاء بدمعها الهطال<sup>(٦)</sup>
- فعلمت ما تخفي الفتاة وإنما  
يحنو على أمثالها أمثالي<sup>(٧)</sup>

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن فتاة حامل بدت كشبح أو طيف خيال، وتقاذفتها المصائب وألقت بها في ظلمات ليل بهيم، ليس لها من يرعاها أو يتولاها، تتمزق حسرة وتنفث أنات نارية لا تنتهي ، ويسأل الشاعر، ما شأن هذه الفتاة، وما هي مصيبتها؟ وما علاقة خطبه بها؟ ولماذا يقاسمها وجيعتها؟ ويقترب الشاعر من هذه الفتاة التي علا صوتها بصياح

(١) أناة ذكين: زفرات شديدة طويلة.

(٢) أشاظرها: أقاسمها. الوجيعة: الألم والوجع .

(٣) دانيتها: اقتربت منها . عطفن: وقعن .

(٤) جزعا: خوفا وإشفاقا.

(٥) الحمام: الموت .

(٦) الهطال: الغزير.

(٧) يحنو: يعطف .



وقع على مسمعه كوقع النبال المتتالية في يوم النزال. ويعاود الشاعر سؤاله عن هويتها، وقد بدت هزيلة كأثر رسم دارس على طلل من الأطلال، فتتململ خوفا وإشفاقا على نفسها بأنها تحمل جنينا في أحشائها مما أقض مضجعها، فلم تعرف طعم النوم منذ ليال خلت، وتزداد مأساتها بموت أبيها وأمها، واخترام الموت لعمها وخالتها... وهنا يخرس الحياء لسانها، وتذرف عينها الدموع الغزيرة، فيعلم الشاعر ما تكتمه هذه الفتاة من سر في نفسها، فيحنو عليها الشاعر حنو الأب العطوف.

بهذه اللغة يصور الشاعر هذا المشهد الذي رآه أو توقع حدوث مثله إنها لغة تتفطر حزنا وتتفجر حسرة وألما.

وقد امتزجت ألفاظه بلظى الحزن والألم... تمثلت في قوله: شبها أرى ، طيف خيال، أمست بمدرجة الخطوب، ما لها من راع وما لها من وال، أشاطرها الوجيعه، لصوتها في مسمعي وقع النبال عطفن إثر نبال، حسرى تعيد فحمة ليلها نارا . بأناة ذكين طوال. جزعا، حامل، لم تدر طعم الغمض منذ ليال، مات والدها وماتت أمها، ومضى الحمام بعمها والخال، حبس الحياء لسانها، جرى البكاء بدمعها الهطال..... ويقول فيها:

ووقفت أنظرها كأني عابد	في هيكـل يرنو إلى تمثال <sup>(١)</sup>
ورأيت آيات الجمال تكفلت	بزواهن فوادح الأثقال <sup>(٢)</sup>

(١) يرنو: ينظر متأملا .

(٢) فوادح الأثقال: عظيمها وشديدها (كناية عن الخطوب) .

- فحملت هيكل عظمها وكأنني حملت حين حملت عود خلال<sup>(١)</sup>  
وظفقت أنتهب الخطا متيما بالليل دار رعاية الأطفال<sup>(٢)</sup>  
أمشي وأحمل بئسين: فطارق باب الحياة ومؤذن بزوال<sup>(٣)</sup>  
أبكيهما وكأنما أنا ثالث لهما من الإشفاق والإعوال<sup>(٤)</sup>

يستمر الشاعر في وصف المشهد الذي رآه أو تخيله، وكان له أثره الموجه في نفسه؛ لأنه هو نفسه ابن المآسي والويلات، فهو لا يمر بهذه الفتاة مرور الكريم، ولا يتجاوزها أو يحتقرها لفقر أو ضعة، بل تأخذه هول مصيبتها، فيقف أمامها خاشعا ساهما وقوف العابد السابح في التأمل في تمثال ليتبين ما فيه من مواطن الفن والجمال، فيعود الشاعر يحدثنا بأسلوب خبري عن جمال غابر وعز دائر عاشته الفتاة، ولكن المصائب المتعاقبة تكفلت بطمس ما وهبها الله - سبحانه - من جمال رائع، فتذوب محاسنها في جحيم الفقر والهزال والحرمان والضياع، ولم يبق من بهائها سوى ومضات خفيفة تفصح عن واقع ماضيها الزائل. وحيال هذا المشهد يرى الشاعر قد اضطربت مشاعره وتأججت عواطفه، واتقدت أحاسيسه، فيبادر إلى الوصول إليها فيأخذها بين يديه هيكلًا عظيمًا كعود الخلال نحافة ودقة، وينطلق إلى دار رعاية الأطفال حاملا بئسين، أحدهما يطرق باب الحياة والآخر يطرق باب الموت.. ويبكيهما الشاعر بكاء مرا وكأنما هو ثالثهما من الإشفاق والإعوال...

(١) عود الخلال: العود يتخلل به لتنظيف الأسنان.

(٢) متيما: قاصدا.

(٣) طارق باب الحياة: الطفل الذي هو في أحشاء الفتاة. والمؤذن بزوال: الفتاة نفسها.

(٤) الإشفاق: الخوف والفرع.

ثم يقول فيها:

وإذا بأيّد طاهرات عودت      صنع الجميل تطوعت في الحال  
جاءت تسابق في المبرة بعضها      بعضاً لوجه الله لا للمال<sup>(١)</sup>  
يصل الشاعر إلى دار رعاية الأطفال في سواد ليل بهيم، فإذا بها تستقبل الطارقين وتؤوي  
الملتئمين إليها، وتشعرهم بالأنس والحنان، يتسابق القائمون عليها إلى فعل الخير حبا للبر  
نفسه، لا يريدون جزاء ولا شكورا .

ويحدثنا الشاعر عن هؤلاء الذين يسهرون من أجل التخفيف من آلام المنكوبين وجراح  
الهائمين على وجوههم، فهم أهل لكل بائس، وملاذ لكل متشرد، وملجأ لكل جائع،  
ومشفى لكل عليل، وظل لكل عار حائر يرتدي خلق الثياب وأسمائها، تكاد ترى معالم  
جسمه من خلال خروقه وقد أصبح نهبا موزعا بين برد يقرسه وحر يلفحه.  
يقول:

لله درهم فكم من بائس      جم الوجيعه سيء الأحوال<sup>(٢)</sup>  
ترمي به الدنيا، فمن جوع إلى      عري إلى سقم إلى إقلال  
فكأن ناحل جسمه في ثوبه      خلف الخروق يطل من غربال

(١) المبرة: فعل الخير.

(٢) جم الوجيعه: كثير الوجع .

وبعد أن يثني الشاعر على القائمين على هذه الدار، نراه يبدو مطمئنا على الفتاة فقد أوصلها إلى بر الأمان وشاطئ السلام، فيغادرها منشراحا رضي البال مؤديا واجبا، وتاركا الفتاة الحامل في أيد أمينة.

لكن الشاعر لم يقتصر حديثه على تلك الفتاة، وإنما عاد لتعميم عمل هذه الدار ليشمل كل البائسين الذين عبست لهم الدنيا -فساءت أحوالهم- ورمتهم نهبا لأنياب الجوع وذل العرى وألم المرض ولدغ الفقر والحرمان.

ويستمر الشاعر في الحديث عما يعاينه البائسون ، فيقول:

يا بارد فاحمل، قد ظفرت بأعزل	يا حر، تلك فريسة المغتال
يا عين سحي، يا قلوب تفطري	يا نفس رقي، يا مروءة والي <sup>(١)</sup>
لولا هم لقضى عليه شقاؤه	وخلا المجال لخاطف الآجال <sup>(٢)</sup>

يصور الشاعر في هذه الأبيات حال البائسين فقد أصبحوا فريسة لبرد قارس وحر لافح. وحيال هذا المشهد المفجع المؤلم، لا تجد العيون مفرا من أن تذرف دموعا سخية ، ولا تستطيع القلوب أن تتوقف عن نبضها، بل تتفطر وتشقق ويزداد خفقانها إشفاقا وألما. ولا تقوى النفوس الإنسانية الكريمة أن تتجرد من مشاعرها وإنما تزداد عطفا ورقة، ويسارع أهل المروءة والشهامة إلى الأخذ بيد من قست عليهم الحياة وآلمتهم صروف الزمان.

(١) سحي: جودي، تفطري: انشقي.

(٢) الآجال: جمع أجل: الموت.

ونصل إلى قول الشاعر:

لله در الساهرين على الأولى      سهروا من الأوجاع والأوجال<sup>(١)</sup>  
القائمين بخير ما جاءت به      مدينة الأديان والأجبال  
أهل اليتيم وكهفه وحماته      وربيع أهل البؤس والإحمال<sup>(٢)</sup>

يثني الشاعر في هذه الأبيات على القائمين على هذه الدار، فهم يسهرون للتخفيف من أوجاع وآلام المريض والعاجز والبائس واليتيم.

وبعد... حسبنا ما اجتزأنا من أبيات هذه القصيدة وقد حفلت مفرداتها بالحزن والأسى والرجاء والأمل والمعاني الإنسانية الشريفة النبيلة والتي نجدها منبثة في ألفاظها وتراكيبها، والتي لا تغيب عن ذهن القارئ المتأمل أو المستمع المتنبه.

وهكذا يبلغ الشاعر غايته في تحريك النفوس بمنظر البؤس، وأثار العواطف بصورة الشقاء والعناء، ويستخلص الإعجاب من السامعين بهؤلاء الكرام البررة الذين يفعلون الخير لوجه الله، ورغبة في الخير.

لقد قصد الشاعر من هذا كله حمل السامعين على مساعدة هؤلاء الناس بالمال وإثارة الحمية فيهم للتبرع لهذا المشروع الذي يحتاج إلى مال طائل وإنفاق كثير، جرى كل ذلك على لسان الشاعر في أسلوب عذب وكلام سهل سلس، لا وعورة فيه ولا تكلف، وجاء تصويره لهذه المأساة بارعا فرسم بريشة ألفاظه صورة حية واضحة المعالم لهذه الفتاة الهائمة الحامل،

(١) الأوجال: المخاوف .

(٢) الإحمال: الجذب .

فيها الكثير من الحركة والنشاط، وكأنها هي تمثل أمام القارئ أو السامع فيرى كل منها وقائعها رؤية العين، ويلمحان صوراً أخرى لبيئة الشاعر التي كثر فيها البؤس، وانتشر في أنحائها الفقر، وغاية ما كان يرجوه المخلص فيه أن يخفف من ويلات الناس البائسين باستئصال أسبابها، واجتثاث جذورها.

لقد مضت على مناسبة هذه القصيدة مدة طويلة، ومضى على وفاة الشاعر عشرات السنين، ولكنها قد أثرت في نفوسنا، وستؤثر في نفوس الأجيال القادمة؛ لأنها تخاطب العواطف البشرية التي هي واحدة في جوهرها، ولا تزول بتعاقب الأجيال وتبدل الأحوال، والأهم من كل ذلك أنها جاءت من لسان شاعر صادق العاطفة، مرهف الوجدان، ذاق مرارة البؤس والحرمان.

إن هذه القصيدة تحكي قصة موجعة، وتصور مشهداً محزناً مبكياً، قد يكون حدث فعلاً، وقد يكون من نسج خيال الشاعر، وإن كان كذلك فلا ضير ولا غبار عليه، لأن مثله يقع كثيراً بين شرائح المجتمع ولا سيما الفقيرة منها.

وقد يكون من نافلة القول أن أذكر هنا أنني قرأت في كتاب بعنوان (مقدمة في دراسة الأدب الحديث) للدكتور عبد الرحمن ياغي، قرأت تعليقا ونقداً له على هذه القصيدة وما جرى فيها من أحداث. يقول الدكتور ياغي: (( لم يستطع الشاعر أن ينفعل بالحدث... لا شيء سوى أن الشاعر لم يكن في بؤرة الأحداث وإنما هو مجلوب إليها مدفوع نحوها دفعا لا يظهر فيه إرادة، ولا تظهر فيه رغبة... إنه بالفعل غائب ليس له حضور في هذا المجال.. ولكنه اضطر نفسه وقسرها ودفع بها... وزيف الكثير حتى يوهم أن له حضورا....!!)).



وتعقيباً على قول الدكتور، أقول أبعد كل هذا الانفعال الملتهب، وبعد كل هذا التصوير والتجسيد للأحداث، لا يكون للشاعر حضور، لا أدري ما الحضور الذي يريده الدكتور الفاضل من حافظ إبراهيم...؟!

ويقول الدكتور في موضع من دراسته لهذه القصيدة: ((... وما هي صورة الشاعر حين طرق الباب وهو يحمل هذه الفتاة الحامل؟ ... ما الذي دعاه إلى أن يصور نفسه في هذا الموقف بأنه غير هباب ولا وجل.. أو أنه يطرق الباب كما يطرق مسافر آب من سفره، أو أنه يطرق كما يطرق رب الدار الغير المبالي؟ صور لا موضع لها في شيء...)).

إنني استغرب كل الاستغراب أن يذهب الدكتور ياغي هذا المذهب، فيظلم هذا الشاعر الإنسان الذي هو جزء ممن اكنثوا بنار الفقر والحرمان والعوز، وهو الأقدر على التعبير عن هموم من هم في مثل ما تعانيه هذه الفتاة الضائعة في دهاليز الأسى والحاجة. وقد غاب عن ذهن الدكتور ياغي أن الشاعر لم يطرق باب دار هذه الفتاة وإنما طرق باب دار رعاية الأطفال. ولم يقحم نفسه إقحاماً وإنما أخذته الغيرة على هذه الفتاة الحامل.

ويقول في موضع آخر من دراسته لهذه القصيدة: ((وأخيراً فإن الشاعر حين اعتلى منبر الوعظ الأجوف... وتنفخ. لم يستطع أن يكون فناناً ولم يستطع أن يكون قصاصاً... ولم يستطع أن يرتفع بالسامع إلى حرارة الموقف... ولم يتجاوز الدائرة الأولى من محاولة الإيهام بالواقع دون أن ينجح في هذا الإيهام... فلم ينضج له فكر فلسفي اجتماعي وراء الظاهرة، ولم يكن له موقف يتبناه إزاء هذه المشكلة.. ولم يستطع أن يحول هذا الحدث الفردي فنياً إلى قضية يشد إليها الكثيرين...)).

وتعقيباً على قوله هذا .. وبعد استعماله لحرف الجزم (لم) مكرراً ليكون حرف نفي وجزم وقلب، أقول لقد قلبت يا دكتورنا الفاضل الحقائق رأساً على عقب، أليس الشاعر هو ابن بيئته؟ أليس مطلوباً منه أن يصور واقع مجتمعه فيقف مخاطباً إياه فيكون حينئذ خطيباً واعظاً؟ ألم يستطع الشاعر أن يهز نفوس السامعين فتستعر حرارتها؟ ألم يمض زمن طويل على مناسبتها، ولا تزال نقرأها وننفع بقصتها المؤلمة وستقرأها وتتأثر بها الأجيال من بعدنا؟ ألم يكن حافظ إبراهيم ذا فكر فلسفي اجتماعي وهو يصور هذه المشكلة؟؟ ألم يكن له موقف تبناه حين أخذ بيد هذه الفتاة وشارك القائمين على دور رعاية الأطفال؟! ولماذا يتهمة الدكتور الفاضل بزيف العاطفة وهو المعروف بصدقها في جل قصائده؟ فيا ترى هل يريد الدكتور الليافي ملاكاً سماوياً، أو يريد أثراً هوائياً؟؟!!

وأقول أليس للشاعر المبدع خياله؟ أليس للشاعر المبدع عالمه؟ أليس من حقه أن يستلهم الماضي ويصور الحاضر ويستشرف المستقبل؟! ألم نقرأ لقدمه بن جعفر قوله: أعذب الشعر أكذبه؟؟ وليس الكذب هنا ما يقابل الصدق وإنما هو خيال الشاعر الواسع المجنح المترجم لما يعتلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس. لماذا هذا الإسقاط؟ ولماذا هذا التقليل من شأن شعراء العربية الكبار؟ ولماذا نجلدهم بسيطانا المهترئة؟ ألم يكن حافظ إبراهيم شاعراً كبيراً؟ ألم يلقب بشاعر النيل وشاعر الشعب؟؟ ألم تطبق شهرته الديار المصرية وتجاوزتها إلى البلاد العربية ومن ثم إلى البلاد الغربية؟؟ إنه من الشعراء العظام الذين خلدهم شعرهم فخلدوا، ولا يزالون يعيشون بين ظهرانينا ....

ويقول في قصيدة بمناسبة الحفل الذي أقامته جمعية (رعاية الطفل) سنة ١٩٢٨ (من

الخفيف):

أيها الطفل لا تخف عنت الدهر ولا تخش عاديّات الليالي<sup>(١)</sup>  
قيض الله للضعيف نفوسا تعشق البر من ذوات الحجال<sup>(٢)</sup>  
أي ذوات الحجال عشتن للبر ودمت قـدوة للرجال  
لم يكونوا ليـدركوا المجد لولا كن أو يسلكوا سبيل المعالي  
بـسمة تجعل الجبان شجاعا وتعيد البخيل أكرم نال<sup>(٣)</sup>  
وعظام الرجال من كل جنس في رضاكن أرخصوا كل غالي  
قمن علمتنا المروءة والعطف على البائسين والسؤال  
قمن علمتنا الحنان على الطفل شريدا فريسة المغتال  
قد أجبنا نداءكن وجئنا نسأل القادرين بعض السؤال  
لو ملكننا غير المقال لجدنا إن جهد المقل حسن المقال  
يطمئن الشاعر في هذه الأبيات الطفل المشرّد واليتيم إلى أن ثمة من يخفف من عنائه  
وبؤسه وضعفه، إنها نفوس كبار، هي نفوس المشرفات والممرضات والمعلمات اللواتي يعتنين  
بتربية الأطفال اليتامى وتثقيفهم، وذلك في دار رعاية الأطفال، فعين الله - سبحانه - لا تنام  
فقد سخر لهم من يخفف من عنائهم ويحنو عليهم، وفي الوقت نفسه يثني على النساء ذوات  
الحجال ودورهن في إعداد الرجال، وهن موضع احترام وتقدير لما يحملنه في قلوبهن من  
حنان وعطف على الأطفال المشردين الهائمين.

(١) عنت الدهر: شدة وطأته، عاديّات الليالي: أحداثها الجسام.

(٢) قبيض: هيا ويسر، ذوات الحجال: كناية عن النساء.

(٣) النال: شديد النوال والعطاء.

وإن معاني الإعجاب بهؤلاء النساء تبدو في ألفاظ وتراكيب هذه الأبيات، وقد صاغها الشاعر بريشته البارة حيث رسمت أروع اللوحات الفنية.

ويقول فيها:

أنقذوا الطفل إن في شقوة الطفل شقاء لنا على كل حال  
إن يعيش بئسا ولم يطوهِ البؤس يعيش نكبة على الأجيال  
رب بؤس يخبث النفس حتى يطرح المرء في مهاوي الضلال  
أنقذوه فربما كان فيه مصلح أو مغامر لا يبالي  
في هذه الأبيات يحث الشاعر على إنقاذ الطفل من شقوته، وعلى تربيته فلربما كان مصلحا  
أو إنسانا ذا شأن كبير، ويرى إن لم يبادر إلى حمايته ورعايته فسيكون عالة على مجتمعه مع  
تعاقب الأجيال.

بهذه اللغة المتألمة، والألفاظ المتوجعة، جسد ما قصد إليه من معانٍ إنسانية نبيلة، من مثل  
قوله: أنقذوا الطفل، شقوة الطفل، شقوة لنا على كل حال، إن يعيش بئسا يعيش نكبة على  
الأجيال، رب بؤس يخبث النفس، في مهاوي الضلال.

ويقول فيها:

شاع بؤس الأطفال والبؤس داء لو أتيح الطبيب - غير عضال<sup>(١)</sup>  
أيادوا كل مجمع قام للبر بجاه يظله أو بـ

(١) عضال: فتاك يصعب الشفاء منه.

كم يتيم كادت به البأساء لولا (رعاية الأطفال) <sup>(١)</sup>

ورجال الإسعاف أنبل - لولا شهوة الحرب - من رجال القتال

يسهرون الدجى لتخفيف ويل أو بلاء مصوب أو نكال <sup>(٢)</sup>

يتحدث الشاعر عن شيوع ظاهرة بؤس الأطفال وانتشارها ، حيث أصبحت تشكل داء خطيرا لو أتيح لها من يعالجها ويتعهد بها بالملاحظة والعناية فلن تكون داء عضالا يصعب شفاؤه، ويقول كثير من اليتامى كادت البأساء أن تؤدي بهم إلى الهلاك، لولا القائمون على دور رعاية الأطفال الذين يسهرون ليلهم للتخفيف من بلواهم.

ويقول:

فاصنعوا البر منعمين وجودوا أيها القادرون قبل السؤال

لانتشار العلم أو لانطواء البؤس والشر أو لتففيه حال

يطلب الشاعر في هذين البيتين من الموسرين القادرين على بذل المال وصنع البر من أجل هؤلاء الأطفال قبل أن يمدوا إليهم أيديهم بالسؤال، ففي بذلهم ودعمهم ينتشر العلم ويطوى البؤس والشر وإصلاح حال المعوزين والمحتاجين.

لا ينفك الشاعر يكرر الألفاظ التي تذكر بالمآسي. كما هو ملاحظ في قوله: لانطواء

البؤس والشر....

---

(١) كادت به: قتلتها.

(٢) النكال: العذاب.

من خلال عرضنا لهذه النماذج الشعرية الداعية إلى دعم دور رعاية الأطفال والثناء على دورها الرائد في احتضان الأطفال ورعايتهم، نلاحظ أن الشاعر يميل إلى المبالغة والتحويل من شأن ما يعرضه أو يصوره من أحداث اجتماعية ومشاهد إنسانية، أقول إنها مبالغة مقبولة، بل محبة - في رأيي - لأن الشاعر يعد نفسه مسؤولاً أميناً عما يعاينه أفراد شعبه من آفات وحسرات ومن هنا كان عليه أن يسبر غورها ويتعمق جوهرها، فتبدو حينئذ مثل هذه المبالغة التي قد يعتبرها بعضهم انتقاصاً من فنه.

#### ٤- الجامعات:

لم ينل حافظ إبراهيم حظاً وافراً من التعليم المنتظم، ولم يحصل على شهادة علمية، نتيجة ما اكتنفت حياته من ظروف صعبة منذ طفولته، ورغم هذا، فقد كان غيوراً ومتحمساً على تعليم أبناء وطنه وتثقيفهم، فهو يحب العلم والمعرفة، وينادي بتعميمها ونشرها في أرجاء البلاد، ويمقت الجهل والضلال ويحث على محاربتها والقضاء عليهما، وينادي بتأسيس المدارس والمعاهد وإقامة الجامعات ودعمها بالمال، فهاهو يقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم دعماً لمشروع تأسيس الجامعة المصرية سنة ١٩٠٧ (من البسيط):

إن كنتم تبذلون المال عن رهب	فنحن ندعوكم للبذل عن رغب <sup>(١)</sup>
ذر الكتاتيب منشئها بلا عدد	ذر الرماد بعين الحاذق الأرب <sup>(٢)</sup>

(١) الرغبة في الشيء، بخلاف الرهب.

(٢) الأرب: الحاذق الماهر، الكتاتيب: جمع كتاب: هو موضع التعليم.



فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا أن المصاييح لا تغني عن الشهب<sup>(١)</sup>

يدعو الشاعر في هذه الأبيات إلى بذل المال من أجل إنشاء الجامعة، وإلى الكف عن إنشاء الكتابات التي انتشرت في مصر وبلغ عددها الآلاف وهي لا فائدة منها ولا تسمن ولا تغني من جوع، فالمصاييح التي يضيئها الناس لا تغنيهم عن ضوء النجوم.

استخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة دالة على استشارة العواطف من أجل بذل المال لدعم الجامعة المصرية. يظهر ذلك من خلال الطباق ما بين عن رهب، وعن رغب . وما بين إنارة المصاييح وإضاءة النجوم.

ويقول فيها :

فما لكم أيها الأقوام جامعة	إلا بجامعة موصولة السبب
قد قام (سعد) بها حينا وأسلمها	إلى (أمين) فلم يحجم ولم يهب <sup>(٢)</sup>
فعاونوه يعاونكم على عمل	فيه الفخار وما ترجون من أرب <sup>(٣)</sup>
لا تلجئوا في العلا إلا إلى همم	وثابة لا تبالي هممة النوب <sup>(٤)</sup>
فإن تأميلكم في غيركم وهن	في النفس يزجي عنان السعي والدأب <sup>(٥)</sup>

(١) الشهب: النجوم.

(٢) يحجم: يمتنع .

(٣) الأرب: الغاية.

(٤) النوب: المصائب.

(٥) الوهن: الضعف، الدأب: السعي الجاد، سعد: هو سعد زغلول الزعيم المصري المشهور، وأمين هو قاسم أمين الأديب المصري المشهور.

يؤكد في هذه الأبيات على ضرورة إنشاء الجامعة؛ لأنها هي التي تجمع المصريين وتوحدهم، ويشيد بفضل كل من سعد زغلول وقاسم أمين اللذين عملا على دعم الجامعة المصرية، طالبا من المصريين مؤزارتهما في عملهما الذي فيه فخارهم وتحقيق ما يرجونه من غايات، داعيا إياهم الانتكال على أنفسهم لا على غيرهم .

لقد استخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة التوجيه والتقرير، والأمر، والنهي، والتحذير، ظهر ذلك من خلال الألفاظ التي تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

إن قام منا مناد قال قائلهم	لا تصخبوا فهلاك الشعب في الصخب <sup>(١)</sup>
أو نابنا حادث نرجو إزالته	قال استكينوا وخلوا سورة الغضب <sup>(٢)</sup>
فما سمونا إلى نجد نحاوله	إلا هبطنا إلى غور من العطب <sup>(٣)</sup>
يا مصر، هل بعد هذا اليأس متسع	يجري الرجاء به في كل مضطرب <sup>(٤)</sup>
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا	كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكي على بلد سال النضار به	للوافدين وأهلوه على سغب <sup>(٥)</sup>
متى نراه وقد باتت خزائنه	كنزا من العلم لا كنزا من الذهب

(١) الصخب: الضجة والاضطراب.

(٢) سورة الغضب: شدته .

(٣) النجد: المرتفع، الغور: المنخفض.

(٤) المضطرب: المذهب.

(٥) السغب: الجوع، العطب: الهلاك، نابنا: أصابنا .

هذا هو العمل المبرور فاكتبوا      بالمال اكتتبنا فيه بالأدب

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى سياسة المحتل المستعمر، الذي يعمل دائما على تجهيل الشعوب، والتحذير من القيام بالاحتجاج والاضطراب، ويقول ما نكاد نصل إلى وضع يرفعنا إلى العلا ويقودنا إلى الرفعة والازدهار، إلا سرعان ما عدنا إلى الهبوط والانزلاق في غور الهلاك والتخلف، وينادي المصريين قائلا: أبقى بعد هذا اليأس القابع في نفوسنا من رجاء ينهضنا من كبوتنا؟؟

ويقول لقد وصلنا إلى واقع مرير لا تحن فيه أحياء ولا نحن فيه أموات، وأصبحنا نبكي على بلدنا الذي تذهب خيراته للوافدين الغرباء، ويتساءل: متى يا ترى تحقق آمالنا وقد تحولت كنوزه إلى كنوز من العلم لا كنوز من الذهب؟ فهذا هو العمل المبرور المبارك. فسارعوا أيها القادرون ويا أرباب المال إلى دعم إنشاء الجامعة، فنحن لا نملك من المال إلا أدبنا وشعرنا الذي يدعم جامعتنا.

يستخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة التقرير والنداء والاستفهام فينمى من خلالها على قومه روح اليأس والقنوط والتكاسل، ويدعو إلى النهوض من جديد، وإلى متابعة روح العمل والجهاد، كما نراه يستخدم أسلوب المطابقة والمقابلة بين هذه المعاني.

وحافظ إبراهيم يهيم به نشر العلم والمعرفة بين أفراد شعبه، فالعلم نور، والجهل ظلمات، فهذا هو يقول في قصيدة أخرى أنشدها في الحفل الذي أقيم مؤازرة (لمشروع إنشاء الجامعة المصرية) (من البسيط) :

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا      إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا

ولا حياة لكم إلا بجامعة      تكون أما لطلاب العلم وأبا  
تبني الرجال وتبني كل شاهقة      من المعاني وتبني العز والغلبا<sup>(١)</sup>  
يحيي الشاعر في هذه الأبيات المؤثرين الذين تنادوا واجتمعوا تأييدا لإنشاء الجامعة  
المصرية التي ستكون أماحنونا وأبا عطوفا لطلاب العلم، وستكون رمزا لبناء الرجال  
وإشادة البنين وإعلاء العمران.  
ويقول في نهاية هذه القصيدة الطويلة:

إن ترضوا الله في أوطانكم فلكم      أجر المجاهد طوبى للذي اكتبا  
في هذا البيت يحمل الشاعر دعوته المصريين والمسؤولين. فيقول: إنها دعوة إلى البذل  
والسخاء والعطاء من أجل إقامة الجامعة المصرية، إن في البذل من أجل هذا المشروع الوطني  
الكبير فائدة عظيمة.. إنه عمل طيب، وجهاد في سبيل الله والعلم.  
تنوع لغة الشاعر في هذه الأبيات ما بين الإنشاء والخبر، ما بين الطلب والتقرير، يتبين  
هذا من الألفاظ والعبارات التي استخدمها الشاعر في التعبير عما قصد إليه من أهداف.  
ويقول في قصيدة بعنوان: (اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها) (من الطويل):

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي      وناديت قومي فاحتسبت حياتي<sup>(٢)</sup>  
رموني بعقم في الشباب وليتني      عقت فلم أجزع لقول عداتي<sup>(٣)</sup>

(١) الغلب: الظفر والانتصار.

(٢) حصاتي: فكري.

(٣) العقم: عدم القدرة على الإنجاب.

ولدت ولما لم أجد لعرائسي	رجالا وأكفاء وأدت بناتي <sup>(١)</sup>
وسعت كتاب الله لفظا وغاية	وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	فهل سألوا الغواص عن صدقاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني	ومنكم وإن عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإني	أخاف عليكم أن تحين وفاي

بمثل هذه اللغة التي تقطر حزنا وأسى يصور الشاعر ما آلت إليه لغة الضاد من وضع لا يسر، فهي حزينة متألمة، تعود لنفسها فتتهمها بالضعف وتستصرخ قومها فتحتسب حياتها، وأن موتها دنا واقترب، وتشعر أنها غريبة بين أهلها فلم تجد من الرجال الأكفاء من أبنائها من يحسن استعمال ألفاظها، فتسارع إلى وأدها، لقد اتهمها أبنائها بالجمود والتقصير، وتتمنى لو أنها كانت عقيمة لا تلد، فلا تجزع لقول أعدائها فيها، إنها لغة القرآن الكريم وسعت ألفاظه ومعانيه ومرامييه، ومع هذا فقد عقها أبنائها اليوم وهجروها، واتهموها بالعجز عن أداء المعنى وفهم مصطلحات العلوم.

جاءت لغة الشاعر في هذه الأبيات خبرية تقريرية واتسمت بالأسى والحزن على ما آلت إليه من حال لا تحسد عليه، ولهذا نراه يهيب ببني العروبة، طالبا منهم أن يستخدموا اللغة الفصحى ويجهدوا في تطويرها ويحرصوا على استخدامها في كل ما ينشرون من كلام وما ينظمون من شعر، فهي لغة حية مرنة قادرة على مسايرة كل ما هو مستجد، وهي ليست

(١) وأدت: دفنت، عرائسي: كناية عن الألفاظ.

قاصرة وإنما التقصير آت من أبنائها الناطقين بها، ويعجب الشاعر من أن توجه إليها مثل هذه التهم، وهي البحر الذي يكمن في أحشائه الدر واللؤلؤ، مكنا بذلك عن ألفاظها وأساليبها، وما على أبنائها إلا الغوص في أعماقها لصيد دررها وصدفاتها .

ويقول فيها:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب      ينادي بوأدي في ربيع حياتي<sup>(١)</sup>  
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما      يعز عليها أن تلين قناتي<sup>(٢)</sup>  
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق      حياء بتلك الأعظم النخرات<sup>(٣)</sup>

تعتب اللغة العربية على أبنائها مستنكرة عليهم موقفهم السلبي تجاهها حين تراهم يطربون ويسرون لصوت ناعب قادم من بلاد الغرب رافعا عقيرته مناديا بقتلها وعدم استعمالها وهي لم تشخ، وإنما هي في مقتبل عمرها وميعة صباها، وهي تترحم على تلك الأعظم والرفات المدفونة في بطن الجزيرة العربية التي كان أصحابها يصعب عليهم أن ينال منها مغرض أو ينتقص من قدرها منكر . وقد فاخرت العرب بعلمها، وتذكر بني قومها بسالف مجد العرب لما كانت العربية هي لغة العلم والحضارة والفلسفة... وتندب على الشرق إطراره حياء وخجلا حيال عظام تلك الأجساد التي رعت اللغة العربية وصانتها من عاديات الزمان وتبدو في هذه الأبيات لغة الاستنكار والترحم والدعاء والإخبار، جاء ذلك من خلال الألفاظ والتراكيب التي استخدمها الشاعر في التعبير عن هذه المعاني. وفي قوله:

(١) وأدي: دفني وقتلي، ربيع حياتي: مقتبل عمري .

(٢) تلين قناتي: تضعف مقدرتي.

(٣) النخرات: الباليات .



(ينادي بوأدي في ربيع حياتي) إشارة ذكية إلى ما كان يفعله العرب عندما تأتيتهم البنات فيسارعون إلى دفنهن أحياء خشية الفقر والعار، وكأنه ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ <sup>(٨)</sup> بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وفي تضمين الشاعر لهذا التصوير غمز لأولئك المغرضين المنادين بالتخلي عن اللغة العربية الفصيحة، وتبجحوا بالنطق بلغة الغرب، واستهتروا بلغة الضاد .

ويقول فيها:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا	من القبر يدنيني بغير أناة <sup>(١)</sup>
وأسمع للكتاب في مصر ضجة	فأعلم أن الصائحين نعاتي <sup>(٢)</sup>
أيجرني قومي -عفا الله عنهم-	إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوتة الإفرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعي في سيل فرات <sup>(٣)</sup>	
إلى معشر الكتاب والجمع حافل	بسطت رجائي بعد بسط شكاتي <sup>(٤)</sup>
فإما حياة تبعث الميت في البلى	وتبت في تلك الرموس رفاقي <sup>(٥)</sup>
وإما ممات لا قيامة بعده	مات لعمري لم يقس بمماتي

(١) المزلق: موضع الانزلاق والعثرة، بغير أناة: بدون رحمة وتمهل.

(٢) النعاة: حاملو خبر الموت.

(٣) لوتة الإفرنج: كناية عن ألفاظها المستعملة في العربية .

(٤) الشكاة: هي الشكوى.

(٥) الرموس: القبور، الرفاة: العظام البالية .

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى تلك الدعوات الهدامة التي يجبرها أصحابها في الصحف منادين بهجر اللغة العربية الفصيحة واستبدالها باللغة العامية أو الأجنبية، ويقول إنهم بدعوتهم هذه يقسون على لغة الضاد، ويحدثون ضجة وبلبله ظاهرها الغيرة وباطنها الإجهاز عليها، وكأنهم بفعلهم هذا يعلنون خبر موتها، كما يومئ في الوقت نفسه إلى تسرب الألفاظ الأجنبية إليها وجريانها على ألسنتهم، واستعمالها في كتاباتهم. وإزاء هذا الوضع المزري المبكي يهيب الشاعر بالأدباء والفصحاء والعلماء أن ينهضوا من سباتهم لتعزيز اللغة الفصحى والعمل على استعادة دورها الريادي الحضاري.

بهذا الأسلوب الخبري والتعجبي يتحسر الشاعر وبلسان اللغة العربية للحال التي وصلت إليه هذه اللغة حيث راح العرب -كتابهم وقصاصوهم- يخلطون بينها وبين لغة الغرب. جاء ذلك من خلال الألفاظ والعبارات التي تضمنتها هذه الأبيات.

ولعل ما اجتزأناه من أبيات هذه القصيدة ينهض دليلاً وبرهاناً على الحال التي آلت إليه اللغة العربية وهي تنعى حظها بين أهلها. وقد يسأل سائل: لماذا كانت هذه القصيدة مصنفة في قائمة القصائد التي يدعو فيها الشاعر إلى تأسيس الجامعات ودعمها؟ نقول: إن هذه الجامعات ستقوم بنشر العلم والمعرفة بين أبناء الشعب، ولا شك أن لغتها هي اللغة العربية التي سيستخدمها القائمون عليها والدارسون فيها. فهي أساس البناء وعمود البيت، بها ينمو العلم وتشيع المعرفة، وبدونها يهدم البنيان، ويسكت اللسان.

إن المتأمل في الأبيات المستلة من هذه القصيدة يدرك أنها تفيض بالألفاظ والتركيب الحزينة الأليمة، من مثل قول الشاعر: احتسبت حياتي، بعقم، وليتني عقلت، وأدت بناتي، فياويلكم، أبلى وتبلى محاسني، عز الدواء، أساتي، تحين وفاقي، أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً من

القبر، يدينني بغير أناة، نعاتي، أمهجري، لوثة الإفرنج، لعاب الأفاعي، شكاتي، تبعث الميت في البلى، الرموس، رفاقي، ممات، ممات لم يقس بممات..

هذا بالإضافة إلى الاستعارات والتشبيهات والكنيات التي تضمنتها الأبيات كقوله: لم أجد لعرائسي، أنا البحر في أحشائه الدر كامن، أيطربكم من جانب الغرب ناعب، ربيع حياتي، أرى كل يوم بالجرائد مزلقا، إلى لغة لم تتصل برواة، لوثة الإفرنج، كما سرى لعاب الأفاعي...

## ٥ - الإنسانيات:

لم يكن حافظ إبراهيم مسجلا أو مصورا للأحداث التي تقع في وطنه فحسب، وإنما تخطى دائرة الوطن الضيقة وتجاوزها إلى خارجها، ليصل بشعره إلى المكان والإنسان في عالم الكون، إيمانا منه أن العالم كله متكافل ومتضامن فيما يعيشه من أفراح ومسرات، وما يحل فيه من مصائب وكوارث.

فها هو يقول في قصيدة قالها في ثورة بركان (جزيرة المارتنيك) إحدى الجزر الهندية الغربية سنة ١٩٠٢ (من الخفيف):

ألبسوك الدماء فوق الدماء وأروك العدااء بعد العدااء  
فلست النجيع من عهد قابيل وشاهدت مصرع الأبرياء<sup>(١)</sup>

---

(١) النجيع: الدم الشديد .

يخاطب الشاعر (جزيرة المارتنيك)، واصفا ما حل بها من أسى ودمار، وآثار دماء للضحايا الذين قضوا في الزلزال الذي فجر البراكين، وهم أبرياء لم يقترفوا إثما، ولم يرتكبوا جرما، وذكرا حادثة قتل هابيل على يدي أخيه قابيل، وهما ابنا آدم أبي البشر.

يتضح في هذين البيتين قوة التعبير عن هذا الحدث الإنساني، فقد استخدم الشاعر الصور البيانية كالاستعارة في قوله: ألبسوك الدماء فوق الدماء، وأروك العدا بعد العدا، ولبست النجيع من عهد قابيل، وقد جرى ذلك على لسان الشاعر في أسلوب إخباري وتعبير تقرير. وتذكر بالأحداث التاريخية الغابرة .

ويقول فيها:

فلك العذر إن قسوت وإن خنت وإن كنت مصدرا للشقاء  
غلط الناس، ما طغى جبل النار بإرسال نفثه في الهواء<sup>(١)</sup>  
أخرجوا صدر أمه فأراهم بعض ما أضمرت من البر جاء<sup>(٢)</sup>  
يعذر الشاعر هذه الجزيرة إن كانت قاسية على أهلها أو خانتهم أو كانت مصدرا لحزنهم وشقائهم - ويرى أن ناسها هم المخطئون، فالبركان حينما أرسل حممه إنما كان بجريرة ما أضمره لبعضهم بعضا من حقد وضغينة .

(١) نفثه: ما يلفظه من حم .

(٢) البرجاء: الحقد والضغينة .

ويقول فيها:

أسخطوها فصابرتهم زمانا      ثم أنحت عليهم بالجزاء  
أيها الناس إن يكن ذاك سخط الأرض، ماذا يكون سخط السماء؟  
فاتقوا الأرض والسماء سواء      واتقوا النار في الثرى والفضاء  
يلوم الشاعر سكان الجزيرة الذين أغضبوا جزيرتهم بسخطهم على بعضهم البعض،  
وعداوة بعضهم لبعض، فكان ذلك سببا لحدوث الزلزال وثوران البركان، الذي كان نفثة  
للأرض لتعبر عن سخطها وغضبها على البشر.

بهذا الأسلوب الإخباري والندائي والأمري يعبر الشاعر عما أصاب أهل هذه الجزيرة  
من دمار وموت، مذكرا الناجين منهم أن يتعظوا ويعتبروا فإن كان هذا الذي حصل هو  
سخط الأرض، فكيف سيكون سخط السماء؟ ويطلب منهم أن يحذروا الأرض والسماء  
سواء بسواء، وأن يتقوا النار إن في الثرى وإن في الفضاء.

لقد توزع تعبير الشاعر عن هذه المعاني ما بين الخبر والإنشاء، فجاء الخبر في قوله:  
أسخطوها، فصابرتهم، ثم أنحت عليهم، وجاء الإنشاء في النداء والأمر الملتبس في قوله: أيها  
الناس، فاتقوا الأرض والسماء، واتقوا النار في الثرى والفضاء، كما جاء الإنشاء في الاستفهام  
في قوله: ماذا يكون سخط السماء؟ هذا فضلا عن ظهور فن الطباق في الأبيات، فقد طابق  
الشاعر بين الأرض والسماء، والثرى والفضاء. ولا شك أن المراوحة بين الخبر والإنشاء، يشد  
القارئ والسامع إلى متابعة الكلام، ويبعث على الحركة والحيوية والنشاط.

ويقول في قصيدة أنشدتها بمناسبة احتفال المجمع العلمي البريطاني بذكرى مرور ثلاثمائة سنة على وفاة (شكسبير) الشاعر الإنجليزي المشهور (من الطويل):

يحبك من أرض الكنانة شاعر	شغوف بقول العبقرين مغرم <sup>(١)</sup>
ويطربه في يوم ذكراك أن مشت	إليك ملوك القول عرب وأعجم
نظرت بعين الغيب في كل أمة	وفي كل عصر ثم أنشأت تحكم
فلم تخطئ المرمى ولا غرو أن دنت	لك الغاية القصوى فإنك ملهم

يحيي الشاعر في هذه الأبيات، نيابة عن المصريين، شاعر بريطانيا العظيم، ويشير إلى أن العظام من ملوك القول عربا وعجما جاءوا مشاركين في إحياء يوم وفاتك، كما أنه ينوه بعبقرية (شكسبير) التي طبقت الآفاق، وبنظرته البعيدة في الأمور التي ثبتت صحتها وبلغت غايتها. وقد جاء فيها تعبير الشاعر خبريا تقريريا، ومستخدما الأفعال المضارعة التي تدل على الحاضر والاستمرار. وذلك في مثل قوله: يحييك، يطربه.

ويقول فيها:

أفق ساعة وانظر إلى الخلق نظرة	تجدهم - وإن راق الطلاء - هم هم <sup>(٢)</sup>
على ظهرها من شر أطماعهم دم	وفوق عباب البحر من صنعهم دم <sup>(٣)</sup>
تفانوا على دنيا تغر وباطل	يزول إلى أن ضجت الأرض منهم

(١) الكنانة: لفظ يطلق على مصر.

(٢) الطلاء: الصباغ.

(٣) عباب البحر: موجه الزاخر.



فليتك تحيا يا أبا الشعر ساعة  
لتنظر ما يصمي ويدمي ويؤلم  
وقائع حرب أجج العلم نارها  
فكادبها عهد الحضارة يختم<sup>(١)</sup>  
وتعلم أن الطبع لا زال غالبا  
سواء جهول القوم والمتعلم  
فما بلغت منه الحضارة مأربا  
ولا نال منه العلم ما كان يزعم

يستنهض الشاعر في هذه الأبيات (شكسبير) لينظر من وراء الغيب ما حل بالبشرية من  
دماء وحروب، وإلى ما جناه تقدم العلم على العالم من ويلات وشروخ. ويشير إلى تفاني  
الناس وتكالبهم على حطام الدنيا. وقد ضجت منهم الأرض وعافتهم، وهذا الطبع غلب  
عليهم، وعالمهم وجهولهم سواء في ذلك.

يراوح الشاعر في هذه الأبيات بين الخبر والإنشاء، فتبدو الأخبار في قوله:

على ظهرها... دم، وفوق عباب البحر.. دم، وقائع حرب، أجج العلم نارهما، ويبدو  
الإنشاء في قوله: أفق ساعة... وانظر إلى الخلق.. فليتك تحيا،... يا أبا الشعر.. كما ظهرت  
المطابقة في قوله: جهول القوم والمتعلم.. وألفاظ الحزن في قوله: يصمي ويدمي ويؤلم.

ويقول فيها:

ألا إن ذكرى شكسبير بدت لنا  
بشير سلام ثغره يتسم  
فلو أنصفوا أبطالهم لتهادنوا  
قليلا وحيوا شعره وترنموا<sup>(٢)</sup>

(١) أجج: أضر.

(٢) ترنموا: تغنوا، تهادنوا: وضعوا الهدنة بينهم.

ولم يطلقوا في يوم ذكراه مدفعا ولم يزهقوا نفسا ولم يتقحموا<sup>(١)</sup>

يرى الشاعر أن ذكرى شكسبير تذكرنا بأنه كان داعية سلام للبشرية جمعاء، وما كانت البسمة تغادر ثغره، ويتمنى لو أن بريطانيا ومعها الغرب ترنمت وتغنت بشعر هذا العبقري، ودعت إلى السلام بدلا من دق طبول الحرب وإشعال نارها.

بهذا الأسلوب الخبري والتقريرى، يعبر الشاعر عن ذكرى شكسبير وموقف بريطانيا ومعها الغرب منه.

ويقول فيها:

ولوع بتصوير الطباع فلم يحز	بعاطفة إلا حسبناه يرسم
أراني في (ماكيث) للحقد صورة	تكاد بها أحشاؤه تضرم
وأقعدني عن وصف (همليت) حسنها	وفي مثلها تعيا اليراعة والفم
دع السحر في (روميو) و (جوليت) إنما	يحس بما فيها الأديب المتيم <sup>(٢)</sup>
أتاهم بشعر عبقري كأنه	سطور من الإنجيل تتلى وتكرم
لقد جهلوه حقبة ثم ردهم	إليه الهدى فاستغفروا وترحموا

يثني الشاعر في هذه الأبيات على عبقرية شكسبير وموهبته المسرحية في كل من (ماكبث) و (شيلوك) و (روميو وجوليت) وهي جميعا من أشهر مسرحياته، ويصف الشاعر هذه المسرحيات بأنها تسحر النفوس، وتأسر القلوب، ويهيم بها الأديب المتيم، ولقد جهل

(١) يزهقوا: يهلكوا، يتقحموا: يلجوا.

(٢) شجنتنا: أحزنتنا.

الإنجليز والغرب معه فضل هذا العبقرى العظىم؁ ولكن سرعان ما عاد إىهم وشدهم وهدهم؁ فكفروا عن جهلهم بالاستغفار والترحم على روح هذا الشاعر العظىم.

لقد عبر حافظ إبراهيم عن عظمة هذا الشاعر الكبر وإبداعه الملهم فى الفن المسرحى مستخدما أسلوبا خبريا وإنشائيا؁ تمثل فى الألفاظ والعبارات التى تضمنتها هذه الأبيات.

وأخيرا يقول فيها:

فقل لبني التاميز والجمع حافل به يثر الدر الثمين وينظم  
لئن كان فى ضخم الأساطيل فخركم لفخركم بالشاعر الفرد أعظم  
يهنئ الشاعر الإنجليز بهذا العبقرى الذى لم ينصفوه إلا بعد مماته؁ ويذكرهم قائلا لهم؁  
إن كنتم تفخرون بما لديكم من أساطيل ومعدات حربية؁ فإن فخركم بهذا الشاعر العبقرى  
الفد أعظم من فخركم بها.

هكذا يكون حافظ إبراهيم قد عبر عما يكنه هو والمصريون من إعجاب وإكبار لهذا  
الشاعر العظىم الخالد؁ مؤديا واجبا إنسانيا فى المشاركة فى إحياء ذكراه؁ بعيدا عن التعصب  
للجنس أو للدين؁ وبعيدا عن النفاق والرياء؁ قال كلمة حق فى شاعر عظيم طبقت شهرته  
الآفاق ولا تزال الإنسانية تعيش ذكراه.

ويقول فى الزلزال الذى ضرب مدينة (مسينا) الإيطالية سنة ١٩٠٨: (من الخفيف):

نبئاني إن كنتما تعلمان ما دهى الكون أيها الفرقدان<sup>(١)</sup>

(١) الفرقدان: نجان فى السماء الشالية قربان من نجمة القطب.

غضب الله أم تمردت الأرض	فأنحت على بني الإنسان؟ <sup>(١)</sup>
ليس هذا سبحان ربي ولا ذاك	ولكن طبيعة الأكوان
غليان في الأرض نفس عنه	ثوران في البحر والبركان
رب أين المفرد والبحر والبر	على الكيد للورى عاملان
كنت أخشى البحار والموت فيها	راصد غفلة من الربان <sup>(٢)</sup>
فلإذا الأرض والبحار سواء	في خلاق كلاهما غادران

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن شدة فزعه لما أصاب مدينة (مسينا) الإيطالية من زلزال وطوفان وبركان، فيتوجه بالسؤال إلى النجمين (الفرقدين) أن يخبراه عما جرى إن كانا يعلمان، إنه في دهشة وذ هول، هل هو غضب من الله، أم تمرد من الأرض وغضب منها على الإنسان؟ ويعود الشاعر مستدركا وقائلا: ليس هذا نتيجة هذا أو ذاك وإنما الذي حدث هو من طبيعة الكون كظاهرة أرضية، وكان الشاعر بخاف ركوب البحار حذر الموت عندما يغفل ربان السفينة فيخطئ القيادة، ولكنه سرعان ما يدرك أن لا فرق بين ثورة الأرض وهيجان البحر فكلاهما سواء في خلاقهما وطبعهما وغدرهما.

ولقد استخدم الشاعر لغة تنطق بانفعاله وتأثره لهذا الحدث الجلل، مستخدما الألفاظ التي تحكي قصة الزلزال والطوفان والبركان، ومراوفا بين أسلوب الإنشاء والخبر، فالطلب والتقرير، والنفي والاستفهام واضحة في هذه الأبيات.

(١) أنحت عليه: أحلت عليه غاضبة.

(٢) الربان: قائد السفينة.

ويقول فيها:

ما (لمسين) عوجلت في صباها  
ومحت تلكم المحاسن منها  
خسفت، ثم أغرقت، ثم بادت  
وأتى أمرها فأضحت كأن لم  
ليتها أمهلته فتقضي حقوقا  
بغت الأرض والجبال عليها  
فهنا الموت أسود اللون جون  
جند الماء والثرى لهلاك الخلق  
فاستحال النجاء واستحكم الياس  
وشفى الموت غله من نفوس  
ودعاها من الردى داعيان<sup>(١)</sup>  
حين تمت آياتها آيتان  
قضي الأمر كله في ثواني<sup>(٢)</sup>  
تك بالأمس زينة البلدان  
من وداع اللدات والجيران<sup>(٣)</sup>  
وطغى البحر أيما طغيان  
وهنا الموت أحمر اللون قاني  
ثم استعان بالنيران<sup>(٤)</sup>  
وخارت عزائم الشجعان<sup>(٥)</sup>  
لا تباليه في مجال الطعان<sup>(٥)</sup>

يصور الشاعر في هذه الأبيات ما أصاب مدينة (مسينا) وهي لا تزال في بداية بنائها وعمرانها، حيث أصابها عاملان من الموت، الزلزال والبركان، ومن ثم يتبعها الطوفان، وقد عملت هذه الثلاثة على مسح محاسنها بعد أن بلغت ذروة ازدهارها، فقد خسفها الزلزال

(١) الردى: الهلاك.

(٢) بادت: انتهى وجودها وانقرضت.

(٣) اللدات: الأصحاب والرفاق.

(٤) خارت: ضعفت.

(٥) غله: حقه.

والبركان وتبعها الطوفان فأنتهى أمرها كله في ثوان معدودة، فأصبحت أثرا بعد عين، ويتمنى الشاعر لو أجلها القدر لتقوم بواجب الوداع للمدن الإيطالية الأخرى وما يجاورها من بلدان، لقد كان الزلزال قاسيا عليها، وكان البحر ظالما لها ظلما شديدا، وكان الموت مختلفا ألوانه فمنه الأسود الذي تمثل في حرق الأجساد ومنه الأحمر القاني الذي سببته نيران البركان، لقد شكل الموت جنوده من الطوفان، والزلزال، ودعمها بالبركان من أجل الإتيان على أهلها، فأحاطها الموت من كل جانب، وتعذر الإفلات والنجاة منها، فيئست، وضعفت العزائم، فكان الموت ما أراده في شفاء حقه من سكان هذه المدينة.

هكذا صور حافظ إبادة مدينة (مسينا) في جو من الذهول والدهشة، مستخدما الاستفهام، والإخبار، والتمني، والتقرير، ظهر كل ذلك من خلال الألفاظ والعبارات التي تضمنتها الأبيات، ويبدو الوصف المتأثر الحزين في البيت الثالث في قوله: خسفت، ثم أغرقت، ثم بادت، قضي الأمر كله في ثواني، ولا شك أن لحرف العطف هنا دلالة في الترتيب والتتابع والتراخي القريب.

كما يبدو في الأبيات المجاز المتمثل في الاستعارات والتشبيه كقوله، عوجلت في صباها، دعاها من الردى داعيان، وداع اللدات والجيران، بغت الأرض والجبال، طغى البحر، الموت أسود اللون جون، والموت أحمر قاني، جند الماء والثرى، شفى الموت غله من نفوس ...

ويقول فيها:



أَيْن (ردجو) وأَيْن ما كان فيها	من مغان مأهولة وغواني <sup>(١)</sup>
عوجلت مثلها أختها ودهاها	مادهاها من ذلك الثوران <sup>(٢)</sup>
رب طفل قد ساخ في باطن الأرض	ينادي: أمي أبي أدركان
وفتاة هيفاء تشوى على الجمر	تعاني من حره ما تعاني <sup>(٣)</sup>
وأب ذاهل إلى النار يمشي	مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنيه	مسرع الخطو مستطير الجنان <sup>(٤)</sup>
تأكل النار منه لا هو ناج	من لظاها ولا اللظى عنه واني

يتساءل الشاعر في هذه الأبيات عن مصير (ردجو) الإيطالية، كيف انتهى؟ وأين ما كانت تحفل به من أحياء أهلة بسكانها وبنسائها الغواني، لقد أصابها ما أصاب مدينة (مسينا) من زلزال مدمر وبركان ثائر هائج، بدت أثارها في أطفال، ذكورا وإناثا، ابتعلتهم الأرض، وحرقت أجسامهم نيران البراكين، كانوا يعانون منها، وينظرون آباءهم وأمهاتهم مستغيثين ليسارعوا في إنقاذهم، كان الأب والأم ذاهلين حائرين يبحثان عن فلذات أكبادهما، بين أنقاض الزلزال ونار البركان، وقد لحق الأب ما لحقه من لظى النيران دونما رحمة أو مهلة للبحث عن أبنائه وبناته.

(١) الغواني: النساء الحسان.

(٢) دهاها: أصابها.

(٣) هيفاء: ضامرة الخصر .

(٤) الجنان: القلب.

حقاً إنه مشهد مخزن يمزق نياط القلوب، ويدمى النفوس، عبر عنه حافظ إبراهيم بهذه اللغة السلسة الحزينة المؤثرة التي تثير العواطف، وتؤجج المشاعر الإنسانية حيال حدث من أعمال الطبيعة، ردم البنيان وأهلك الإنسان ... وقد توزع أسلوبه بين الإنشاء والإخبار والتقرير، وذلك من خلال الألفاظ والعبارات التي تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

لهف نفسي وألف لهف عليها	من أكف كانت صناع الزمان <sup>(١)</sup>
مولعات بصيد كل جميل	ناصابات حبائل الألوان
حافرات في الصخر أو ناقشات	شائعات روائع البنيان
منطقات لسان كل جماد	مفحات سواجع الأفنان <sup>(٢)</sup>
ملهمات من دقة الصنع مالا	يلهم الشعر من دقيق المعاني
من تماثيل كالنجوم الدراري	يهرم الدهر وهي في عنفوان <sup>(٣)</sup>
عجب صنعها وأعجب منه	صنعه تلك قدرة الرحمن

يحزن الشاعر في هذه الأبيات على ما أصاب مدينة (مسينا) ويتلهف على تلك الأكف التي قضمها الزلزال والبركان، وهي أكف برعت في التحت والتصوير والنقش وتشيد أروع أنواع البناء، لقد أنطقت الجهاد بإبداعها وأسكتت الطيور بألفاظها، لقد ألهمها الله من الموهبة

(١) لهف نفسي: نفس متألمة.

(٢) سواجع الأفنان: كناية عن الطير، الحمام خاصة.

(٣) الدراري: النجوم المشبهة لحبات الدر، العنفوان: أول الشيء.

ودقة البناء، لقد أنطقت الجهاد بإبداعها وأسكتت الطيور أنفاسها، لقد ألهمها الله من الموهبة ودقة الصنع، مالا يتهيأ للشعر من معان، ولقد برعت في صنع التماثيل التي تحاكي النجوم جمالا ولمعانا لا يزولان مدى الدهر، ويعجب الشاعر في صنع ولكن أعجب منه صنع الله - سبحانه - الذي أحسن كل شيء خلقه.

بهذه اللغة المتلهفة الحزينة يتأسى الشاعر على ما كانت عليه مدينة (مسينا) من حضارة وصناعة وتصوير، لكنها أصبحت أثرا بعد عين، جاء ذلك من خلال ألفاظ التلهف والتحسر التي تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

ولكن أمسيت رهن الألوان	أنت (مسينا) لن تزولي كما زالت
فاطمئني ما دام في الحي باني	إن إيطاليا بنوها بناة
بما فيك من مغان حسان <sup>(١)</sup>	فسلام عليك يوم توليت
كما كنت جنة الطليان	وسلام عليك يوم تعودين
على كل هالك فيك فاني	وسلام كل حي على الأرض
وناشت جوارح العقبان <sup>(٢)</sup>	وسلام على الألي أكل الذئب
بالدمع وثنى بالأصفر الرنان <sup>(٣)</sup>	وسلام على كل امرئ جاد

(١) المغاني: القصور والدور.

(٢) ناشت: نهشت.

(٣) الأصفر الرنان: كناية عن الدنيار.

ذاك حق الإنسان عند بني  
الإنسان لم أدعكم إلى إحسان  
ها هنا مصرع الصناعة والتصوير  
والحذق والحجا والأغاني<sup>(١)</sup>

يخاطب الشاعر مدينة (مسينا) نافيا زوالها كما زالت (ردجو)، ويرى أن ما أصابها أمر طارئ خارج عن إرادتها، ودولة إيطاليا يسودها رجاها، ويطمئننها بأن ستعود إلى سابق عهدها طالما بناتها موجودون على ظهر الأرض، وف الوقت نفسه يتأسى على ما ذهب من مغائرها الحسان، ويزجيها تحياته يوم تعود كسابق عهدها جنة وفردوسا للطليلان، ويبلغها سلام كل حي على الأرض إلى أولئك الذين قضوا وفنوا جراء ما أصابها من كارثة، والسلام موصول إلى أولئك الذين أكلت الحيوانات المفترسة لحومهم، ونهشت الطيور الجارحة أجسامهم، والسلام موصول إلى كل إنسان جادت عيناه بالدمع حزنا عليهم، وأتبعها بالمال للتخفيف من مصابهم، ويشير في نهاية القصيدة إلى أن (مسينا) كانت مكانا لمصرع ما عرف عن الطليلان من مهارة وإبداع في عالم الصناعة والتصوير والفكر والغناء.

هكذا طال نفس الشاعر في هذه القصيدة لتصل أبياتها إلى ستين بيتا، وما كان ذلك ليتم للشاعر لولا تأثره الشديد والصادق لهذا الحدث الإنساني، ولولا أنه يحمل بين جوانحه نفسا تشارك الإنسانية جمعاء فيما يصيبها من فجائع ومصائب، لقد استخدم الشاعر ألفاظا وتعابير صورت هول الفجيعة التي ألت (بمسينا) ومن قبلها أختها (ردجو)، مراوحا ما بين الخبر والإنشاء، والتقريب وإيراد الصور البيانية المتمثلة في الاستعارات والتشبيهات والكنايات والرموز، من مثل قوله: مادهى الكون، غضب الله أم تمردت الأرض، غليان في الأرض، دعاها من الردى، داعيان، ثوران في البحر والبركان، أين المفر، عوجلت في صباها، خسفت،

(١) الحجا: العقل.

أغرقت، قضي الأمر كله في ثوان، وداع اللدات والجيران، بغت الأرض والجبال، وطغى البحر أيما طغيان، هنا الموت أسود اللون جون، وهنا الموت أحمر اللون قاني، استعان بالنيران، استحال النجاء، استحكم اليأس، خارت عزائم الشجعان، شفى الموت غله من نفوس، رب طفل ساخ في باطن الأرض، ينادي أمي أبي أدركاني، فتاة هيفاء تشوى على الجمر، تعاني من حره ما تعاني، أب ذاهل، مستميتا، باحثا عن بناته وبنيه، مستطير الجنان، تأكل النار منه، اللظى عنه واني، غصت الأرض، أتخم البحر، طوياه من هذه الأبدان، لهف نفسي، أكل الذئب وناشت جوارج العقبان، هنا مصرع الصناعة والتصوير والحذق والحجا والأغاني ...

ولعل سائلا يسأل: ما الذي هدف إليه حافز إبراهيم من هذا الوصف؟ وهل كان شاهدا له؟ وماذا يعنيه من (مسينا) الإيطالية ومدن إيطاليا الأخرى؟ والجواب على مثل هذه الأسئلة أو التساؤلات هين بسيط، وهو أن حافظ إبراهيم لم يكن ينتظر جائزة، أو ينال نوالا، ولم تربطه (بمسينا) وسكانها رابطة معتقد أو مذهب أو جنس، وإنما الرابطة القوية التي تسليح بها في تصويره هذا هي رابطة الإنسان بأخيه الإنسان أينما وجد وفي أي مكان وزمان وحسب.

ويقول في قصيدة يرثي فيها (جورج الخامس) ملك إنجلترا (من البسيط):

إن الذي كانت الدنيا بقبضته      أمسى من الأرض يحويه ذراعان  
وغاب عن ملكه من لم تغب أبدا      عن ملكه الشمس من عز وسلطان  
يتأسى الشاعر في هذين البيتين على (جورج الخامس) ملك بريطانيا الذي اخترمه الموت تاركا ملكه الواسع الممتد، ولم يعد يملك من الدنيا سوى ذراعين من الأرض ضما جثمانه، لقد غاب هذا الملك عن ملك ما غابت الشمس عنه لما كان عليه من عز وسلطان وفي ذلك إشارة إلى بريطانيا العظمى التي كانت لا تغيب الشمس عن ملكها فما أن تغيب عن أرض إلا

وتشرق في أرض أخرى من مملكة بريطانيا. وكأن لسان الشاعر يقول دوام الحال من المحال وكل الأنام حكاما ومحكومين إلى انتهاء وزوال. وذلك واضح في قوله: كانت الدنيا بقبضته... أمسى من الأرض يحويه ذراعان. ورثاء حافظ لهذا الملك لم يكن من أجل رغبة يريدونها. أو نوال يطمع فيه، لم يكن ينظر أن يكون ورثا لذلك الملك، وإنما كان الدافع الإنساني وراء هذا الرثاء.

ويقول في قصيدة يرثي بها (فكتوريا) ملكة بريطانيا التي توفيت سنة ١٩١١ (من البحر الوافر) :

أعزي القوم لو سمعوا عزائي      وأعلن في مليكتهم رثائي  
وأدعو الإنجليز إلى الرضاء      بحكم الله جبار السماء  
فكل العالمين إلى فناء<sup>(١)</sup>

يعزي الشاعر الإنجليز بوفاة ملكتهم (فكتوريا) داعيا إياهم إلى التحلي بالصبر والرضا بإرادة الله، وفي الوقت نفسه يعلن مشاركته مصابهم.  
ويقول فيها:

أشمس الملك أم شمس النهار      هوت أم تلك مالكة البحار<sup>(٢)</sup>  
فطرف الغرب بالعبرات جاري      وعين اليم تنظر للبحار<sup>(٣)</sup>

(١) فناء: زوال.

(٢) شمس الملك: قصد ملكة بريطانيا، هوت: غابت، اختفت.

(٣) العبرات: جمع عبرة: الدموع، اليم: البحر.



### بنظرة واجد قلق الرجاء<sup>(١)</sup>

يصور الشاعر في هذه الأبيات جزع البريطانيين وحزنهم لفقد الملكة، وكان هذا الجزع موصولاً بجزع البحار وغير البحار، وفي هذا المقطع إشارة إلى أسطول بريطانيا العظمى....

ويلاحظ استخدام الشاعر للصور البيانية المتمثلة في الاستعارة في قوله: أشمس الملك ومقابلتها بشمس النهار، وطرف الغرب بالعبرات جاري، كما تظهر الاستعارة المكنية في قوله: وعين اليم تنظر للبحار .

ومشاركة حافظ إبراهيم للإنجليز في العزاء بمليكتهم هي مشاركة إنسانية أملت عليها عليه إيمانه بأن الإنسان أخو الإنسان أينما كان.

وحافظ إبراهيم صاحب عاطفة إنسانية جياشة، تهزها الأحداث الجارية في الكون، وتحزن على رموز الأمم المشهورين. فها هو يرثي (تولستوي) الأديب الروسي المشهور، يقول (من الطويل):

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى	لمدحك من كتاب مصر كبير <sup>(٢)</sup>
ولست أبالي حين أرثيك بعده	إذا قيل عني قدر ثاء صغير
فقد كنت عوناً للضعيف وإنني	ضعيف ومالي في الحياة نصير
ولست أبالي حين أبكيك للورى	حوتك جنان أم حواك سعي <sup>(٣)</sup>

(١) الواجد: الحزين .

(٢) انبرى: تحرك ، كبير : صفة لرجل أو كاتب .

(٣) الورى: الناس .

فلإني أحب النابغين لعلمهم وأعشق روض الفكر وهو نضير<sup>(١)</sup>

لا ضير إذا ما نهض حافظ للمشاركة في رثاء (تولستوي) فهو يدلي بدلوه فيرثيه بعد أن رثاه أمير الشعراء شوقي من قبل، كما رثاه نفر غير يسير من أدباء مصر، ويقول إن كنت أرثيه، فأنا أرثيه؛ لأنه كان عوناً للضعيف، وأنا من هؤلاء الضعفاء وليس لي نصير في هذه الحياة سوى الله، كما أنني أرثيه لنبوغته ومواهبه لا لشيء غير ذلك، ولا يهمنه إن كان سيكون من أهل الجنة أو من أهل السعير، بهذا التواضع الجم يشارك حافظ إبراهيم في رثاء تولستوي، غير مبال إن قيل عنه قد رثاه شاعر صغير بعد أن رثاه شاعر مصر الكبير أحمد شوقي.

وتبدو الصورة البيانية الرائعة في قوله: أعشق روض الفكر وهو نضير .

ويقول فيها:

دعوت إلى عيسى فضجت كنائس	وهز لها عرش وماد سرير <sup>(٢)</sup>
وقال أناس إنه قول ملحد	وقال أناس إنه لبشير <sup>(٣)</sup>
ولولا حطام رد عنك كيادهم	لضقت به ذرعا وساء مصير
ولكن حماك العلم والرأي والحجا	ومال - إذا جد النزال - وفير <sup>(٤)</sup>

(١) نضير: زاهر.

(٢) ماد: تحرك، والسريير: العرش، كناية عن الحكام.

(٣) الملحد: الناصر للبعث والنشور.

(٤) الحجا: العقل، النزال: العراك والصراع.

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن مبادئ وأفكار تولستوي، حيث قوبلت بالضجة والاستنكار من قبل رجال الكنائس، واهتزت لها عروش، وتحركت سرر، وقد توزع الناس نحو دعوته فمنهم من اتهمه بالكفر، ومنهم من قال إنه بشير من المبشرين الداعين إلى إسعاد البشرية. والحقيقة إنه داعية لما دعا إليه السيد المسيح من قبل، رحمه بالفقراء والمساكين.

تبدو لغة الشاعر الإنسانية في هذه الأبيات وتلقي بظلالها على ما يرمي إليه من معان، ترجمتها ألفاظه وتعابير المستخدمة في هذه الأبيات المستلّة من قصيدته في رثاء (تولستوي)، كمثل قوله: رثاك أمير الشعر في الشرق، حين أبكيك للورى، ضجت كنائس، هز لها عرش، ماد سرير...

ويقول من قصيدة يعزي فيها بالطيار العثماني (فتحي بك) الذي لقي حتفه في حادثة سقوط طائرته وهو في طريقه إلى مصر (مجزوء الكامل):

أهـلا بـأول مـسلم                      في المشرقين علا وطار  
النـيل والبـسفور فيـك تـجاذبـا ذـيل الفـخـار<sup>(١)</sup>  
يـوم امتـطـيت بـراقـك المـيمـون واجتـزت القـفـار<sup>(٢)</sup>

يحیی الشاعر هذا الطيار العثماني المسلم الذي اعتلى متن الهواء فكان أول مسلم قام بهذا العمل الكبير مجتازا الفياقي والقفار، كما كان فخرا لكل من المصريين والأتراك.

(١) البسفور: مضيق مشهور في الآسنة.

(٢) البراق: اسم الدابة التي سرى بها النبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج إلى السماء.

ويقول فيها:

(فتحي) بربك ما رأيت      بذلك الفلك المـدار  
أبلغت تسييح الملائك أو دنوت من السـرار<sup>(١)</sup>  
أرأيت سكان النجوم وأنت في ذاك الجـوار  
أهناك في (المريخ) ما في الأرض من علل الشجار<sup>(٢)</sup>  
أهناك يستعدي الضعيف على القوي فلا يجار

يسأل الشاعر في هذه الأبيات الطيار (فتحي بك) عما رآه وهو يخلق في الفضاء، يسأله  
عن تسييح الملائكة، وعن مشاهداته التي مر بها.

ويقول فيها:

يا أيها الطيار طر فإذا بلغت مدى المطار  
فزر السها والفرقدين إذا أتيت لك المزار<sup>(٣)</sup>  
وسل النجوم عن الحياة ففي السؤال لك اعتبار  
هم ينبئونك أن كل الكائنات إلى بوار<sup>(٤)</sup>

---

(١) السرار: المناجاة.

(٢) الشجار: النزاع.

(٣) السها: نجم خافت صغير، والفرقدان: نجمان متقاربان يقعان في السماء الشمالية.

(٤) بوار: هلاك.

والظلم من طبع النظام فإن ظلمت فلا تمار<sup>(١)</sup>  
إن الذي برأ السديم هو الذي برأ الغبار<sup>(٢)</sup>  
في العالم العلوي والسفلي أحكام تدار  
خلق الضعيف لخدمة القوي وليس له خيار  
يخاطب الشاعر هذا الطيار ويحثه أن يرتفع أكثر في أجواء الفضاء ليزور نجوم السها  
والفرقدين، ويسألها عن سر الحياة وعن الظلم، وصراع البشر والخلق، وكيف أن الله -  
سبحانه - هو الذي خلق الأرض والسماء والنجوم، وفي كل هذا عبرة وعظة للإنسان، فكل  
ذلك مآله إلى زوال واندثار.

ويقول فيها:

وارجع إلى تلك الديار	في ذممة الأفق سر
بلد به الملك دار	واجعل تحتنا إلى
والهدى رفع المنار	دار عليها للخلافة
يليه في الدهر انحدار	ما عابهم أن الصعود
ولكل وضاء سرار <sup>(٣)</sup>	فلكل غاد روحه
ويسود ذياك الشعار	ولسوف يعلو نجمهم

(١) تمار: تنازع .

(٢) السديم: النجوم المجتمعة تشبه الضباب . ، برأ: خلق .

(٣) الوضاء: البهي الطلعة والوجه، والسرار: الغياب.

يحتسب الشاعر هذا الطيار في ذمة الله بعد أن قضى نحبه وهو مخلق في أجواء الفضاء، ويحمله تحياته لينقلها إلى ذلك البلد الذي هو قطب البلاد إلى الأستانة عاصمة خلافة العثمانيين، ومركز الخلافة والإشعاع والهداية، ويرى أنه لا استغراب أن يعقب صعودهم انحذار فهذه هي سنة الحياة، فما من غاد مبكر إلا له روحه وعوده، وكل ما هو مضيء بهي الظلة لا بد أن يفتر ويغيب، ولكن الشاعر لا يزال متفائلا يحدوه الأمل في أن تعود الخلافة العثمانية إلى سابق عهدها فيعلو نجمهم وترتفع راياتهم فوق تلك الديار التي حكموها.

بهذه الروح وبهذه الحماسة يفخر الشاعر بهذا الطيار العثماني المسلم، الذي كان ينوي زيارة مصر وهو يخلق بطائرته في عنان السماء، ولكن شاء الله - سبحانه - وقدر أن لا تتم تلك الزيارة .. ولقد عبر الشاعر عن فخره وحزنه في آن واحد بهذا الطيار الذي كان مثالا للطيار المسلم، وقد سادها لغة الحزن التي برزت من خلال الألفاظ التي استخدمها الشاعر للتعبير عن هذه المعاني، فضلا عن إطرائه للعثمانيين وسلاطينهم، وقد راوح في أسلوبه ما بين الإنشاء والخبر، وإيراد الاستعارات والتشبيهات والكنيات والإشارات التاريخية، وما في عالم الفضاء من أفلاك ونجوم.

ويقول في قصيدة في رثائه لكل من (فتحي وصادق) الطيارين العثمانيين اللذين سقطت طائرتهما في بلاد الشام (مجزوء الكامل):

أُخْتُ الكَوَاكِبِ مَا رَمَاكَ	وَأُنْتُ رَامِيَةَ النُّسُورِ <sup>(١)</sup>
مَاذَا دَهَاكَ وَفَوْقَ ظَهْرِكَ مَرَبُضُ	الْأَسَدِ الْهُـصُورِ <sup>(٢)</sup>

(١) أُخْتُ الكَوَاكِبِ: كناية عن الطائرة.

(٢) دَهَاكَ: أَصَابَكَ، الْهُصُورُ: الشَّجَاعُ.



خضعت لإمرته الرياح من الصبا والدبور<sup>(١)</sup>

فغدا يصرف من أعتها صاريف القدير<sup>(٢)</sup>

يتساءل الشاعر في هذه الأبيات عن سر سقوط الطائرة، إنها الريح التي لا ترحم، ويقول كيف سقطت أيتها الطائرة، وقد كنت مربضا لذلك الطيار الشجاع، الذي خضعت ليسطرته الرياح صباها ودبورها، وأخذ يمسك بزمامها إمساك المتمكن القادر على قيادته.

والشاعر في هذه الأبيات يعرب عن دهشته واستغرابه لسقوط الطائرة في الوقت الذي كان يقودها طيار ماهر، بدا ذلك من خلال ألفاظها وعباراتها، والتي تنوعت بين الإنشاء والخبر، وإيراد الكنايات والتشبيهات.

ويقول فيها:

(فتحي) وهل لي إن سألت عن المصيبة من محير؟

ويلاه هل جزت الحدود وأنت مخترق الستور؟

فرماك حراس السماء وتلك قاصمة الظهور؟<sup>(٣)</sup>

أم غار منك السابحات وأنت تسبح في الأثير<sup>(٤)</sup>

فوردت يا (فتحي) الحمام وأنت منقطع النظر<sup>(٥)</sup>

(١) الدبور: ريح السموم بخلاف الصبا.

(٢) أعتها: أزمته.

(٣) حراس السماء: كناية عن الشهب، قاصمة الظهور: قاطعتها.

(٤) السابحات: كناية عن النجوم والكواكب.

(٥) الحمام: الموت.

وهويت من كبد السماء      وهكذا مهوى البدور  
إن كان أعياك الصعود      بذلك الجسد الطهور  
فاسبح بروحك وحدها      واصعد إلى الملك الكبير<sup>(١)</sup>

ينادي الشاعر الطيار (فتحي) فيما إذا كان يستطيع إجابته عن المصيبة التي حلت به، ويستفزع الشاعر هوي فتحي الطيار إلى الأرض، ويبحث عن السر أكان غير النجوم منه وحسده إياه لمزاحمته إياها؟ ويترحم الشاعر على هذا الطيار المنقطع النظر، وقد عاجله الموت وهو يهوي من عنان السماء كما تنهاوى النجوم والبدور، فكان نعم الطيار الذي صعد بروحه إلى الخالق البارئ الملك المتعالى الكبير، ليلقى أحسن جوار.

بهذا الأسلوب الذي تقطر لغته حزنا وأسى لموت هذا الطيار، عبر الشاعر عن المصيبة التي لحقت بالمسلمين نتيجة سقوط هذه الطائرة التي أودت بحياة ذلك الطيار الماهر القدير، وقد استخدم فيها الشاعر أسلوب النداء والتحسر الذي خدم ما قصد إليه الشاعر من معان، يبرز ذلك من خلال قوله: سألت عن المصيبة من محير، ويلاه، رماك حراس السماء، وتلك قاصمة الظهر، فوردت يا (فتحي) الحمام، وهويت من كبد السماء، هكذا مهوى البدور..

وهكذا يبدو حافظ إبراهيم متأثرا حزينا من خلال ما عرضناه من نماذج، يشارك فيها أخاه الإنسان، فتزهه المصائب، وتحركه الأشجان، فيعبر عنها تعبير الواله الخيران، ويستخدم فيها الكنايات والاستعارات والتشبيهات التي تضمنتها الأبيات المختارة.

(١) الملك الكبير: الله سبحانه وتعالى.

## ٦- الخمریات:

الشباب والفراغ مفسدة للمرء أي مفسدة.

عاش حافظ إبراهيم طفولته وشبابه مشردا ضائعا هائما على وجهه، يبحث عن أمل مفقود، وملاذ يزجي فيه فراغه الذي يطول ولا ينتهي، وأنى يتأتى له ذلك وهو الذي لم تبسم له الحياة كما ابتسمت لغيره، تراه يجوب الشوارع ويتنقل داخل الأزقة، لعله يجد ضالته التي تخفف من وحدته وعزلته، يلج أبواب الحانات، يكرع كؤوس الخمرة يتبادلها مع رواد حاناتها، فقد يكون فيها ما يسرى عما يعانيه من هموم وما يتتابه من مصائب ... فلعل وعسى...

فها هو يقول في (الخمرة) (من الكامل):

هذا الظلام أثار كامن دائي      يا ساقبي علي بالصهباء<sup>(١)</sup>  
بالكاس أو بالطاس أو باثنتيهما      أو بالدنان فإن فيه شفائي<sup>(٢)</sup>  
جريا على عادة القدامى من الشعراء، يخاطب الشاعر ساقبي الخمرة طالبا إليها أن يحضرا له الصهباء وهي الخمرة، متعجلا إياهما بأن يسكباها بأي إناء من آنيتهما بالكاس أو بالطاس أو بالدنان، فهو متلهف لمعاقرتها.

ويقول فيها:

---

(١) الصهباء: اسم من أسماء الخمرة من الصبغة وهي الخمرة.

(٢) الدنان: جمع دن وهو وعاء الخمرة الكبير.

يا صاحبي كيف النزوع عن الطلا<sup>(١)</sup> ولقد بليت من المهموم بداء<sup>(٢)</sup>  
ألفت بين ابن السحاب وبينها<sup>(٣)</sup> فرأيت صحة ما حكاها الطائي<sup>(٤)</sup>  
(صعبت وراض المزج سيء خلقها فتعلمت من حسن خلق الماء)  
حقاً:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة  
بهذه اللغة يصف حافظ إبراهيم الخمرة، فهي تعبر عن واقع كان يعيشه، شباب وفراغ  
وتسكع وتشرد وضياح، ظلام يهز كامن دائه، يرتاد الحانة وينادي بالساقين لتقديم الصهباء  
بأي من أنيتها فهو هائم بها هيام العاشق بمعشوقته، ويؤاخي بينها وبين ماء السحاب  
مستشهداً ببيت أبي تمام المضمن بين قوسين والذي يفصح عن صفة الخمرة .. وفي الوقت  
نفسه يبين شدة تعلقه بالخمرة، واستحالة الانقطاع عن شربها، وكيف يتأتى له ذلك وهو  
المهموم المغموم، لا يزيل همه سوى الخمرة.

ويقول في قصيدة بعثها إلى (محمود المويلحي) الكاتب والأديب (من الخفيف):

أوشك الديك أن يصيح ونفسي بين هم وبين ظن وحس<sup>(٣)</sup>  
يا غلام، المدام والكاس والطاس وهيئ لنا مكاناً كأس<sup>(٤)</sup>

(١) الطلا: الخمرة، النزوع: الكف والانقطاع.

(٢) الطائي: المراد به أبو تمام الشاعر العباسي المشهور من قبيلة طيء.

(٣) الحس: الظن.

(٤) المدام: الخمرة، الطاس: الكاس.

أطلق الشمس من غياهب هذا      الدن واملأ من ذلك النور كأسي<sup>(١)</sup>

وأذن الصبح أن يلوح لعيني      من سناها فذاك وقت التحسي<sup>(٢)</sup>

يطلب الشاعر من النادل (الغلام) أن يهيء آنية الخمرة ويعد مكانا كالمكان الذي كان فيه  
أمس، ويطلب منه أن يسارع بملئها فقد شارف الليل على انتهائه، ويرى أن للخمرة وقت  
لاحتسائها.

بهذه اللغة يخاطب الشاعر نادل الخمرة، وهو الذي اعتاد ارتياد حاناتها في أوقاتها المحددة  
والتي يطيب فيها معاقرتها، إنه يتفنن في نعتها؛ لأنه الخبير بأسرارها ... وقد استخدم الصور  
البيانية من تشاييه واستعارات تضمنتها الأبيات.

ثم يقول:

يا نديمي بالله قل لماذا      هذا الخندريس تدعى برجس<sup>(٣)</sup>

هي نفس ذكية وأبوها      غرسه في الجنان أكرم غرس<sup>(٤)</sup>

هي نفس تعلمت حسن أخلاق      (المولحي) في صفاء وأنس

خصه الله حيث يصبح بالإقبال، والعز      والعلا، حيث يمسي

(١) الشمس: كناية عن الخمرة، غياهب: ظلمات، الدن: وعاء الخمر.

(٢) السنن: الضياء والنور، التحسي: الشرب من الكأس.

(٣) الرجس: الإثم، الخندريس: صفة للخمرة التي تذهب العقل

(٤) الجنان: البساتين.

يخاطب الشاعر نديمه متعجبا عن سبب اعتبار الخمرة رجسا، وهي الزكية الطعم،  
العريقة النسب، وزكاتها كزكاوة صديقه المويلحي.

بهذا الأسلوب الصريح يتحدث حافظ عن الخمرة حديث الهائم بها، العالم بأسرارها  
وطعمها ونسبها، مستخدما ألفاظا تحكي صفاتها، وتثني على فوائدها ... فهذا هو مرة ينادي  
نديمه، وأخرى يخبر بزكاوتها وطيبها.

وكما أومأت آنفا، كان حافظ إبراهيم سيء الطالع، عاثر الحظ، قلقا، تلازمه الهموم  
والأحران، يبحث عن السعادة فلا يظفر بها، وينشد الراحة فلا يجدها، ولعل ذلك كان من  
الأسباب التي دفعته إلى ارتداد دور الخمرة للتنفيس عما يعاينه من هم وغم، وألفاظه التي  
يستخدمها تفصح عن ذلك من مثل قوله: نفسي بين هم وبين ظن وحدث ...

ويقول في قصيدة وكان يومها في السودان متذكرا مجلسا للخمرة مع مجموعة من صحبه  
(من الرمل):

جـددوا بالله عهد الغائبين	فتية الصهباء خير الشارين
إنني كنت إمام المدمنين <sup>(١)</sup>	واذكروني عند كاسات الطلا
دعوة الخمر فثوروا أجمعين	وإذا ما استنهضتكم ليلة

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات الفتية الذين اتخذوا من الخمرة صحبة لهم، مثليا عليهم  
بأنهم خير من تعاطى الخمرة، وطالبا منهم أن يجددوا عهده بهم وهو بعيد غائب عنهم، وأن  
يتذكروه كلما جمعتهم مجالس الخمرة، مذكرا إياهم بأنه أستاذ المدمنين عليها، بهذه الدعوة

(١) المدمن: المواظب على تعاطيها.



الصريحة والمكشوفة يصور حافظ مجالس شرب الخمرة وشاربيها مستخدما اللغة التي تنم عن خبرة وطول عهد بها، فأصحابه فتية الصهباء، وهم خيرة الشاربين، وهو إمام المدمنين، وصخب وثورة من الأجمعين.

ويقول:

رب ليل قد تعاهدنا على	ما تعاهدنا وكنافاعلين
فقضينا ولم نحفل بما	سطرت أيدي الكرام الكاتبين <sup>(١)</sup>
بين أقداح وراح عتقت	ورياحين وولدان وعين <sup>(٢)</sup>
وسقاة صفت أكوابها	بعضها البلور والبعض لجين <sup>(٣)</sup>
آنست منا عطاشا كالقطا	صادفت وردا به ماء معين <sup>(٤)</sup>
فمشت بالكاس والطاس لنا	مشية الأفراح للقلب الحزين
وتواثبنا إلى مـشمولة	ذات ألوان تسر الناظرين <sup>(٥)</sup>
عمد الساقى لأن يقتلها	وهي بكر أحصنت منذ سنين <sup>(٦)</sup>
ثم لما أن رأى عفتها	خاف فيها الله رب العالمين

(١) الكرام الكاتبين: كناية عن الملكين اللذين يسجلان على المرء حسناته وسيئاته.

(٢) الولدان: الخدام، كناية عن السقاة، العين: هي الحور في الجنة، كناية عن الساقيات.

(٣) اللجين: الفضة.

(٤) القطا: الحمام البري، معين: ماء نمير سلسل.

(٥) المشمولة: صفة للخمرة.

(٦) قوله ليقتلها: إشارة الى مزجها بالماء، وأحصنت: صارت محصنا ذات بعل أي غير بكر.

يتذكر الشاعر في هذه الأبيات ليلاً من ليالي مجالس الخمرة ضمته مع صحبه، وقد تعاهدوا فيه على مقارعة كؤوسها غير آبهين بما يرتكبونه من آثام يسجله، الملكان الموكلان بمراقبة الإنسان، ويذكر أن تلك المجالس كانت حافلة باللذة والمتعة حيث أقداح الخمرة المتنوعة والسقا والسقايات، والندمان، والورد والريحان.

هكذا يصور الشاعر ليلة أنس جمعت الأصحاب على كؤوس الخمرة، رامين بعرض الحائط ما يقترفونه من آثام، واصفا سقاتها وأقداحها، وإحساسها بعطشهم حيث كانوا كطيور القطا وقد وردت ماء فراتا يلذ للشاربين، تزيل همهم وتطرد غمهم وتغمر قلوبهم الحزينة بالأفراح والمسرات، ويذكر كيف كان السقا يكسرون حداثها بالماء، فصارت محصنا ذات بعل أي غير بكر، وعندما أيقن عفتها، تذكر مخافة رب العالمين.

تكثر في هذه الأبيات الإشارات الدينية والاجتماعية، كما يظهر فيها الصور البيانية التي تمثلت بالكنايات والاستعارات والتشبيهات، وهي واضحة جلية لا تدق عن ذي فكر قويم وذوق سليم.

ويقول فيها:

هكذا كنا بأيام الصفا      ننهب اللذات في الوقت الثمين  
ليت شعري هل لنا بعد النوى      من سبيل للقاء أم لات حين  
في هذين البيتين يتلهف الشاعر حسرة لذهاب هاتيك الأيام والليالي العامرة التي لن تعود بفعل تقدم العقل والسنين، وهكذا كان الشاعر مع صحبه في أيام الصفا يسارعون إلى اهتبال الفرص لاحتساء الخمرة، ولكن عقارب الزمان لن تعود إلى الوراء، وإن ما اجتزأناه

من أبيات هذه القصيدة ليدل دلالة واضحة على ما تضمنته من الحزن والأسى والحسرة التي لازمت الشاعر ماضيا وحاضرا حتى وهو في أيام صفائه، ولن يكون المستقبل أحسن حالا.

## ٧- الغزليات:

لم يكن حافظ إبراهيم بدعا في الناس، فهو إنسان له قلبه وله عواطفه تجاه الجنس الآخر، ولنا أن نتساءل في هذا الصدد، هل طرق الحب قلب حافظ؟ وهل كان الحب منبعثا عن لوعة مشبوبة، أو حرقه حب مكبوتة، أو تباريح صباية؟ وللإجابة عن هذا لتساؤل نعرض نماذج من قصائده في الغزل، ومن ثم نحكم على صدق هذا الحب أو زيفه.

يقول في قصيدة بعنوان (أنا العاشق العاني) (من الطويل):

أنا العاشق العاني وإن كنت لا تدري	أعيزك من وجد تغلغل في صدري <sup>(١)</sup>
خليلي هذا الليل في زيه أتى	فقم نلتمس للسهد درعا من الصبر <sup>(٢)</sup>
وهذا السرى نحو الحمى يستفزنا	فهيا وإن كنا على مركب وعر <sup>(٣)</sup>
خليلي هذا الليل قد طال عمره	وليس له غير الأحاديث والذكر
فهات لنا أذكى حديث وعيته	ألذ به إن الأحاديث كالخمر

يفصح حافظ إبراهيم وبضمير المتكلم في هذه الأبيات بأنه عاشق معنى وإن كان لا يدري بذلك من يخاطبه، فهو يشكو ثقل وطأة الحب والعشق، كما يشكو ما يعانيه في الليل من

(١) العاني: المتعب، الوجد: حرقه الحب، تغلغل: نفذ وتمكن.

(٢) السهد: الأرق.

(٣) يستفزنا: يستحثنا، السرى: السير ليلا.

حرقه الحب وطول السهر، ويطلب من يخاطبه أن يدير أطراف أذكي الأحاديث، فذكرها تكون بمثابة البلمس الشافي والخمر الصافي، حيث يشعر فيها بلذة ما بعدها لذة.

بهذه اللغة، لغة الحب والهوى يتحدث حافظ عن معاناته منه، وتلقي بظلالها الثقيلة على قلبه المتعب من شدة الوجد، يبدو ذلك من خلال ألفاظه: أنا العاشق العاني، من وجد تغلغل في صدري، نلتمس للسهد درعا، هذا الليل قد طال عمره، هات لنا أذكي حديث وعيته.

وقال متغزلا:

قالت الجوزاء حين رأت جفنه قد واصل السهرا<sup>(١)</sup>

ما لهذا الصب في وله أتراه يعشق القمر

فنجوم المجموعة الشمسية المسماة بالجوزاء تسأل حافظ إبراهيم حين رآته يعاني من السهد والسهرة الدائمين، يا ترى ما سبب حيرة هذا المحب العاشق، أياكون ذلك نتيجة عشقه للقمر الذي رمز به إلى معشوقته الجميلة الطلعة البهية المنظر؟

تبدو في هذين البيتين اللغة التي تومئ بالألم واللوعة وما كان يعانيه الشاعر من وجد، وذلك من خلال ألفاظه: جفنه قد واصل السهرا، ما لهذا الصب في وله، أتراه يعشق القمر.

ويقول في قصيدة أخرى متغزلا (وهي من الرمل):

سور عندي له مكتوبة ود لو يسري بها الروح الأمين<sup>(٢)</sup>

إنني لا آمن الرسائل ولا آمن الكتب على ما تحتوين

(١) الجوزاء: اسم يطلق على مجموعة من النجوم وتحمل اسم برج من بروج السماء الاثني عشر.

(٢) الروح الأمين: جبرائيل عليه السلام.

مستهن بالذي كابدته وهو لا يدري بماذا يستهن<sup>(١)</sup>

أنافي هم ويأس وأسى حاضر اللوعة موصول الأنين<sup>(٢)</sup>

يتحدث الشاعر عما يكنه للحيب من شوق وحنين، ورسائله إليه كسور الكتاب وآياته، ويتمنى الروح الأمين (أي جبرائيل) أن ينزل بها على قلب الحبيب، وهو لا يؤمن بالرسائل حملة الكتب أو يأمنهم على رسائله للحيب، وذلك لنفيس ما تتضمنه كتبه للحيب، رسائل الشاعر إلى حبيبته ثمينة وغالية على قلبه، لا يأمن أحدا عليها ولو كان من الرسل حملة الكتب، وهذه الرسائل فيها ما يعانيه من هم ويأس وأسى، واللوعة تلازمه لبعده الحبيب، وأنه موصول لا ينقطع.

لا شك أن المبالغة واضحة في حديث الشاعر عن حبيبته، وتصل إلى حد غير مقبول، حين يتمنى أن يكون جبريل عليه السلام هو الأمين على نقل رسائله، ثم تبلغ مبالغته درجة من عدم الإيمان بالرسائل حملة الكتب، على إيصال رسائله لمن يجب.

بعد عرض هذه النماذج من قصائد الغزل، يغلب على ظننا أن حافظ إبراهيم لم يكن متيما كعمر بن أبي ربيعة وأضرابه من شعراء الغزل المشهورين، فهو غير منبعث عن لوعة مشبوبة حقيقية، أو حرقه حب مكبوتة صادقة، أو تباريح صباية خالصة، فهو في جملة غزل مصنوع، مبالغ فيه، لكنه بارع التصوير، كما أنه لم يكن مكثرا في قصائد الغزل.

(١) كابدته: عانيته.

(٢) موصول الأنين: أي ذو أنات متتابعة لا تنقطع.

## ٨ - الهجائيات:

لم يحفل حافظ إبراهيم كثيرا بغرض الهجاء، ولعل ذلك يعود إلى أنه كان قريبا جدا من أبناء شعبه، عامتهم وخاصتهم، ولم يكن له أعداء أو خصوم، أو منافسون على شيء من متاع الدنيا التي لم تضحك له إلا قليلا، ولعل بعض شعر الهجاء في ديوانه، كان من قبيل التسلية والتسرية عن نفسه الحزينة المعذبة، أو هو عبارة عن مناكفات محبة كانت تحصل بينه وبين من كان يخالطهم أو يداعبهم.

فها هو يهجو أحد باعة الكتب، ولعله لم يكن لديه من النقود ما يشتري به من الكتب (من البسيط)، يقول فيها:

أديم وجهك يا زنديق لو جعلت منه الوقاية والتجليد للكتب<sup>(١)</sup>  
لم يعلها عنكبوت أينما تركت ولا تخاف عليها سطوة اللهب  
يهجو بائع الكتب لدماثة وجهه وتجهمه وعبوسه، فجلد وجهه لجفافه وقسوته يصلح لأن يكون وقاية وتجليدا للكتب، فلا تستطيع أسرع الحشرات التسلق إليها أو التواجد فوقها، ولا يخاف عليها من أن تطولها السنة النار ولهبها.

لا شك أنه هجاء لاذع، مؤلم وموجع، فقد كان الشاعر مصورا بارعا في وصف وجه بائع الكتب، الذي لم يكن على علاقة حسنة مع حافظ إبراهيم، وتبدو في هذا الهجاء السخرية والعبثية، وهذا أمر واضح في الألفاظ التي استخدمها الشاعر.

(١) أديم الوجه: ظاهره وبشرته، والزنديق: المنافق المجانب للحق.



ويقول في قصيدة يسخر فيها من أولئك الذين يجودون بالمال على أضرحة الأولياء (من الكامل):

أحياءنا لا يرزقون بدرهم	وبألف ألف ترزق الأموات
من لي بحظ النائمين بحفرة	قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها، ويجري حولها	بحر النذور، وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى	ووسيلة تقضى بها الحاجات <sup>(١)</sup>

يبدو حافظ إبراهيم متأثراً وساخراً بهذه السلوكيات التي يرى فيها إساءة إلى الدين القويم وما أنزل الله بها من سلطان، فهو يقول: هؤلاء الأولياء الأموات يجود الناس عليهم بالمال الوفير الذي يبلغ آلاف الدراهم، بينما كثير من الأحياء لا يرزقون شيئاً منها، ويؤكد على هذه الممارسات المشينة مستنكراً لها من خلال الإشارة إلى النذور الكثيرة التي تدفع إلى هؤلاء الأولياء الأموات بحجة أنهم مقربون من الله - سبحانه - يشفعون لذوي الحاجات ويعطون سؤلهم.

بهذه اللغة يسخر حافظ إبراهيم من أولئك الذين يتباركون بقبور الأولياء، وقيمون على أحجارها الصلوات، ويتنافس الناس في الوصول إليها، وإغداقها بالنذور وقراءة الآيات القرآنية، ويجدون حول هذه القبور من يوهم الزائرين بأن هذا الولي، هو باب المصطفى أي - الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو الشفيع والوسيلة لقضاء حاجات الزائرين المغدقين بأموالهم على قبور هؤلاء الأولياء الأموات.

(١) القطب: السيد والعماد.

وقال هاجيا ومنتقدا الجرائد المصرية (من السريع):

جرائد ما خط حرف بها      لغير تفريق وتضليل  
يحلونها الكذب لأربابها      كأنها أول إبريل<sup>(١)</sup>

يهجو حافظ إبراهيم في هذين البيتين محرري الصحف المصرية لكذبها، ويصفها بأنها عامل هدم لا عامل بناء، فهي تنتهج أسلوبا يدعو إلى الفرقة والتضليل بدل الوحدة والهداية، وأصحاب هذا الجرائد لا يطيب لهم إلا الكذب، وكأنها كذبة أول (إبريل) أو نيسان وهي معروفة، ويمارسها الكثير من الناس.

من الملاحظ أن حافظ إبراهيم استخدم لغة هجومية، طالت بقتالها أصحاب الصحف، ونعتهم بأقبح الصفات ألا وهي صفة الكذب، يظهر ذلك من خلال الألفاظ التي عبر بها عن هذا الخلق السيء المشين.

ويقول في هجاء ملك لا حول له ولا تأثير (من الكامل):

لا تعجبوا فمليكم لعبت به      أيدي البطانة وهو في تضليل  
إني أراه كأنه في رقعة الشطرنج      أو في قاعة التمثيل

يقول لمن يخاطبهم لا تعجبوا ولا تستغربوا إن قلت لكم إن مليكم ضعيف وعاجز عن إدارة الملك تاركا الأمر لأعوانه وبطانته وحاشيته المضلة.

(١) أول إبريل: أول نيسان إشارة إلى كذبة أول نيسان المعروفة.

والشاعر يحزن لوضع هذا الملك الذي هو ألعوبة بأيدي بطانته، وكأنه حجر شطرنج ينقله اللاعب من مكان إلى مكان آخر، أو كأنه ممثل على خشبة المسرح، جاء ذلك من خلال اللغة التي عبر بها عن شخصية هذا الملك.

ويقول في هجاء أحد الثقلاء الذين يرمون غيرهم بالعيوب (من مجزوء الكامل):

يا ساكن البيت الزجاج      هبلت لا ترم الحصونا<sup>(١)</sup>

أرأيت قبلك عاريا      يبغي نزال الدارينا<sup>(٢)</sup>

يهجو حافظ إبراهيم أحد ثقلاء الدم ويعيب عليه رمي الغير بالعيب الذي هو فيه، قائلا له: إذا كان بيتك من زجاج فلا ترم حصون الآخرين بالحجارة، ويتهمك منه سائلا له، هل رأيت قبلك عاريا خالي الوفاض يريد منا زلة من أدرعوا السلاح.

بهذه اللغة التهكمية الساخرة يهجو حافظ إبراهيم ذلك الشخص مستخدما ألفاظا قاسية فيها رصاص البنادق، التي تنفذ في الأجسام فتمزقها إربا إربا.

هكذا كان هجاء حافظ إبراهيم، لم يكن فاحشا كما عهدناه لدى شعراء الهجاء في الشعر العربي، ولم يكن فيه طویل النفس، فهجاؤه لم يتجاوز البيتين، وهذا واضح في المقطوعات التي عرضناها، وهذا ما يؤيد ويؤكد بأن حافظ إبراهيم لم يكن ذا خصوم وأعداء حتى يسهب في هجائهم، ومع ذلك فقد كثر فيه التصوير الهزلي البارع، والتهكم الموجه، والسخرية اللاذعة.

(١) هبلت: ثكلت.

(٢) الدارعون: اللابسون الدروع.

## ٩ - الإخوانيات:

كانت علاقة حافظ إبراهيم بغيره من أبناء شعبه وشعراء عصره علاقة أخوية حميمة، فهو على العموم أخ للجميع، محب للجميع، لا يضرهم إلا المحبة والمودة، قريب منهم عامتهم وخاصتهم، يشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، يشترك في قربهم وبعدهم، ويهتبل الفرص للقاءهم والحديث إليهم، وإن تعذر عليه ذلك، يبادر إلى التعبير عما يعايناه من حزن ووحدانية ووحشة جراء ذلك.

كانت تربطه بأثير الشعراء علاقة خاصة، فهذا هو يقول مهتئاً إياه بمناسبة الإنعام عليه بالمرتبة الأولى في العلم (من الكامل):

إن هناؤك بها فلست مهتئاً      إني عهدتك قبلها محسوداً  
قد كان قدرك لا يحذبهاه      وسعادة فغدا بها محدوداً<sup>(١)</sup>

بهذه الكلمات يهنئ صديقه الشاعر بهذه المناسبة، ويعتبر أن الوسام الذي أنعم به عليه لا يرقى إلى ما هو عليه شوقي من رفعة شأن وسمو مقام، بل إن هذا الوسام كان محداً لقدره ومكانته، ومثل هذا الكلام يدل دلالة واضحة على تواضعه ومحبة لشوقي.

لم يكن حافظ إبراهيم يملك من حطام الدنيا ما يحسد أو يغبط عليه، ومع ذلك فقد أحب الناس فأحبه، حتى أنهم أخذوا يسمون أبناءهم باسمه حباً واحتراماً وتيمناً.

يقول في قصيدة مداعبا (أمين تقي الدين) الأديب اللبناني المشهور لما أقدم على تسمية مولود له (حافظاً) تيمناً بحافظ إبراهيم (من السريع):

---

(١) النباهة: الألمعية والذكاء، أي أن المهنة أرفع من هذا الوسام.

كحافظ إبراهيم لكنه  
فلعنة الله على (حافظ)  
لعل أرض الشام تزهى به  
على بلاد النيل تلك التي  
(شوقي) و (مطران) و (صبري) ومن  
فيا وليدي كن غدا شاعرا  
فالذنب ذنبي وأنا المعتدي  
أجل خلقا منه في الظاهر  
إن لم يكن بالشاعر الماهر  
على بلاد الأدب الزاهر<sup>(١)</sup>  
تاهت بأصحاب الذكا النادر  
سميته في مطلعي الباهر  
وابداً بهجو الوالد الأمر  
هل يسلم الشاعر من شاعر

بهذه الكلمات يداعب حافظ إبراهيم الأديب اللبناني (أمين تقي الدين) والتي تبدو فيها روح الفكاهة واضحة جلية، وإن شابها شيء من التهجم والتطاول المحبين بين الأصدقاء ومع ذلك يأمل أن يكون للمولود المسمى (حافظ) شأن وشهرة في عالم الشعر، كما هي شهرة شوقي ومطران واسماعيل صبري ومن سماه في مطلع الباهر ويقصد نفسه، كما يأمل من المولود أن يبدأ بهجا أبيه إنباء منه إلى أن الهجاء غالبا ما ينتهي إلى المحبة والوئام.

ويقول في قصيدة بعث بها إلى صديقه الشاعر (داود عمون) وتغنى بها بجمال بلاد الشام ومفاتها (من المتقارب):

شجتنا مطالع أقمارها  
وبتنا نحن لتلك القصور  
فسالت نفوس لتذكّارها<sup>(٢)</sup>  
وأهل القصور وزوارها

(١) تزهى به: تفخر به وتختال.

(٢) شجتنا: أحزنتنا.

يعرب الشاعر عن شوقه وتذكره للديار التي يقيم فيها الشاعر (فؤاد عمون)، كما يعرب عن حنينه لتلك الديار وأهلها وزوارها.

ويقول فيها:

إذا نقطتها أكف الغمام	أرتك الدراري بأزهارها <sup>(١)</sup>
وإن طالعته ذكاء الصباح	أرتك اللجين بأنهارها <sup>(٢)</sup>
وإن هب فيها نسيم الأصيل	أتاك النسيم بأخبارها

بهذا التصوير الرائع يعرب الشاعر عن مشاهدته لتلك البلاد التي يتذكرها إذا أشرقت الشمس عليها، أو حنى الليل عليها.

لقد أجاد الشاعر الوصف لهاتيك القصور والمغاني، وقد ظهر ذلك من خلال إيراد الصور البيانية المتمثلة في قوله: أكف الغمام، أرتك الدراري بأزهارها، طالعته ذكاء الصباح، أرتك اللجين بأنهارها، أتاك النسيم بأخبارها، وكلها صور تجسد ما قصد إليه الشاعر من معان.

ويقول فيها:

(أداود) حسبك أن المعالي	تحسب دارك في دارها
وأن ضامئ هذا الوجود	تبوح إليك بأسرارها

(١) الدراري: الدر من الأحجار الكريمة.

(٢) ذكاء: اسم يطلق على الشمس، اللجين: الفضة.



وأنتك إما حللت الشام رأيناك جذوة أفكارها<sup>(١)</sup>

وإن كنت في مصر نعم النصير إذا ما أهابت بأنصارها<sup>(٢)</sup>

يخاطب حافظ إبراهيم صديقه (داود عمون) قائلاً له: يكفيك فخراً أن تحسب المعالي  
دارك في دارها، وإن ضمائر الوجود تفشي إليه أسرارها، كما أن الشاعر ينوه بدور صديقه سواء  
أكان في مصر أم في بلاد الشام.

لقد عمد حافظ في هذه الأبيات والأبيات السابقة إلى تجسيد وتشخيص المعاني، يبدو  
ذلك في الصور البيانية التي أوردها، فالمعاني تحسب وتفكر، والوجود له ضمائر تبوح  
بأسرارها، والأفكار لها جذوة ... وفي الوقت نفسه سادت فيها الألفاظ الشجية الحزينة كمثّل  
قوله: شجتنا، تبوح بأسرارها، جذوة أفكارها.

وفي أبيات قالها مجيباً (محمد المراوي) وكان صديقاً له، جاء الشاعر يوماً في زيارة، فكتب  
له أبياتاً من الشعر، فكان رد حافظ عليه (من مجزوء الرمل):

أنا في الجيزة ثاو ليس لي فيها أنيس<sup>(٣)</sup>

أنكر الإنس مكاني ونأى عني الجلّيس

ليس يدري من رأني أظليق أم حبّيس

---

(١) الجذوة: القبس من النار.

(٢) أهابت: دعت.

(٣) ثاو: مقيم.

كان حافظ إبراهيم في محلة الجيزة بالقرب من الأهرام في مدينة القاهرة، وفي هذه الأبيات يتحدث عن وحدته وعزلته، فلا أنيس ولا جليس، وكأنه ليس من جنس البشر، ولا يدري أهو طليق حر أم رهين حبس.

وقد جاءت هذه الأبيات حافلة بمعاني الحزن والوحشة، وذلك من خلال ألفاظها وتراكيبها كقوله: ليس لي فيها أنيس، أنكر الإنس مكاني، نأى عني الجليس، أطلق أم حبس. ويقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم سنة ١٩٢٧ تكريماً للأمير الشعراء (من الطويل): وهي تربو على ثمانية وتسعين بيتاً، يجتزئ منها الأبيات التالية:

نفاخر من (شوقيتنا) براعة	ونزداد فخراً من (علي) بمبضع <sup>(١)</sup>
فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه	وتلك شفاء الواله المتوجع <sup>(٢)</sup>
ومن كان في بيت الملوك ثواؤه	ينشأ على النعمى ويمرح ويرتع <sup>(٣)</sup>
لئن عجبوا أن شاب (شوقي) ولم يزل	فتي الهوى والقلب جم التمتع <sup>(٤)</sup>
لقد شاب من هول القوافي ووقعها	وإتيانه بالمعجز المتمنع

ينوه حافظ إبراهيم في هذه الإبيات بنمو شوقي وشاعريته وبراعته، كما ينوه بالطبيب الجراح (على إبراهيم باشا) ومهارته في الجراحة، فهذا يداوي الجروح وذاك يداوي العاشق المتيم.

(١) البراعة: القلم، المبضع: المقص في يد الجراح.

(٢) الواله: العاشق.

(٣) النعمى: النعمة والنعيم.

(٤) جم: كثير.

يبدو التصوير الرائع في هذه الأبيات من خلال الألفاظ والتراكيب التي استخدمها وذلك في قوله : فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه وتلك شفاء الواله المتوجع، شاب من هول القوا في ووقعها، إتيانه بالمعجز الممنوع، وفي ذلك إشارة إلى ما كان يبذله شوقي من جهد في سبيل تهذيب شعره والإبداع فيه .

ويقول فيها:

نفيت فلم تجزع ولم تك ضارعا	ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع
وأخصبت في المنفي وما كنت مجدبا	وفي النفي خصب العبقري السמידع <sup>(١)</sup>
أبى الله إلا أن يردك سالما	ومن يرعه يسلم ويغنم ويرجع

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن نفي شوقي إلى بلاد الأندلس، ويرى أن هذا النفي لم يكن ليفت في عزيمة شوقي أو يحذ من عبقريته وقريحته، فقد كان هذا النفي حافزا لشوقي بأن ينظم الكثير المبدع من الشعر، وقد شاءت حكمة الله أن يرده سالما إلى وطنه فقد كان جلت قدرته، راعيا وحافظا له، فعاد سالما غانما بعد هذا النفي.

استخدم الشاعر في هذه الأبيات الألفاظ الجزلة الدالة على أهمية شوقي وعظمته وتحمله لتبعات النفي، كما أورد فيها الصور البيانية كلاستعارة في قوله: ترمه الأيام، وأورد من فتون البديع الطباق في قوله أخصبت ومجدبا ....

ويقول فيها:

أمير القوافي قد أتيت مباعا	وهذي وفود الشعر بايعت معي
----------------------------	---------------------------

(١) السמידع: الشجاع الكريم.

يعلن الشاعر في هذا البيت طاعته ومبايعته لأحمد شوقي بإمارة الشعر، وليس هذا رأيه وحده، بل رأي جميع الشعراء الذين شاركوا في هذا الحفل فبايعوا شوقي بالإمارة.

وفي بيتين من الشعر قالهما في (محمد عبده البابلي) : (من الوافر)

يا بابلي إليك شوقي وعيني لازمت سكب الدموع<sup>(١)</sup>

ولو أني تركت سراح قلبي لطار إليك من قفص الضلوع<sup>(٢)</sup>

فحافظ إبراهيم في غاية الشوق لصديقه البابلي وشوقه إليه في تزايد مستمر، وعينه لا تفتأ تذرف الدموع لبعده عنه، ولو ترك لقلبه حرية الانطلاق والانفلات لانخلع من بين ضلوعه وطار إليه.

وألفاظ الشاعر هنا تحمل بين طياتها معاني اللوعة والحزن لبعد صديقه عنه، مثل قوله: عيني لازمت سكب الدموع، طار إليك من قفص الضلوع، ولا يخفى ما جاء فيها من عنصر المبالغة في التعبير عن الشوق لهذا الصديق .

ويقول بمناسبة سفر (أحمد شوقي) إلى مؤتمر المستشرقين (من مجزوء الكامل)

يا شاعر الشرق أتتد ماذا تحاول بعد ذاك<sup>(٣)</sup>

هذي النجوم نظمناها درر القريض وما كفاك<sup>(٤)</sup>

(١) نمى: ارتفع وزاد.

(٢) سراح القلب: انفلاته وانطلاقه.

(٣) أتتد: تمهل.

(٤) القريض: الشعر.

والبدر قد علمته	أدب المثلث قول إذا رآك
وسموت في أفق السعود	فكدت تعثر بالسماك <sup>(١)</sup>
وحباك عباس المحامد	بالمواهب واصطفاك <sup>(٢)</sup>
ودعتك مصر رسولها	للغرب مذ عرفت علاك
فارحل وعد بوديعة	الرحمن أنت وصاحبك

يشني حافظ إبراهيم على شوقي، أدبه، وشعره، وتفوقه، كما يهنئه بالمهمة التي كلفه بها الخديوي عباس، متمنيا له اليمن والخير والتوفيق، والعودة سالما غانما هو وصاحبه.

يلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر استخدم الصور البيانية الرائعة في مثل قوله: هذي النجوم نظمته درر القريض، والبدر قد علمته أدب المثلث إذا رآك، حباك عباس المحامد. كما راوح الشاعر بين الإنشاء والخبر كمثّل قوله: أتشد، فارحل وعد. هذي النجوم نظمته، والبدر قد علمته، وسموت في الأفق، وحباك عباس، ودعتك مصر رسولها.

ويقول في قصيدة يداعب بها صديقه (محمد عبده البابلي):

أدلال ذاك أم كسل	أم تناس منك أم ملل
أم غريق أنت في جذل	أم بكاسات الهنا ثمل <sup>(٣)</sup>

(١) السماك: اسم نجم.

(٢) حباك: أعطاك.

(٣) اصطفاك: اختارك.

أم وقاك الله - في كدر	أم على الأعذار متكل <sup>(١)</sup>
أم مشوق مغرم ولله	شفه التشبيب والغزل <sup>(٢)</sup>
أم عنني بات يشغله	ماله والكسب والأمل
أو وشى واش إليك بنا	فاحتواك الشك (يا بطل)

بهذه الكلمات الرقيقة العاتبة يداعب الشاعر صديقه (البابلي)، متسائلا عن سبب تناسيه أيام الصداقة والأخوة، فهل هو النسيان، أو الدلال، أو هو الغرق في الجذل، أو الانشغال بشرب كاسات الخمر، أو المعاناة من كدر العيش وضيقه، أو الشوق والغرام والعشق والتشبيب والغزل، أو الغنى والكسب والأمل، أو وشاية واش، فساورته الشكوك.

ويقول فيها:

قد مضى شهر وأعقبه	ضعفه والفكر مشتغل
لا كتاب منك يطفئ ما	في فؤادي بات يشتعل
لا ولا رد يعلنني	أو على التسليم يشتعل <sup>(٣)</sup>
يا صديقي لا مؤاخذه	أنت يابن البابلي .....

(١) الكدر: الحزن.

(٢) الوله: العاشق، شفه: أضناه وأسقمه، التشبيب: ضرب من الغزل المادي.

(٣) يعلنني: يشغلني ويسليني.



يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن طول انقطاع صديقه عنه، فهو مشغول الفكر، إذ لم تصله من صديقه رسالة تطفئ ما في قلبه من نار الفراق، ولم يكن منه مجرد رد يبين فيه سبب هذا الانقطاع، أو يبعث له سلاما يشتمله هذا الرد.

إن لغة الأسي والحزن لا تفارق حافز إبراهيم حتى وهو يداعب أصدقاءه، وهذا يبدو واضحا جليا في الألفاظ التي اشتملتها الأبيات، في مثل قوله: يطفئ ما فؤادي، يشتعل، رد يعللني....

ويقول في قصيدة يودع فيها صديقيه (محمد بدر) و (أحمد بدر) عندما سافرا إلى بريطانيا طلبا للعلم (من السريع):

سيرا أيا بدري سماء العلا	واسـتقبـلا الـتم ولا تـأفـلا <sup>(١)</sup>
سيرا إلى مهد العلوم التي	كانت لنا ثم ازدهاها البلى
سيرا إلى الأرض التي أنبتت	عزا وأضحت للملا موئلا <sup>(٢)</sup>
شعار أهلها وأبنائها	أن يعلم المرء وأن يعمل

يحث الشاعر في هذه الأبيات صديقيه المسافرين إلى بريطانيا على الاجتهاد في طلب العلم، وعلى تذكير الغرب بأن في مصر رجالا جديرين بتحصيل العلم، ويعرض في الوقت نفسه بالغرب الذي تشد إليه الرحال طلبا للعلم الذي كان يوما ما في بلاد العرب.

(١) التـم: أي تمام البدر واكتماله.

(٢) الملا: الناس .

يلاحظ تكرار الشاعر لفعل الأمر (سيرا) وذلك للتأكيد على أهمية العلم، والأمل المعقود على مثل هذين الصديقين الطالبين للعلم، ويبدو الشاعر في هذه الأبيات متأثراً ومتأسياً على ما كان عليه الشرق من تقدم في ميدان العلوم والفنون، وذلك، يظهر في مثل قوله: كانت لنا ثم ازدهاها البلى.

ويقول في قصيدة بعثها إلى صديقه (أحمد بدر) الطالب في كلية (أدنبره) بأسكتلندا (من مجزوء الكامل):

ملكت علي مذهبي	وعصاني الطبع السليم
وجفأ يراعي صاحبان	فلا النثير ولا النظيم
أشقى وأكتم شقوقتي	والله بي وبهما عليم
لا مـصر تنـصفني ولا	أنـا عن مودتها أريم
وإذا تحول بـأس	عن ربعها فأنا المقيم
فيها صـحبتك واصطفيتك	أيها الخـل الحميم

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن وحشته ووحدته وشقائه لابتعاد الإخوان عنه وتفرقهم في البلاد وهو مقيم أبداً في مصر لا يفارقها.

يبين حافظ إبراهيم في هذه الأبيات بأن ما لديه من مذاهب وسبل لم يعد يملكها، كما أن ما اعتاد عليه من طبع سليم لم يعد يطاوعه. كما أن قلمه قد جفأ صاحباه - النشر والشعر - وهو يعاني من الشقاء ما يعاني، ولكنه يكتمه والله وحده العليم بذلك، وهو يشكو من مصر التي لم تنصفه ومع هذا لا يستطيع التحول عن مودتها ومحبتها، وهو مقيم بها أبداً وإن تحول

غيره من البائسين عن حبها، ويذكر صديقه (أحمد بدر) بصحبته واختياره خلا حميها، وأنه باق على مودته له التي عرفها وخبرها عنه هذا الصديق.

لقد جاءت ألفاظ الشاعر في هذه الأبيات حافلة بمعاني الوحشة والوحدة والشقاء، يظهر هذا في قوله: ملكت علي مواهبي، عصاني الطبع السلم، جفا يراعي الصاحبان، أشقى وأكتم شقوتي.

ويقول فيها:

لله ذياك الجوار وذلك العيش الرخيم<sup>(١)</sup>  
بالجانب الغربي فوق النيل والدنيا نعيم  
أيام يعرفنا السرور بها وتكرنا الهموم  
أيام نلهو بالطباء وفي مسارحها نهم<sup>(٢)</sup>  
لا أنت تصغو للعدول ولا أبالي من يلوم<sup>(٣)</sup>

يستعرض الشاعر في هذه الأبيات أيامه الغابرة مع صديقه لما كانا معا في الجانب الغربي من القاهرة، حيث نعيم العيش والبهجة والسرور.

بهذه اللغة يتحدث الشاعر عن أيام الصفاء التي عاشها مع صديقه، كانت أيام سرور، لا تعرف الهموم، وكانت أيام لهو مع الحسان الفاتنات، لا يصغو فيها صديقه لعاذل ولا هو

---

(١) الرخيم: العذب اللين.

(٢) الطباء: كناية عن الحسان الفاتنات.

(٣) العدول: اللائم.

مكتثر بلائم، وقد استخدم الشاعر أسلوب التعجب، والحنين إلى الأيام الخوالي التي تنم عن الأسى والحزن.

ويقول في قصيدة بعثها من السودان إلى صديقه الحميم (محمد بيرم) سنة ١٩٠٠ (من الوافر):

أثرت بنا من الشوق القديم	وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيام كسوناها جمالاً	وأرقصنا لها فلک النعيم
ملأناها بنا حسنا فكانت	بجيد الدهر كالعقد التنظيم <sup>(١)</sup>
وفتيان مساميح عليهم	جلايب من الذوق السليم <sup>(٢)</sup>
دعوتهم إلى أنس فوافوا	موافاة الكريم إلى الكريم
وجاؤوا كالقطا وردت نميرا	على ظمأ وهبوا كالنسيم <sup>(٣)</sup>
وكان الليل يمرح في شباب	ويلهو (بالمجرة) والنجوم <sup>(٤)</sup>
فواصلنا كؤوس الراح حتى	بدت للعين أنوار الصريم <sup>(٥)</sup>

(١) جيد الدهر: عنقه، التنظيم: المنظوم المزين باللائم.

(٢) مساميح: أجواد، جلايب: أثواب.

(٣) نميرا: صفة لموصوف محذوف أي: ماء نميرا، القطا: ضرب من الحمام.

(٤) المجرة: البياض الذي يرى ليلا في السماء، ويضم ملايين النجوم.

(٥) الراح: الخمرة، والصريم: الفجر والصبح.

- وأعملنا بها رأي (ابن هاني) فألحقنا بأصحاب الرقيم<sup>(١)</sup>  
وظبي من بني مصر غرير شهى اللفظ ذي خد مشيم<sup>(٢)</sup>  
سققنا في منادمة حديثا نسينا عنده بنت الكروم<sup>(٣)</sup>

يتذكر الشاعر في هذه الأبيات أيامه الخوالي مع تلك الثلة من الأصحاب والأصدقاء، وفي مقدمتهم صديقه (محمد يرم)، ويالها من أيام: لهُو، جمال، طرب، خمرة، غزل....

بهذه اللغة يعرب الشاعر عما أثارت أيامه الغابرة مع صحبته من كوامن الذكرى والشوق إليها والحنين إلى عيشها الهاني، لقد كانت أيام لهُو ورقص وغناء وجمال واحتساء للخمرة، ألحقهم بأصحاب الكهف الذين لبثوا نائمين فيه بضع مئات السنين، وقد نهجوا فيها نهج أبي نواس شاعر الخمريات المعروف في العصر العباسي، وقد حفلت هذه الأبيات بالصور البيانية من استعارات وتشبيهات وإشارات تاريخية، ولا تخلو هذه الأبيات من الألفاظ التي تنم عما كان يعانيه الشاعر من فراغ وتأس على الأيام الغابرة مثل قوله: أثرت بنا الشوق، فواصلنا كؤوس الراح، فألحقنا بأصحاب الرقيم، نسينا عنده بنت الكروم...

ويقول في قصيدة بعثها أيضا من السودان إلى بعض إخوانه (من مشطور الرجز):

---

(١) ابن هاني: أبو نواس: الشاعر الحمري العباسي المشهور، أصحاب الرقيم: أهل الكهف الذين ضرب الله عليهم النعاس ثلاث مئة سنة وتسع.

(٢) الظبي: ولد الغزال، غرير: صغير السن.

(٣) بنت الكروم: كناية عن الخمرة التي تعصر من عنقايد الكرمة.

ممن واجد منفرد المنام<sup>(١)</sup>  
طريد دهر جائر الأحكام  
مشتت الشمل على الدوام  
ملازم للهـم والـسقام  
مابين بنت الحان والأنغام<sup>(٢)</sup>  
ومطرب من خيرة الأقوام  
أرق من شعر (أبي تمام)  
ياليـت شعري بعد هذا العام  
إلـيكم ترمي بي المرامي  
أم ينتـويـني رائد الحـمام<sup>(٣)</sup>  
فأنطوي في هذه الأكـمام<sup>(٤)</sup>

---

(١) الواجد: ذو الحب والحزن.

(٢) بنت الحان: كناية عن الخمرة.

(٣) الحمام: الموت.

(٤) الأكمام: الغضاب والروابي.



وتولم الضبع على عظامي<sup>(١)</sup>

فلإن أتى يومي وأودى لاممي<sup>(٢)</sup>

بـالله أدعوكم وبالإسلام

أن تذكروا نناظم ذا الكلام

إذا جلستم مجالسنا للجـام

وكان ساقيكـم من الأرام<sup>(٣)</sup>

في ليلة والبدر في تمام

في هذا الشعر يبعث الشاعر بتحياته وأشواقه إلى صحبه، وهو بعيد عنهم يقاسي الوحشة والوحدة في الغربة، مذكرا إياهم بالأيام الغابرة ومجالس الأُنس الماضية ومتلهفا لرؤيتهم، ومتمنيا الاجتماع بهم مرة أخرى، وطالبا إليهم أن يذكروه إذا ما جمعتهم مجالس الأُنس وكان الساقى من الحسنات الجميلات والبدر في ليلة تمامه واكتماله ...

بهذه اللغة يتشوق حافظ إلى مجالسة صحبه حين كانت تجمعهم أيام الأُنس ولياليه، ما بين الرقص والغناء ومقارعة كؤوس الخمر، وتبدو في ألفاظه وعباراته معاني الحزن في مثل قوله: من واجد منفر المنام، طريد دهر، ملازم للهم والسقام، مشئت الشمل، ينويني رائد

---

(١) تولم الضبع على عظامي: كناية عن موته وحيدا في البرية فتأني الضبع فتنهش لحمه.

(٢) لامه: شخصيته.

(٣) الأرام: الظباء.

الحمام، فأنتطوي وتولم الضبع على عظامي، وأودى لامي، كما أن هذه الأبيات اشتملت على كثير من الصور اليبانية من استعارات وتشبيهات وإشارات تاريخية، ونحن إذ نعذر الشاعر على هذا التعبير عن مشاعره تجاه صحبه والأيام الغابرة إلا أننا نشتم فيها رائحة المبالغة والتهويل.

ويقول في قصيدة يعتذر فيها إلى أمير الشعراء (أحمد شوقي) عن عدم حضوره حفل زفاف ابنته بسبب مرضه الطارئ:

يا سيدي وإمامي	ويا أديب الزمان
قد عاقني سوء حظي	عن حفلة المهرجان <sup>(١)</sup>
وكننت أول سماع	إلى رحاب (ابن هاني) <sup>(٢)</sup>
لكن مرضت لنحسي	في يوم ذاك القران <sup>(٣)</sup>
وقد كفاني عقابا	ما كان من حرمان
حرمت رؤية (شوقي)	ولثم تلك البنان <sup>(٤)</sup>

يعتذر الشاعر في هذه الأبيات إلى أحمد شوقي عن عدم حضور حفل زفاف ابنته، بسبب المرض الطارئ ما أفقده نعمة رؤية شوقي وتقيل يديه.

(١) عاقني: منعني، المهرجان: الحفل.

(٢) ابن هاني: اسم دار أمير الشعراء أسماها كرمة ابن هاني تيمنا بأبي نواس الشاعر العبّاسي.

(٣) القران: الزواج.

(٤) البنان: طرف الأصبع.

بهذا التواضع الجم يخاطب حافظ (شوقي) معتبرا إياه سيده وإمامه وأديب زمانه، وقد عاقه سوء حظه عن حضور ذلك الحفل، ولكن مرضه لسوء حظه كان سببا عن عدم حضوره، وإلا كان أول من يتشرف برؤية شوقي في هذا الحفل، وكان حرمانه عقابا كافيا له.

ولغة الشاعر في هذه الأبيات حفلت بألفاظ وعبارات الاحترام والتعظيم لأمير الشعراء كما اتسمت بالأسى والحزن والأسف، يظهر هذا في قوله: يا سيدي وإمامي، حرمت رؤية شوقي، ولثم تلك البنان، وقد عاقني سوء حظي، مرضت لنحسي، كفاني عقابا ما كان من حرمانني .... وقد تنوعت لغة الأبيات ما بين الإنشاء والخبر .....

ويقول فيها:

فاصفح فأنت خليق	بالصفح عن كل جاني <sup>(١)</sup>
وعش لعرش المعاني	ودم لتاج البيبان
إن فـاتني أن أوفي	بالأمس حق التهاني
فاقبله مني قضاء	وكن كريم الجنان <sup>(٢)</sup>
والله يقبل منأ الصلاة	بعدم الأوان <sup>(٣)</sup>

يطلب الشاعر من شوقي الصفع واعداء إياه بتقديم واجب التهاني في وقت لاحق، وبأمل أن يقبل عذره، داعيا له بأن يبقى متربعا على عرش المعاني، ومتوجا بالبلاغة والبيان.

(١) خليق: جدير.

(٢) الجنان: القلب.

(٣) الأوان: الزمان.

تضمنت الأبيات السابقة لغة الالتباس والاعتذار، والدعاء للشاعر أحمد شوقي بدوام الإبداع في عالم المعاني والبيان، وقد راوح فيها بين الإنشاء والخبر....

ويقول في قصيدة في الدكتور (محجوب ثابت) عندما كانا ضيفين على (سعد زغلول) (من البسيط):

يرغي ويزبد بالقافات تحسبها	قصف المدافع في أفق البساتين
من كل قاف كأن الله صورها	من مارج النار تصوير الشياطين <sup>(١)</sup>
قد خصه الله بالقافات يعلكها	واختص سبحانه بالكاف والنون <sup>(٢)</sup>
يغيب عنه الحجا حينا ويحضره	حينا فيخلط مختلا بموزون
لا يأمن السامع المسكين وثبته	من (كردفان) إلى أعلى فلسطين
بيننا تراه ينادي الناس في (حلب)	إذا به يتحدى القوم في (الصين)
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل	لكنها عبقریات الأساطين <sup>(٣)</sup>

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى كثرة استخدام (محجوب) حرف القاف، مما يسبب ازعاجا تمججه الأذن، وهو كثيرا ما يخلط في كلامه وليس ذلك بسبب طيش ولا خبل، ولكن هذا هو شأن عبقریات الأساطين فمرة يثور وأخرى يهدأ.

(١) الذي خلق من مارج من نار: هو الشيطان الرجيم. المارج: النار.

(٢) قوله بالكاف والنون إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى للشيء (كن) فيكون، الحجا: العقل، كردفان: اسم بلدة بالسودان.

(٣) الخبل: الجنون، الأساطين: المشهورون من الأعلام ذوي الذكر والشهرة.

بهذا التصوير الرائع يصف حافظ (محجوب ثابت) حين ينطق بالقاف مستخدماً إيهاها في كلامه، وقد أكثر الشاعر في هذه الأبيات من الصور البيانية المتمثلة في الاستعارات والتشبيهات والاقتراس غير المباشر من القرآن الكريم، في مثل قوله: يرغى ويزيد، تحسبها قصف المدافع، كأن الله صورها من مارج النار، خصه الله بالقافات يعلكها، واختص سبحانه وتعالى بالكاف والنون.

ويقول فيها:

يبست ينسج أحلاماً مذهباً	تغني تفاسيرها عن (ابن سيرين) <sup>(١)</sup>
طورا وزيرا مشاعا في وزارته	يصرف الأمر في كل الدواوين
وتارة زوج عطبول خدلجة	حسناء تملك آلاف الفدادين <sup>(٢)</sup>
يعفى من المهر إكراما للحيته	وما أظلمته من دنيا ومن دين <sup>(٣)</sup>

يحدثنا الشاعر في هذه الأبيات عن آمنيات (محجوب) فتارة يحلم أن يكون وزيرا، وأخرى أن يتزوج من فتاة حسناء غنية كثيرة المال والأموال، وهذه أحلام مستحيلة بعيدة المنال، وأحلامه وأمانيه التي لا تنتهي تفسيرها يغني عن الحاجة لتفاسير (ابن سيرين) المشهورة في المنامات.

(١) ابن سيرين: هو محمد بن سيرين، اشتهر بتفسير المنامات، وله كتاب في هذا العلم يعزى إليه.

(٢) العطبول الخدلجة من النساء: من كانت طويلة العنق بضة اللحم، ناعمة.

(٣) المهر: صداق الزوجة.

استخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة ساخرة عابثة، تخللتها الصور البيانية والإشارات التاريخية والدينية كما ظهر فيها التعريض (بمحبوب) يظهر هذا في قوله: يبيت ينسج أحلاما مذهبة، تغنى عنها تفاسير (ابن سرين)، يعفى من المهر إكراما للحيته، ما أطلته من دنيا ودين....

وقد أورد الشاعر ذلك باستخدام الجمل الخبرية، كما تبدو في أسلوب الشاعر المعاني التي يكتنفها الحزن لهذا الصديق الذي يبدو لأول وهلة أنه غير سوي ولكن هذا هو شأن العباقرة حسب رأي الشاعر.

ويقول في قصيدة بعث بها إلى (أحمد شوقي) وهو في منفاه في بلاد الأندلس (من البسيط):

عجبت للنيل يدري أن بلبله	صاد ويسقي ربا مصر ويسقينا <sup>(١)</sup>
والله ما طاب للأصحاب مورده	ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه	وقد نأينا وإن كنا مقيميننا

يعجب الشاعر أن بلبل وادي النيل المغرد (أي أحمد شوقي) يعاني من العطش الشديد في الوقت الذي يسقي فيه ربا مصر والمصريين، ولكن رغم ذلك فإن من يرده من الأصحاب لا يطيب له مأواه، ولا يرتضي من العيش لنا في غياب شوقي عنه، وينفى الشاعر بعد شوقي عن النيل رغم مفارقه لشاطئه، ويقول فكثيرا ما بعدنا ولكن كنا مقيمين.

(١) البلب: المقصود أحمد شوقي، صاد: عطشان.



تظهر في هذه الأبيات لغة الوجد والحزن على بعد شوقي عن وادي النيل، فالأصحاب لا يهنأ لهم عيش ولا يطيب لهم ماء وشوقي بعيد عنه، وهذا يظهر في استخدام الألفاظ: عجبنا للنيل أن يبلله صاد، ما طاب للأصحاب مورده، وإن فارقت شاطئه، وقد نأينا وإن كنا مقيمين.

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني باستخدام الجمل الخبرية التي تخللها القسم.

### ١٠ - الشاكيات والعائبات:

كان حافظ سيء الطابع، عاثر الحظ، ضاربا في الآفاق، باحثا عن خل يضافيه، وصديق يواسيه، متألما من دنياه، حطت رحال الحزن والأسى والشكوى في أشعاره، فعبر عما يعاينه أصدق تعبير وأروع تصوير، فهي هو يقول شاكيا (من البحر البسيط):

ماذا أصبت من الأسفار والنصب      وطيك العمر بين الوخد والخب<sup>(١)</sup>

نراك تطلب لاهونا ولا كثبا      ولا نرى لك من مال ولا نشب<sup>(٢)</sup>

يجرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه متسائلا بحسرة عما توصل إليه، وعما حققه بعد طول أسفار وتعب وترحال، وإضاعة العمر في التجوال في البلاد، فهو لا ينفك طالبا حياة كريمة ولكن لا يملك مالا ولا نشبا.

جاءت لغة هذين البيتين حافلة بالأسى والحسرة، تمثلت في تساؤله: ماذا أصبت من الأسفار والنصب، طيك العمر بين الوخد والخب، ولا نرى لك من مال ولا نشب.

(١) النصب: التعب، الوخد والخب: ضربان من سير الخيل.

(٢) كثبا: قريبا، النشب: المال وغيره.

ويقول فيها:

لا تطعماني أنياب الملام على      هذا العثار فإني مهبط العجب  
وددت لو طرحوا بي يوم جئتهم      في مسبح الحوت أو في مسرح العطب<sup>(١)</sup>  
لعل (ماني) لاقى ما أكابده      فود تعجيلنا من عالم الشجب  
إني احتسبت شبابا بت أنفقه      وعزمة شابت الدنيا ولم تشب<sup>(٢)</sup>

يخاطب الشاعر شخصين متخيلين جريا على عادة القدماء طالبا إليهما أن يخففا في لومه على فشله في تحقيق المال والمجد، لأنه يعد نفسه مهبطا للعجائب المتمثلة في سوء الطالع، ويتمنى لو أنهم يوم ولادته ألقوه في بحر الأسماك والحيتان أو في مواطن الهلاك للتعجيل في موته، ويعد ما كابده في حياته يعادل ما لاقاه (ماني) القائل بمبدأي الخير والشر - من تعب ومشقة.

تنم لغة الشاعر في هذه الأبيات عما يعانيه الشاعر من الحسرة واللوعة وتبدو فيها الصور البيانية من استعارات وتشبيهات وكنيات وإشارات تاريخية تمتثلت في قوله: أنياب الملام، فإني مهبط العجب، في مسبح الحوت أو في مسرح العطب، لعل (ماني) لاقى ما أكابده، شبابا بت أنفقه، وعزمة شابت الدنيا ولم تشب، وقد تنوع أسلوبه ما بين الإنشاء والخبر والرجاء...

ويقول فيها:

(١) مسبح الحوت: كناية عن البحر.

(٢) ماني: مؤسس مذهب المانوية، قال بمبدأي الخير والشر، والنور والظلام، أكابده: أعانيه، أقاسيه، عالم الشجب: كناية عن الدنيا.

- كم همت في اليد والآرام قائلة<sup>(١)</sup> والشمس ترمي أديم الأرض باللهب<sup>(٢)</sup>  
وكم لبست الدجى والترب ناعسة<sup>(٣)</sup> والليل أهدأ من جأشي لدى النوب<sup>(٤)</sup>  
والنجم يعجب من أمري ويحسبني<sup>(٥)</sup> لدى السرى ثامنا للسبعة الشهب<sup>(٦)</sup>  
لكنني غير مجدود وما فتئت<sup>(٧)</sup> يد المقادير تقصيني عن الأرب<sup>(٨)</sup>

يتحدث حافظ إبراهيم عن حياته التي قضاها ضارباً في البلاد، وسراه في الليل وسيره في البوادي والفلوات، سعياً وراء المجد لكن للأسف، ولحظة التعس لم يحقق ما كان يصبو إليه.

كلمات هذه الأبيات تعبر عما كان يقاسيه الشاعر من تطواف وتجوّال والليل يلفه بظلامه وسكونه، ونجومه تعجب من أمره وتحسبه أصبح ثامناً للشهب السبعة، ومع كل هذا السعي كان تعيس الحظ، بددت المقادير آماله وأقصت ما كان يطمح للوصول إليه، وفد جاء التصوير لهذه المعاني من خلال إيراد الصور البيانية من استعارات وتشبيهات تمثلت في مثل قوله: كم لبست الدجى والترب ناعسة، النجم يعجب من أمري، يحسبني لدى السرى ثامناً للسبعة الشهب، ما فتئت يد المقادير تقصيني عن الأرب، والكناية في قوله: السبعة الشهب. ويقول فيها:

وقد غدوت وآمالي مطرحة وفي أموري ما للضب في الذنب

(١) اليد: جمع يداء، الصحارى والفلوات، الآرام: الظباء، وقائلة: مستسلمة للقليلة وهي النوم ظهراً.

(٢) الدجى: الليل، الجأش: القلب، النوب: المصائب.

(٣) السبعة الشهب: كناية عن الكواكب السبعة: عطارد فالزهرة ....

(٤) مجدود: محظوظ، ذو جد أي حظ.

فإن تكن نسبتي للشرق مانعتي  
حظاً فواها لمجد الترك والعرب  
وقاضيات لهم كانت إذا اخترطت<sup>(١)</sup>  
تدثر الغرب في ثوب من الرهب  
وجمرة لهم في الشرق ما همدت  
ولا علاها رماد الختل والكذب<sup>(٢)</sup>  
يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن فشله في تحقيق ما يصبو إليه، لا لشيء، إلا لأنه  
شرقي، والشرق يعاني من تخلف ونكوص، لكنه في الوقت نفسه ينوء بما كان الشرق عليه من  
عز وتقدم وفخار، زمن حكم الأتراك والعرب الذي بسطوا نفوذهم على بلاد الغرب في زمن  
من الأزمان.

بهذه اللغة يصف الشاعر حياته، فأماله تبددت وأموره تعقدت كتعقد ذنب الضب الذي  
يضرب به المثل فليل: أعقد من ذنب ضب، جاء ذلك من خلال الألفاظ التي استخدمها  
كقوله: وآمال مطرحة، وفي أموري ما للضب في الذنب، تدثر الغرب في ثوب من الرهب،  
وجمرة لهم في الشرق ما همدت، ولا علاها الختل والكذب.... إضافة إلى الصور البيانية التي  
وردت في الأبيات كالاستعار في قوله: تدثر الغرب في ثوب من الرهب ولا علاها رماد الختل  
والكذب.

ويقول فيها:

متى أرى (النيل) لا تحلو موارده  
لغير مرتهب لله مرتقب  
فقد غدت (مصر) في حال إذا ذكرت  
جادت جفوني لها باللولؤ الرطب<sup>(٣)</sup>

(١) القاضيات: السيوف، اخترطت: سلت.

(٢) الختل: الخداع.

(٣) اللؤلؤ الرطب: كناية عن ذرف الدموع السخية.

إذا نطقت ففاع السجن متكأً      وإن سكت فإن النفس لم تطب  
أيشتكى الفقر غاديننا ورائحنا      ونحن نمشي على أرض من الذهب  
والقوم في (مصر) كالإسفنج قد ظفرت      بالماء لم يتركوا ضرعاً لمحتلب<sup>(١)</sup>  
(يا آل عثمان) ما هذا الجفاء لنا      ونحن في الله إخوان وفي الكتب  
تركتمونا لأقوام تخالفنا      في الدين والفضل والأخلاق والأدب

يتألم الشاعر ويتحسر على مصر وما آلت إليه حالها من سوء وتقدير، إنه يتلهف لعودة النيل إل صفائه، وإلى أجواء الحرية التي عرف بها وادي النيل، إنه يتألم إن سكت عن الحق وقول الحقيقة، كما يتألم إذا نطق بالحق، فالسجن عقابه، كما يتألم لفقر المصريين ومعاناتهم الشديدة، ثم نراه يلوم العثمانيين على تركهم المصريين ليكونوا لقمة سائغة في فم المستعمر الغاصب الجشع، ويذكر أن المصريين تجمعهم بآل عثمان روابط الأخوة في الله والفرآن الكريم، في حين يرى المستعمر المحتل يخالف المصريين ديناً وفضلاً وأخلاقاً وأدباً.

وقد جاءت لغة الشاعر حافلة بالألفاظ التي تعبر عن معاني الحزن والآسى والألم والقهر كقوله: جادت جفوني لها بالؤلؤ الرطب، أيشتكى الفقر غاديننا ورائحنا، لم يتركوا ضرعاً لمحتلب، يا آل عثمان، ما هذا الجفاء، تركتمونا لأقوام تخالفنا.. إضافة إلى ما جاء في هذه الأبيات من الصور البيانية المتمثلة في الاستعارات والتشبيهات كقوله: جادت جفوني لها بالؤلؤ الرطب، القوم في مصر كالإسفنج ظفرت بالماء، لم يتركوا ضرعاً لمحتلب، السجن

(١) الضرع: الثدي.

متكأ، وقد راوح الشاعر في تعبيراته ما بين الإنشاء والخبر فمن استفهام إلى تقرير ومن ثم إلى استفهام ومن ثم إلى نداء فتقرير، وكذلك الكناية في قوله: جادت جفوني لها بالؤلؤ الرطب.

ويقول في قصيدة قالها في السوادن شاكيا ألم الفراق واللوعة (من الوافر):

رमित بها على هذا التباب	وما أوردتها غير السراب <sup>(١)</sup>
وما حملتها إلا شقاء	تقاضيني به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسي وقبلي	عليك جنى أبي فدعي عتابي
فلولا أنهم وأدوا بياني	بلغت بك المنى وشفيت ما بي <sup>(٢)</sup>

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عما يعانيه من مشاعر المرارة والوجدان، ويقر برمي نفسه في الهلاك، وتمنياتها بالأمان السرابية، وتحميلها الشقاء، وستقاضيه على عمله هذا يوم الحساب والعقاب، ويعترف بأنه جنى على نفسه، كما جنى عليه أبوه قبل ذلك عندما مات وتركه يواجه قدره، ويعود ليذكر أنه كان يالامكان أن يحقق ما يصبو إليه لو وجد من يقدر أشعاره.

لقد جاءت لغة الشاعر في هذه الأبيات طافحة بمشاعر المرارة واللوعة، فألفاظها تفصح عن ذلك كقوله: رमित بها على هذا التباب، ما أوردتها غير السراب، ما حملتها إلا شقاء، تقاضيني يوم الحساب، جنيت عليك يا نفسي، جنى علي أبي، وأدوا بياني، كما تظهر فيها الصور البيانية كقوله: تقاضيني يوم الحساب، فلولا وأدوا بياني، وفي البيت الثالث إشارة

(١) التباب: الهلاك والأذى.

(٢) الإملاق: الفقر.



خفية وذكية، إلى أبي العلاء المعري الشاعر الضريع، الذي أوصى أن يكتب على قبره عبارة: ((هذا جناه علي أبي وما جنيت علي أحد)).

ويقول فيها:

سعت وكم سعى قبلي أديب	فاب بخيبة بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلي	دما ووسادتي وجه التراب <sup>(١)</sup>
وحى صيرتني الشمس عبدا	صبيغا بعدما دبغت إهابي <sup>(٢)</sup>
وحى قلم الإملاق ظفري	وحى حطم المقدار نابي <sup>(٣)</sup>

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن خيبته وفشله في الوصول إلى ما يريد، شاكيا الفقر والخذلان، فقد جد واجتهد في سعيه كما سعى كثير من الأدباء قبله، إلا أنه عاد بعد طول اغتراب يجر أذيال الخيبة والفشل، بعدما اتخذ دمه نعلا وتوسد وجه التراب، وبعدهما تغيرت سحته وصبغت الشمس بالسواد جلده، وبعدهما قلم الفقر أظفاره وحطم القدر أنيابه.

بهذه اللغة الحزينة الشاكية يعرب الشاعر عن نفسيته المحطمة وخاطره المكسور يظهر ذلك من خلال ألفاظها كقوله: سعت وكم سعى قبلي أديب، آب بخيبة، كان نعلي دما، وسادتي وجه التراب، صيرتني الشمس عبدا، دبغت إهابي، قلم الإملاق ظفري، حطم المقدار نابي، وهذه الألفاظ والعبارات حافلة بالصور البيانية ولا سيما الاستعارات، وتجسيد

(١) أعذر: لم يدرك مأربه.

(٢) صبيغا مصبوغا، الإهاب: الجلد.

(٣) الإملاق: الفقر.

المعنوي وإظهاره في صورة المادي المحسوس كقوله: قلم الإملاق ظفري، حطم المقدار نابي، وفي البيت الأول من هذه الأبيات كأني بالشاعر وهو يشير إلى مقوله ((إن الإنسان إن أصبح أدبيا فقد أدركته مهنة الفقر)) وكأنه ينظر إلى قول الشاعر:

خلق الشاعر والبؤس معا      فهما خلان لم يفترقا  
ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه الأبيات شابهها عنصر المبالغة التي تبدو بالنسبة للشاعر طبيعية، بينما يحسبها عليه الآخرون نوعا من التصوير غير الصادق، ولكن نقول للشاعر عذره، فلا يعرف البؤس إلا من يكابده.

ويقول في بيتين قالهما في (محمد الشيمي) المحامي الذي عمل عنده الشاعر في بداية حياته (من البسيط):

جراب حظي قد أفرغته طمعا      بباب أستاذنا (الشيمي) ولا عجا<sup>(١)</sup>  
فعاد لي وهو مملوء فقلت له:      مما؟ فقال من الحسرات وأحربا<sup>(٢)</sup>

يشكو الشاعر في هذين البيتين حظه العاثر، ويبث فيهما همومه وأحزانه، ويغمز فيهما من قناة الشيمي، ويعاتبه على ما كان عنده من الوعود الكاذبة، والآمال الضائعة.

فها هو قد أفرغ جراب حظه طمعا بباب أستاذه (الشيمي)، ولا غرابة في ذلك، لكن هذا الجراب عاد خالي الوفاض مملوءا بالحسرات والوبال...

(١) الجراب: الوعاء.

(٢) وأحربا: وأهلاكا ووبالا، كلمة تأوه.

ولقد استخدم الشاعر فيهما لغة حملت معاني الخيبة واللوعة، وأبدع في تصوير حاله مع المحامي (الشيمي) يبدو ذلك في جعله للحظ جرابا ووعاء، وعودته إليه وهو مملوء بالحسرات والتأوهات.

ويقول في قصيدة يخاطب فيها (آدم) عليه السلام (من الوافر):

سليل الطين كم نلنا شقاء	وكم خطت أناملنا ضريحا <sup>(١)</sup>
وكم أزرنا بنا الأيام حتى	فدت بالكبش (إسحاق) الذبيحا <sup>(٢)</sup>
وباعت (يوسفا) بيع الموالي	وألقت في يد القوم (المسيحا) <sup>(٣)</sup>
ويا (نوحا) جنيت على البرايا	ولم تمنحهم الود الصحيحا <sup>(٤)</sup>
علام حملتهم في الفلك هلا	تركتهم فكنت لهم مريحا <sup>(٥)</sup>
أصاب رفاقي القدح المعلى	وصادف سهمي القدح المنيح <sup>(٦)</sup>
فلو ساق القضاء إلي نفعاً	لقام أخوه معترضا شحيحا

(١) الضريح: القبر.

(٢) إسحق: هو ابن إبراهيم الخليل الذي أمره الله سبحانه أن يذبحه تحقيقا للرؤيا، وقيل هو إسمايل لا إسحق، وكلاهما من أم.

(٣) يوسف: هو يوسف بن يعقوب، وكان إخوته قد كادوا له وباعوه بدراهم معدودة.

(٤) إشارة إلى نوح النبي وحمله معه الأصفياء وإلى إغراق الآخرين بالطوفان.

(٥) الفلك: السفينة.

(٦) القدح المعلى: الفائز من السهام بخلاف المنيح.

يخاطب الشاعر آدم (أبا البشر) عليه السلام شاكيا له شقاه وعذابه، وعذاب بني جنسه من البشر، فكم من قبور حفرتها أصابعهم لمواراة رفات موتاهم، وكم استهانت بهم الأيام فافتدوها، بالغالي والنفيس، وباعوا يوسف بثمان بخس دراهم معدودة، ثم يخاطب نوحا عليه السلام منحيا عليه باللائمة وبجنايته على الخلق حين حمل معه الأصفياء وإلى ترك الآخرين يغرقون بالطوفان، متمنيا عليه لو ترك الجميع يغرقون لتنتهي الحياة.

ثم نراه يندب حظه، عندما يرى رفاقه يفوزون (بالقدح المعلى) أي بالسهم الفائز. ويكون نصيبه السهم الخاسر (المنيح)، ثم نراه يندب حظه، فلو صادف أن حالفه القضاء والقدر بنفع لسارع الشر والضرر على الاعتراض عليه بخلا وشحا.

بهذه اللغة يشكو آدم، ويعرب عن شقائه وعذابه مستخدما الألفاظ التي تتسرب منها معاني الحزن واللوعة والحسرة كقوله: كم نلنا شقاء، وكم خطت أناملنا ضريحا، وكم أذرت بنا الأيام، فدت بالكبش (إسحق) الذبيحا، وباعت يوسف بيع الموالي، هلا تركتهم فكنت لهم مريحا، صادف سهمي القدح المنيحا.. كما حفلت لغته بالكنائيات كقوله: سليل الطين كناية عن آدم الذي خلقه الله سبحانه - من طين، وكما تضمنت الإشارات التاريخية والدينية كقوله: فدت بالكبش (إسحق) الذبيحا، وباعت يوسف بيع الموالي، فضلا عن إيراده عادة العرب في رمي القداح (القدح المعلى الفائز، والقدح المنيح الخاسر).

ويقول في بيتين من الشعر (من البسيط):

يا ساهد النجم هل للصبح من خبر      إني أراك على شيء من الضجر

أظن ليلك مذ طال المقام به كالقوم في مصر، لا ينوي على سفر<sup>(١)</sup>  
يعرب الشاعر في هذين البيتين عن همومه وطول ليله الذي أثقل عليه وطأته، ولا ينوي  
الرحيل لئبزع الفجر ويشع النور، وكأنه الإنجليز الذين أطالوا الإقامة في مصر ولا ينوون  
الرحيل عنها.

فحافظ إبراهيم مهموم مغموم يساهر النجوم، وقد هرب النوم من عينيه، وطال ليله ولا  
يلوح في الأفق ما يومئ إلى زواله وانتهائه، وقد استخدم لغة غلفت ألفاظها بمعاني الحزن  
والشكوى، كقوله: يا ساهر النجم، أراك على شيء من الضجر، مذ طال المقام، مكنيا بذلك  
عن الإنجليز، الذين طالت إقامتهم في مصر.

ويقول في قصيدة يشكو فيها الوحشة والوحدة والأسى وهجر الحبيب:

ما لهذا النجم في السحر	قد سها من شدة السهر
خلته يا قوم يؤنسني	إن جفاني مؤنس السحر
يا القومي إنني رجل	أفنت الأيام مصطبري <sup>(٢)</sup>
أسهرتني الحادثات وقد	نام حتى هاتف الشجر <sup>(٣)</sup>
والدجى يخطو على مهل	خطوذي عز وذي خفر <sup>(٤)</sup>

(١) المقصود بالقوم الإنجليز.

(٢) المصطبر: الصبر، مصدر ميمي.

(٣) هاتف الشجر: كناية عن الطير.

(٤) الخفر: الحياء، سها: غاب وغفل، جفاني: هجرني.

فيه شخص اليأس عانقني	كحبيب آب من سفر <sup>(١)</sup>
وأثارت بي فوادحه	كامنات الهم والكدر <sup>(٢)</sup>
وكان الليل أقسم لا	ينقضي أو ينقضي عمري
أيها الزنجي مالك لم	تحش فينا خالق البشر <sup>(٣)</sup>
لي حبيب هاجر وله	صورة من أبدع الصور
أتلاشى في محبته	كتلاشي الظل في القمر <sup>(٤)</sup>

يشكو الشاعر في هذه الأبيات طول ليله الذي أثقل عليه بكلا كله، وجعله يعيش ساهرا يعاني من الوحشة والوحدة، في الوقت الذي كان يأمل فيه أن يؤنسه هذا الليل إذا ما افتقد جليسه، وقد ضاق الشاعر ذرعا من حياته التعسة، فصبر حتى أفنت الأيام صبره، وأقضت المصائب والهموم مضجعه، فجفاه النوم بعد أن خلد الكل إلى الراحة وحتى طيور الشجر انقطعت عن تغريدها وقد غالبها النعاس فنامت هي أيضا، ويضيف والحال أن هذا الليل البهيم لا يشعر بما يعانيه فيها هو يسير بطيئا يمشي الهويني وكأنه فتاة تسير مختالة بعزها وحياتها ... وفي هذا الليل احتضنه اليأس بحرارة وكأنه يلتقي حبيبا عاد من سفره بعد غياب واغتراب، ولقد آلمته مصائب هذا الليل فأثارت فيه كوامن الهم والكدر، وكأنه أقسم ألا ينتهي إلا بانتهاء أجله (أي أجل الشاعر)، ثم يخاطب الليل بسواده مستهجنا عدم خشيته من

(١) آب: عاد.

(٢) الفوادح: الخطوب والأرزاء.

(٣) الزنجي: الأسود كناية عن الليل.

(٤) أتلاشى: أذوب.



خالق البشر، ثم يذكر حبيباً هاجراً إذا إطلالة بديعة جميلة يكاد يتلاشى في محبته كتلاشي الظل في القمر.

بهذه اللغة عبر الشاعر عن همومه شاكياً الوحدة والأسى، وقد ظهرت في ألفاظها كقوله: جفاني مؤنس السحر، أفنت الأيام مصطبري، أسهرتني الحادثات، الدجى يخطو على مهل، شخص اليأس عانقني، أثارت بي فواححه كامنات الهم والكدر، ينقضي عمري، لي حبيب هاجر، أتلاشى في محبته، هذا بالإضافة إلى استخدام الصور البيانية، وتجسيده للمعاني التي أظهرها في صورة المادي، والكناية في قوله: أيها الزنجي، مكنيا عن سواد الليل وظلمته.

ويقول في قصيدة يشكو فيها من شدة المرض وجفاء الإخوان والأصدقاء:

مرضنا فما عادنا عائد	ولا قيل: أين الفتى الألمي <sup>(١)</sup>
لاحن طرس إلى كاتب	ولا خف لفظ على مسمع <sup>(٢)</sup>
سكتنا فعز علينا السكوت	وهان الكلام على المدعي
فيادولة آذنت بالزوال	رجعنا لعهد الهوى فارجمي
ولا تحسبنا سلونا النسب	وبين الضلوع فؤاد يعي <sup>(٣)</sup>

يتألم الشاعر مما يعانيه من أمراض، فلا يزوره زائر، ولم يسأل أحد عن هذا الفتى الذكي، ولم يستلم رسالة تواسيه أو يسمع لفظاً رقيقاً يخف على سمعه، فأثر السكوت فعز عليه، وهان

(١) العائد: زائر المريض في مرضه، الألمي: الذكي.

(٢) الطرس: الورق.

(٣) أجذبت: أقفرت، الحجا والنهي: العقل.

الكلام على المدعي، ثم نراه يتذكر أيام الصبا واللها، معلنا الرجوع إليها، طالبا إليها ألا تظن بأنه قد سلا الغزل الرقيق طالما بين ضلوعه قلب يحس ويدرك.

لغة الحزن ظاهرة في هذه الأبيات كقوله: مرضنا، ما عادنا عائد، سكتنا، فيا دولة آذنت بالزوال.

ويقول في بيتين يحتج فيهما على فصل (طه حسين) عن منصب عمادة الآداب في الجامعة المصرية سنة، ١٩٣٠، ومادحاه (من السريع):

قد أجذبت دار الحجا والنهى      بعدك من آرائك النافعه<sup>(١)</sup>  
وأخصبت أرجاء مصر بمن      صير مصر كلها جامعاه  
فأرض مصر لم تجذب وحسب، بل أجذب معها الحجا والعقول، بعد فصل طه حسين صاحب الآراء والأفكار النافعة، والذي كان سببا في خصوبة أرض مصر حين عمم التعليم فوصلت مصر إلى ما وصلت إليه من تقدم وتطور حتى أصبحت مصر كلها جامعة.  
والتصوير والتجسيد باد في قوله أجذبت دار الحجا والنهى، والمطابقة بين أجذبت وأخصبت ظاهرة في البيت الثاني.

ويقول في أبيات يعبر فيها عن معاناته في الليل وما ينزل في ساحته من هموم وأحزان (من الطويل):

أقضيهِ في الأشواق إلا أقله      بطيء سرى أبدي إلى اللبث ميله<sup>(٢)</sup>

(١) الحجا والنهى: العقل.

(٢) السرى: سير الليل، اللبث: المكث.

وليس اشتياقي عن غرام بشادن  
ولكنه شوق امرئ فات أهله<sup>(١)</sup>  
فيا لك من ليل أعرت نجومه  
توقد أنفاسي وعانيت مثله  
ومل كلانا من أخيه وهكذا  
إذا طال عهد المرء بالشيء مله  
هكذا يمضي الشاعر ليله مشتاقا مهموما محزوناً، فهذا الليل بطيء السير يميل إلى الثبات لا يتحرك، واشتياقه ليس ناتجاً عن غرامه بظبي غريب، ولكنه شوق امرئ فات أهله، وقد أعار أنفاسه المتوقدة إلى هذا الليل، فعاني ما عاناه، ولكن صحبتها طالت، فاعترأها الملل؛ لأن ملازمة الإنسان لشيء ما ينتهي به إلى الملل منه.

وتبدو في الأبيات الألفاظ الحاملة للهموم وذلك في مثل قوله: بطيء سرى، أقضيه في الأشواق، شوق امرئ فات أهله، فيا لك من ليل أعرت نجومه، توقد أنفاسي، مل كلانا من أخيه، إذا طال عهد المرء بالشيء مله، كما تبدو فيها الصور البيانية في مثل قوله: أعرت نجومه توقد أنفاسي.

ومن باكورة شعره يقول شاكياً (من الطويل):

سعت إلى أن كدت انتعل الدما  
وعدت وما أعقبت إلا التندما  
لحى الله عهد القاسطين الذي به  
تهدم من بنياننا ما تهدما<sup>(٢)</sup>  
إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم  
فلاتك مصر يا ولا تك مسلماً  
سلام على الدنيا سلام مودع  
راى في ظلام القبر أنسا ومغنا

(١) الشادن: الظبي الغريب.

(٢) لحى: لعن وقبح، القاسطون: الظالمون.

أضرت به الأولى فهام بأختها<sup>(١)</sup> فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما<sup>(٢)</sup>  
فهبي رياح الموت نكبا وأطفئي<sup>(٣)</sup> سراج حياتي قبل أن يتحطما<sup>(٤)</sup>  
فما عصمتني من زماني فضائي<sup>(٥)</sup> ولكن رأيت الموت للحر أعصما<sup>(٦)</sup>

يشكو الشاعر في هذه الأبيات العسف والظلم، وعدم مخالفته التوفيق في مسعاه رغم جده وعمله، ويشعر الشاعر باليأس والإحباط، فهو يتمنى الموت، لأن فيه الراحة والكرامة، وقد عبر الشاعر عن هذا الإحساس في لغة حملت ألفاظها معاني الحزن والأسى، كمثل قوله: كدت انتعل الدماء، ما أعقبت إلا التندما، سلام مودع، رأى في ظلام القبر أنسا ومغنا، أضرت به الأولى، إن ساءت الأخرى فويلاه منهما، فهبي رياح الموت، وأطفئي سراج حياتي، رأيت الموت للحر أعصما، ناهيك عن الصور البيانية والفنون البديعية التي احتوتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى<sup>(١)</sup> فإنك بعد اليوم لن تتألما<sup>(٢)</sup>  
ويا عين قد آن الجمود لمدمعي<sup>(٣)</sup> فلا سيل دمع تسكين ولادما<sup>(٤)</sup>  
ويا يد ما كلفتك البسط مرة<sup>(٥)</sup> لذي منة أولى الجميل وأنعمما<sup>(٦)</sup>

(١) هام: أولع.

(٢) نكبا: هوجا.

(٣) أعصما: أكثر عصمة وحفظا.

(٤) تجزع: تخفف، تيأس، عضك الأسى، ساءك الحزن.

(٥) ذو المنة: من يعطي متشوقا.

فلله ما أحلاك في أنمل البلى وإن كنت أحلى في الطروس وأكرما<sup>(١)</sup>  
ويا قدمي ما سرت بي لمذلة ولم ترتقي إلا إلى العز سلما  
فلا تبطني سيرا إلى الموت وأعلمي بأن كريم القوم من مات مكرما  
يخاطب الشاعر في هذه الأبيات جوارحه متألما فيطلب من قلبه الأأسى وأن يتصف  
بالصبر والثبات على الشدائد، ويطلب من عينه الكف عن البكاء، ومن يده التحلي بالعفة  
والعزة وعدم الاستعطاء، ومن قدمه الاتصاف بالأنفة وعدم السعي به في مذلة أو هوان.

هكذا صاغ الشاعر هذه المعاني في لغة ترتفع عن السطحية، وتدنو من العمق والتصوير  
المبدع، جاء ذلك من خلال ألفاظها الموحية بتموجات الحزن والحسرة، وفي الوقت نفسه تنأى  
عن مهاوي السقوط، والوقوع في أحضان المنّة والتفضل والتعالي.

ويقول فيها:

ويا نفس كم جشمتك الصبر والرضا وجشمتني أن ألبس المجد معلما<sup>(٢)</sup>  
ويا قبر لا تبخل برد تحية على صاحب أوفى علينا وسلما  
وهيهات يأتي الحي للميت زائرا فإني رأيت الود في الحي أسقما  
ويأيمها النجم الذي طال سهده قد أخذت منه السرى أين يمما<sup>(٣)</sup>

(١) البلى: الفناء، الطروس: الورق والصحف.

(٢) جشمتك: حملتك، معلما: فيه علامات.

(٣) يمما: قصد، سهده: عدم نومه، السرى: السير ليلا، الأين: التعب.

لعلك لا تنسى عهود منادم      تعلم منك السهد والأين كلما<sup>(١)</sup>

يخاطب الشاعر نفسه في هذه الأبيات طالبا إليها التحلي بالصبر، كما يطلب من القبر ألا يبخل برد التحية على صاحب مر به وألقى عليه السلام، ولكن الشاعر يستبعد أن يزور الحي الميت، فقد علمته الحياة أن الود لدى الحي للميت من سهده أينما سار واتجه، ويطلب من هذا النجم الحفاظ على ما بينهما من عهود السهد، فقد تعلم منه الكثير في هذا المنحى..

حديث الشاعر لنفسه وطلبه إليها بالتجمل والصبر، ولقبره بالتكرم بتحية زائره، وللنجم بحفظ وداد الصحبة والسهد، جاء مصوغا بألفاظ وعبارات تفتقت عنها هذه المعاني، التي يدركها المتأمل والمتذوق لجمالها والمتفهم لمراميها.

ويقول قي بيتين:

يامن خلقت الدمع لطفًا      منك بالباكي الحزين  
بارك لعبدك في الدموع      فإنهم انعم المعين  
يتضرع الشاعر إلى خالق الدمع بأن يلطف بالباكي الحزين وأن يبارك له في الدموع التي يذرفها فهي خير معين، وبلسم شاف للحزاني والبائسين أمثاله...

تجتمع في هذين البيتين ضروب الهموم من بكاء ودموع وحزن تراقق الذين عبست لهم الحياة، وبخلت عليهم بابتسامتها.

ويقول في قصيدة شاكية واجدا (من المتقارب):

---

(١) وكلما: يتبعها كلام لم يقله الشاعر لكنه يفهم معناه من الكلام الذي قبله.



نعمن بنفسي وأشقيتني  
خلال نزلن بخصب النفوس  
فياليتهان ويا ليتني  
فرويينهن وأظمأنني<sup>(١)</sup>  
تعودن مني إباء الكريم  
وصبر الحلیم وتیه الغني<sup>(٢)</sup>  
وعودتهن نزال الخطوب  
فما يتثنين وما أنثني<sup>(٣)</sup>  
يشكو الشاعر في هذه الأبيات تحمله الفضيلة، وتعوده الصبر على البلاء، فهو دوما في صراع مع أهواء النفس.

ويقول فيها:

فما زلت أمرح في قدھن  
إلى أن تولى زمان الشباب  
ويمرحن مني بروض جنی<sup>(٤)</sup>  
وأوشك عودي أن ينحني  
يصور الشاعر في هذين البيتين صراع الفضيلة وهوى النفس، فالخرب بينهما سجال، ولا تزال مستمرة، والحال أن زمان الشباب انتهى وولى واقترب عوده من الانحناء والانقصام.  
ويقول فيها:

فيا نفس إن كنت لا توقنين  
فهذي الفضيلة سجن النفوس  
بمعقود أمرك فاستيقني  
وأنت الجديرة أن تسجني

(١) الخلال: الصفات الحسنة.

(٢) التيه: الكبر.

(٣) نزال: عراك.

(٤) أمرح: أهو وألعب، وجني: غني بالثمار والغلال.

فلا تسأليني متى تنقضي ليالي الإِسار؟ ولا تحزني<sup>(١)</sup>

يبين الشاعر أن الفضيلة سجن لمن يتمسك بها، ولا يدري متى يكون إطلاق سراحه من هذا السجن، طالبا إليها ألا تحزن عليه عندما يفك أسره.

لقد جاءت أبيات هذه القصيدة مجسدة لشكوى الشاعر ووجدانه، وقد نطقت ألفاظها بما يقاسيه من هم وغم كقوله: استيقني، نزال الخطوب، تولى زمان الشباب، أوشك عودي أن ينحني، الفضيلة سجن النفوس، ليالي الإِسار، لا تحزني، وكان الشاعر بارعا في تصويرها باستخدامه الصور البيانية من استعارات وتشابيه.

ويقول في أبيات من بواكير شعره شاكيا الدهر وتقلب الزمان (من البسيط):

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا	إلا بقية دمع في مآقينا <sup>(٢)</sup>
كنا قلادة جيد الدهر فانقرطت	وفي يمين العلا كنا رياحينا <sup>(٣)</sup>
كانت منازلنا في العز شاخحة	لا تشرق الشمس إلا في مغانينا <sup>(٤)</sup>
وكان أقصى منى نهر (المجرة) لو	من مائه مزجت أقداح ساقينا <sup>(٥)</sup>
والشهب لو أنها كانت مسخرة	لرجم من كان يبدو من أعادينا <sup>(٦)</sup>

(١) الإِسار: الحبس والسجن.

(٢) مآقينا: عيوننا.

(٣) القلادة: العقد.

(٤) مغانينا: منازلنا.

(٥) المجرة: البياض المعترض في السماء ليلا وهو يضم ملايين النجوم.

(٦) الرجم: الضرب.

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات متحسرا على ذهاب العز الذي كانوا فيه، وتنكر الزمان لهم بعد عز وفخار. فلم يبق شيء في أيديهم غير بقية دموع في العيون، بعد أن كانوا قلادة تزين عنق الزمان، ورياحين في سماء العلا، وبعد أن كانت منازلهم تشع بالعز، ولا تشرق الشمس إلا في مغانيهم.

لقد أورد الشاعر هذه المعاني في لغة اتسمت ألفاظها وعباراتها بالتحسر والحزن على عز ذاهب، وفخار آفل. وظهر فيها التصوير المتمثل في إيراد الظواهر الطبيعية التي تبين ما قصد إليه من معان كذكره لنهر المجرة والشهب المسخرة لرجم الأعداء، وكأنه يشير إلى قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهَا رِجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾

ويقول فيها:

فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا شزرا وتخدعنا الدنيا وتلهينا<sup>(١)</sup>

حتى غدونا ولا جاء ولا نشب ولا صديق ولا خل يواسينا<sup>(٢)</sup>

لا يزال الشاعر يتحدث عن تقلب الدهر وغدره، فيؤكد في هذين البيتين ما ذهب إليه من معان في الأبيات السابقة، فصروف الزمان ونوائبه لا تنفك تنظر إليهم شزرا، والدنيا تخدعهم بحطامها وتلهيهم بعرضها، ولا حظ أو نصيب لهم منها، إلى أن أصبحوا لا جاء ولا مال ولا صديق يعزيهم في مصابهم.

(١) شزرا: بغضب.

(٢) يواسينا: يعزيينا.

ويقول في قصيدة عندما مر بالبلد الذي أقام فيه حيناً من الدهر ثم تركه ثم عاد إليه (من البسيط):

كم مري فيك عيش لست أذكره	ومري فيك عيش لست أنساه
ودعت فيك بقايا ما علقت به	من الشباب وما ودعت ذكره
أهفو إليه على ما أفرحت كبدي	من التباريح أولاه وأخراه <sup>(١)</sup>
لبسته ودموع العين طيعة	والنفس جياشة والقلب أواه <sup>(٢)</sup>
فكان عوني على وجد أكابده	ومر عيش على العلات ألقاه <sup>(٣)</sup>
إن خان ودي صديق كنت أصحبه	أو خان عهدي حبيب كنت أهواه

يذكر الشاعر في هذه الأبيات أياماً غابرة عاشها في تلك الديار حيث كان الشباب والمرح، وحيث حلاوة العيش ومرارته، ويحن إليها، على ما فيها من جروح وقروح أصابت كبده وآلام عانها، وعيش كابده، ودموع طيعة ذرفها، ونفس جياشة حملها، وقلب مكلوم مغموم حواه.

بهذه اللغة يعرب الشاعر عن أيامه الغابرة في تلك المراحل، مستخدماً الألفاظ والتركيب التي تحمل الحنين والحزن، فتمثلت في قوله: فيك عيش لست أذكره، فيك عيش لست أنساه، ودعت فيك بقية ما علقت به من الشباب، أهفو إليه على ما أفرحت كبدي من التباريح،

(١) أهفو: أميل، أفرحت: أصابت بالقروح والجروح، التباريح: الآلام.

(٢) أواه: متألم مغموم، جياشة: مضطربة.

(٣) أكابده: أعانيه.

لبسته ودموع العين طيعة، النفس جياشة، القلب أواه ... وجد أكابده، ومر عيش على العلات ألقاها.. إضافة إلى ما ورد فيها من الصور البيانية التي تبرز في الاستعارات.

ويقول فيها:

قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به	والهفتي ونضوب الشيب أغلاه <sup>(١)</sup>
كم روح الدمع عن قلبي وكم غسلت	منه السوابق حزنا في حناياه
لم أدر ما يده حتى ترشفه	فم المشيب على رغمي فأفناه

يذكر الشاعر في هذه الأبيات مواقف عاشها في تلك المراحل، حيث كان الدمع ممزوجا بالشباب فكيف الآن وهو في مرحلة المشيب، ويتحسر على أن الشيب قد جعل دمه غاليا عزيزا، ولا يدري كيف تم للمشيب هذه الهيمنة حتى أتى على كل ما لديه من دموع.

تفيض لغة الشاعر في هذه الأبيات بالحزن واللوعة والحسرة التي جسدها الصور البيانية والفنون البديعية تمثلت فيما أورده فيها من استعارات ومطابقة وتجسيد للمعاني وإظهارها في صورة المادي.

ويقول فيها:

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش	حرا فقي الأسر ذل كنت تأباه
فقلت ياليتيه دامت صرامته	ما كان أرفقه عندي وأحناءه
بدلت منه ب قيد لست أفلتته	وكيف أفلت قيدا صاغه الله

(١) الغناء: الإقامة.

أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا أما المشيب ففي الأموات أسراه<sup>(١)</sup>  
يرد الشاعر في هذه الأبيات على أولئك الذين يغطوته على العزوبية والتحرر من أسر  
الحسنات، لأن في أسرهن ذلاً ياباه ويرفضه، ويتمنى لو دامت صرامة ذلك الأسر وقسوته،  
فقد كان أكثر رفقا وحنانا به من العبودية الحقبة التي هو فيها حاليا، فقد تبدل القيد بالنساء  
الذي شرعه الله، بقيد لا يستطيع الإفلات والانعقاد منه، حيث الوحدة والوحشة  
والعزلة.... ويقول إن أسرى الحب أحياء وإن شقوا وتعبوا، أما مرحلة المشيب ففي الأموات  
أسراه.

بهذه اللغة الحوارية يعرب الشاعر عن موقفه من الزواج والعزوبية، ويرى فيه تفضيله  
قيد الزواج وأسرته على ما هو عليه الآن من حال لا يحسد عليها.  
ويقول في قصيدة معاتبا ثلة من أصحابه (من المتقارب):

تناءيت عنكم فحلت عرا <sup>(٢)</sup>	وضاعت عهد على ما أرى <sup>(٢)</sup>
وأصبح جبل اتصالي بكم	كخيط الغزاة بعد النوى <sup>(٣)</sup>
وقد زال ما كان من ألفة	وود زوال شهاب الدجى <sup>(٤)</sup>
كأن بقاء الوفا بينكم	ويني بقاء حباب الحيا <sup>(٥)</sup>

(١) الصبابة: شدة الشوق والعشق.

(٢) العرا: الرابطة بين طرفين.

(٣) الغزاة: الشمس، النوى: البعد.

(٤) شهاب الدجى: كناية عن النجم.

(٥) الحيا: المطر، وحياه ما يرى فيه أو عليه من فقاعات.



يشكو الشاعر في هذه الأبيات انفرط عقد الصلابة والوفاء، لما ابتعد عن أصحابه. وقد عبر عن هذه المعاني بتجسيدها في صور بيانية، حين جعل للصلابة عرا تحل، والعهود تضيق، وحبل الوصال كشعاع الشمس عند المغيب، والألفة والود يزولان كزوال نجوم الليل، وبقاء الوفاء بينه وبين أصحابه كبقاء فقاعات المطر لا نفع فيها.

ويقول فيها:

سكنت إليكم ولم تسكنوا	إلى وقد كنت نعم الفتى <sup>(١)</sup>
ونفسي فريقان: هذا به	مزجت الوفاء، وذاك الندى <sup>(٢)</sup>
أصبتم تراثا وأهاكم التكائر	عنا فسر العدا <sup>(٣)</sup>
ومن كان ينسيه إثراؤه	صديق الخصاصة لا يصطفى <sup>(٤)</sup>

في هذه الأبيات ينحي الشاعر باللائمة على أصحابه الذين تفرقوا عنه، لقد أخلص لهم في صداقته وكان نعم الصديق الذي يحمل بين جنبه نفسا عرفت بالوفاء والجود ويرى أن هؤلاء الأصحاب أصابوا مالا أهاهم الاتجار فيه، مما جعل الأعداء يشمتون بهذه الصداقة التي كانت رياء وكذبا؛ لأن الصديق الذي ينسيه ثراؤه فقر وحاجة أصدقائه لا يستحق اتخاذ صفياء وصديقا، وقد جاءت لغة الشاعر في هذه الأبيات شاكية ولائمة، صاغها بألفاظ تنطق بالألم والأسف على مثل تلك الصداقة التي لم يكتب لها البقاء والاستمرار؛ لأنها كانت قائمة

(١) سكنت إليكم: أخلصت إليكم في مودتي.

(٢) الندى: الجود والكرم.

(٣) التراث: المال.

(٤) الخصاصة: الفقر والحاجة.

على الكذب والرياء.. وقد بدا ذلك في قوله: سكنت إليكم ولم تسكنوا إلي، أصبتم تراثا،  
ألهاكم التكاثر، فسر العدا، من ينسيه إتراؤه، صديق الخصاصة لا يصطفى.. إضافة إلى وجود  
الصور البيانية كقوله: مزجت الوفاء وذاك الندى، من كان ينسيه إتراؤه....

## ١١ - المترجمات:

كان حافظ إبراهيم عصاميا لا عظاميا، لم ينل حظه الطبيعي من الدراسة المنتظمة، لكنه  
درس على نفسه واستطاع بجهوده الخاصة واعتماده على ذاته أن يتقن بثقافة أخرى غير لغته  
الأم، فقد تعلم اللغة الفرنسية وأجادها، وترجم عنها، ومعروف عنه أنه ترجم (كتاب  
البؤساء) لفكتوريا هيجو الأديب الفرنسي إلى اللغة العربية، كما ورد في ديوانه أبيات شعرية  
مترجمة عن الفرنسية.

يقول في بيتين مترجمين (لجان جاك رسو) الشاعر والأديب الفرنسي المشهور (من  
السريع):

يا أيها الحب امتزج بالحشا	فلإن في الحب حياة النفوس <sup>(١)</sup>
واسلل حياة من يمين الردى	أوشك يدعوها ظلام الرموس <sup>(٢)</sup>

هذان البيتان المترجمان يعكسان ما كان يعانيه الشاعر من تباير الحب وهو في شرح  
الشباب وميعة الصبا، يطلب الشاعر الفرنسي من الحب أن يغزو أحشاءه لأن النفوس تحيا  
بالحب، ويطلب منه أن يستل الحياة من يمين الموت الذي أوشك أن يودعها ظلام القبور.

(١) الحشا: الأحشاء، الجوف.

(٢) الردى: الموت، الرموس: القبور، جمع رمس.

ويقول في بيت مترجم من شعر (فولتير) الأديب الشاعر الفرنسي الشهير (من الخفيف):

لا أبالي أذى العدو فحطني أنت يارب من ولاء الصديق  
لا يكثرث الشاعر بأذى العدو؛ لأنه يعرف حقيقته في إعلان عداوته له، فيأخذ حذره  
منه، ولكنه يضرع إلى الرب سبحانه - بأن يحفظه من ولاء الصديق الذي قد يظهر خلاف ما  
يخفي، وكأنه ينظر في هذا البيت إلى قول القائل ((اللهم احفظني من أصدقائي، أما أعدائي  
فأنا كفيل بهم)).

ويقول في بيتين من الشعر مترجمين عن (جان جاك روسو) وهما من شعر الغزل (من  
السريع):

تمثلي إن شئت في منظر أوفابعثي قلبا إلى أضلع  
(يا جوليا) أنكر فيه الغرام راح به الوجد وأودى السقام<sup>(١)</sup>

في هذين البيتين يناشد الشاعر (جوليا) أن لا تظهر بصورتها المشهورة الجميلة المنظر لثلا  
تثير فيه كوامن الوجد واللوعة والهيام.

ويبدو الشاعر هنا ملثما واجدا من شدة الحب ومعاناته، وتظهر فيها براعة التصوير  
حين يطلب من (جوليا) أن تعيد قلبه الذي أسرته إلى أضلعه فقد براه وأهلكه السقام.

ويقول في أبيات ثلاثة ترجمها عن (جان جاك روسو) وهي من شعر الغزل (من  
السريع):

---

(١) الوجد: لوعة الحب.

غضي جفون السحر أو فارحي متيما يخشى نزال الجفون<sup>(١)</sup>  
ولا تصولي بالقوام الذي تميس فيه يا مناي المنون<sup>(٢)</sup>  
إني لأدري منك معنى الهوى (يا جوليا) والناس لا يعرفون<sup>(٣)</sup>

في هذه الأبيات يطلب الشاعر من حبيبته (جوليا) أن تغض من سحر جفونها، وترحم عاشقا ولهانا معنى يخاف من سهام الجفون وعراكها، كما يطلب منها ألا تستخدم قوامها الممشوق تتهادى وتتجامل به خوفا عليها من ريب المنون، والأبيات تفيض بالعاطفة الجياشة والإحساس المرهف للحبيبة (جوليا) وتنطق بها يعانيه من وطأة الحب وشدته على قلبه.

ويجدر بالذكر هنا أن ما حواه ديوان حافظ من القصائد المترجمة يكاد ينحصر في غرض الغزل .. ولعل السر في ذلك أن هؤلاء الشعراء الفرنسيين غزا الحب قلوبهم فكان بوحهم به في مجتمعهم المتحرر من القيود الاجتماعية.

## ١٢ - المراثيات: (محصورة في رثاء زعماء مصر ورجالها من الأحرار والوطنيين وقادتها

الإصلاحيين وعلمائها المشهورين وأبنائها المخلصين):

قيل: الوفاء في الرثاء، فكان حافظ إبراهيم حاملا لواء هذا الشعار، فقد رثى فوفى، واجترع كأس الحزن وارتوى ممن رثاهم بعاطفته الصادقة وإحساسه المخلص ... وهو القائل:

(١) غضي: كفي عن النظر، المتيم: العاشق الولهان، تزال الجفون: حربها وعراكها.

(٢) لا تصولي: لا تبرزي. تميس: تميل.

(٣) جوليا: حبيبة الشاعر.

إذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدت شعر المراثي نصف ديواني  
فالشجا يبعث على الشجا والآسى يثير الآسى، هكذا كان حافظ مع إنسان مصر،  
ونستعرض في هذا السياق طائفة من قصائده في الرثاء مكتفين باجتزاء أبيات منها تفي بمراد  
هذه الدراسة.

يقول في رثاء (سليمان أباطة باشا) ناظر المعارف المتوفي سنة ١٨٩٧ (من الكامل):

لا، والآسى وتلهب الأحشاء	مابات بعدك معجب بوفاء
أنى حللت أرى عليك مأتما	فلمن أوجه فيك حسن عزائي؟
لبنيك أم لذويك أم للكون أم	للدهر أم لجماعة الجوزاء <sup>(١)</sup>
أودى (سليمان) فأودى بعده	حسن الوفاء وبهجة العلياء <sup>(٢)</sup>

في هذه الأبيات يعبر الشاعر عن أساء وحزنه لفقد هذا الزعيم الوطني الكبير، وهو  
حائر في عزائه، ومن يعزي بنيه، أم ذويه أم الدهر كله، أم الجوزاء بعشرات نجومها؟ فالمآتم  
تقام أينما حل الشاعر، فبموته، أودى الوفاء الحسن، وذهبت بهجة السماء.

بهذه اللغة الحزينة الأليمة يعرب الشاعر عن حزنه لفقد هذا الرجل العظيم، فألفاظها  
تفيض بهذا المعنى، فالأحشاء متلهبة، والمآتم منتشرة في كل مكان تبكيه بحسرة ولوعة،  
وبرحيله رحل معه حسن الوفاء وبهجة السماء... ولعل الشاعر يبدو مبالغاً على طريقة  
الأقدمين في تصوير الفجعة والآسى، فكأن الوفاء والسرور ما كانا إلا لما كان المراثي، ونحن

(١) الجوزاء: اسم كوكبة في السماء عدتها بضع عشرات من النجوم.

(٢) أودى: قضى نحبه.

نقول بدورنا هذا خيال شاعر له عواطفه ومشاعره الخاصة، فالذي يعاني من ألسنة النيران  
ليس كمن ينظر إليها عن بعد !!

ويقول فيها:

ما حملت من منة وعطاء	لا تحمّلوه على الرقاب فقد كفى
يسري به للروضة الفيحاء <sup>(١)</sup>	وذروا على نهر المدامع نعشه
مذ لا مسته لأورقت للرائي <sup>(٢)</sup>	تالله لو علمت به أعواده
كالزهر، أو كالخمر أو كالماء	خلق كضوء البدر، أو كالروض أو
من عفة، وسباحة، وإباء	ومحمد نسجت له أكفانه
قلنا مناقب صاحب الإسرائ <sup>(٣)</sup>	ومناقب لولا المهابة والتقوى

في هذه الأبيات يخاطب الشاعر المشيعين للراحل طالبا إليهم ألا يحملوه على رقابهم؛ لأن  
هذه الرقاب مثقلة بما تحمله من عطاياه ونواله، ومتمنيا عليهم لو يحمل نعشه على نهر المدامع  
أسى وحزنا عليه، ليسرى به إلى جنان الخلد، ويقسم الشاعر أن أعواد هذا النعش لو كانت  
تملك الإحساس به لبدت لناظرها مورقة خضراء، ومن ثم يعدد الشاعر مناقب الفقيد،  
فخلقه كالبدري ضيائه، أو كالروض في اخضراره، أو كالزهر في إيناعه، أو كالخمر في نشوته،  
أو كالماء في صفائه.

(١) الفيحاء: الواسعة، الروضة: الجنة، ذروا: اتركوا ودعوا.

(٢) الأعواد: المقصود بها عيدان النعش وخشبه.

(٣) صاحب الإسرائ: هو النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسرى به الله سبحانه من المسجد الحرام إلى  
المسجد الأقصى.



بهذه اللغة التي بالغ وأفرط فيها في التعبير عن الفجیعة... يبدو ذلك واضحا كل الوضوح، وبخاصة حين جعل محامد الفقید تنسج أكفانه، وخيوطها عفة وسماحة وإباء، وحين جعل مناقب الفقید لولا مهابته وتقواه، هي مناقب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ونقول هنا لعل للشاعر عذره وحجته في مبالغته هذه.

ويقول فيها:

عطلت فن الشعر بعدك وانطوى	أجل القريض وموسم الشعراء <sup>(١)</sup>
واللؤلؤ استعصى علينا نظمته	بسموط مدح أو سموط هناء <sup>(٢)</sup>
إلا على طرف بكاك وشاعر	أحيا عليك مرائي الخنساء <sup>(٣)</sup>
شوقتنا للترب بعدك واشتهى	فيه الإقامة واحد العذراء <sup>(٤)</sup>
ثبت فؤادك يا قليل صبري	واشرح (لال أباظة) برحائي <sup>(٥)</sup>
في جنة الفردوس بات عزيزهم	ضيفا بساحة أكرم الكرماء

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الفراغ الذي تركه الفقید وراءه فالشعراء بعد وفاته لن تجد من تمدحه وتقرضه وتثني عليه، وكلمات الشعر استعصت على ناظميها، ولم يقدرُوا على نظمها مدحا وهناء، لكنه يستثنى من ذلك ما يبقى للشعر مجده وخلوده، وهو فن الرثاء،

(١) القريض: الشعر.

(٢) سموط الشعر: قصائده، جمع سمط وهو السلك الذي ينظم فيه اللؤلؤ.

(٣) الخنساء: هي تماضر بنت عمرو الشاعرة الجاهلية المشهورة برثاء أخويها.

(٤) واحد العذراء: هو عيسى المسيح عليه السلام ابن مريم العذراء.

(٥) البرحاء: الحزن.

رثاء هذا الرجل العظيم، والبكاء عليه، وهذا ما فعله الشاعر، ويذكر بيبكاء الخنساء الشاعرة الجاهلية على أخويها، ورثائها إياهما وهو من أجمل الرثاء وأصدق عاطفة وأغزره شعرا. ويسترسل الشاعر في حديثه، فيتذكر أنه غدا مشتاقا لتراب القبر بعد هذا الفقيد، كما أن السيد المسيح ابن مريم العذراء الحي فينا ليتشوق إلى أن يموت فيدفن في التراب الذي احتضن جثمان الراحل..

بهذه اللغة المبالغ فيها يتحدث الشاعر عن هول الفجعة بالمصاب الجلل، بالراحل الكبير (سليمان أباطة باشا)، وألفاظها تطفح بمعاني الحزن والأسى، والحسرة، كمثل قوله: عطلت فن الشعر، انطوى أجل القريض، اللؤلؤ استعصى علينا نظمه، طرف بكاك، وشاعر أحيأ عليك مرثي الخنساء، شوقتنا للتراب، انتهى فيه الإقامة واحد العذراء، وشرح لآل أباطة برحائي، كما استخدم الشاعر بعضا من الصور البيانية، كالاستعارة والكنية، فضلا عن إيراد الإشارات التاريخية والدينية.

وفي قصيدة قالها واقفا على ضريح (سعيد) ابن أخت سعد زغلول، يقول (من مجزء الكامل):

ما أنت أول كوكب	في الغرب أدركه المغيب
فهناك أقمار المشرق	قد أتيج لها الغروب
داس الحام عرين خالك	وهو مرهوب مهيب
يا (سعد) كيف قضى (سعيد)	وهو من (سعد) قريب؟
عجبا أحمي أمة	وتخاف جانبك الخطوب
ويغال ضيفك وابن أختك	وهو عن (مصر) غريب؟

وإذا بكى (سعد) بكت	لبكائه منا القلوب
يا (آل زغلول) ذوى	من روضكم غصن رطيب
إني لأخجل أن أعزيكم	وكلكم أريـب
خطب الكنانة في فقيدكم	لخطبكم يـشيب
لم يبق منا واحد	إلا له منه نصيب

يذكر الشاعر وفاة (سعيد) غريبا بعيدا عن وطنه، فهو ليس أول كوكب أدركه الموت في بلاد الغرب، ثم يخاطب (سعد زغلول) - خال المتوفى - وهو في منفاه، متعجبا من احترام الموت ل (سعيد) وهو قريب منه وفي ضيافته، وهو من هو، رهبة ورفعة ولقد بكت قلوب المصريين لبكاء سعد وحزنه على ابن أخته (سعيد)، ثم يخاطب (آل زغلول) معزيا بوفاة ابنهم (سعيد) وهو لا يزال غض الإهاب وفي عز الشباب والشاعر يشعر بالخجل من تعزيتهم، وهم من هم من المهارة والحدق والخبرة، وإن مصابهم هو مصاب المصريين، أبناء أرض الكنانة، شابت منه رؤوسهم وكان لكل واحد منهم نصيب في الحزن على الفقيـد.

بهذه اللغة الحزينة الباكية يعرب الشاعر عن أساء وأسى المصريين في مصابهم بوفاة (سعيد) ابن أخت (سعد زغلول) الزعيم الوطني المصري، وقد استخدم فيها أسلوب التعجب والدهشة والانفعال يبدو ذلك في قوله: ما أنت أول كوكب في الغرب أدركه المغيب، يا (سعد) كيف قضى سعيد؟ عجباً أتحمى أمة، ويغال ضيفك وهو عن مصر غريب، إذا بكى (سعد)، بكت لبكائه القلوب، ذوى من روضكم غصن رطيب، خطب الكنانة، لم يبق منا واحد إلا له منه نصيب، إضافة إلى ما تضمنها من صور بيانية تمثلت في الاستعارات

والتشبيهات والكنائية، ولا يغيب عنا مبالغة الشاعر في التعبير عن حزنه، فهذا شأن يخصه، ولنا تعليق عليه وعلى غيره فيما بعد.

وقال في قصيدة يرثي (علي يوسف) صاحب جريدة المؤيد سنة ١٩١٣ (من البسيط):

صونوا يراع (علي) في متاحفكم	وشاوروه لدى الأرزاء والنوب <sup>(١)</sup>
واستلهموه إذا ما الرأي أخطأكم	يوم النضال عن الأوطان والنشب <sup>(٢)</sup>
قد كان سلوة (مصر) في مكارهها	وكان جمره (مصر) ساعة الغضب
أودى فتى الشرق، بل شيخ الصحافة، بل	شيخ الوفائية الوضاحة الحسب <sup>(٣)</sup>

يخاطب الشاعر المصريين مستحثاً إياهم على صون ما كتبه (علي) في حياته، وعلى الأخذ بآرائه، واستلهم أفكاره الوطنية، وأن يودعوها في متاحفهم للعودة إليها كلما استدعتها المناسبة. ويذكر أن الفقيد كان ملاذ مصر إذا ما ألم بها مكروه، أودهاها داه في ساعة غضب، أو حل بها خطب.

ولقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة سادها الحزن والأسى على فقيد فتى الشرق وشيخ الصحافة وشيخ الطريقة الوفائية الوضاحة الحسب.

ويقول فيها:

لولا (المؤيد) ظل المسلمون على تناكر بينهم في ظلمة الحجب

(١) اليراع: القلم، الأرزاء والنوب: المصائب.

(٢) النشب: الأموال.

(٣) أودى: هلك.

تعارفوا فيه أرواحا وضمهم  
في مصر في تونس في الهند في عدن  
هذا يحن إلى هذا وقد عقدت  
رغم التنائي زمام غير منقضب  
في الروس في الفرس في البحرين في حلب  
موودة بينهم موصولة النسب  
ينوه الشاعر (بجريدة المؤيد) صحيفة الفقيد، ويشني على دورها ونهجها فقد كانت منبرا  
للکلمة الحرة المسؤولة، وملتقى الأفكار العربية المتحررة، وسفيرة المسلمين في شتى بقاع  
الأرض وقد جمعهم وعملت على توحيد كلمتهم.  
ويقول فيها:

(أبا بئنة) نم يكفيك ما تركت  
جاهدت في الله والأوطان محتسبا  
واحمل بيمينك يوم النشر ما نشرت  
فينا يدك وما عانيت من تعب  
فارجع إلى الله مأجورا وطب  
تلك الصحيفة في دنيك وانتسب  
يحيي الشعر في هذه الأبيات (أبا بئنة) وهي كنية الفقيد، مثنيا على جهوده وعمله،  
ويقول يكفيك ذكرا وفخرا ما تركته يدك من المآثر وما عانيت من التعب في سبيل إعلاء  
كلمة الله ورفع شأن الأوطان، وقد احتسب ذلك عند الله، فعد إليه مأجورا، طيب النفس،  
حاملا يوم البعث ما نشرته صحيفتك في حياتك من أفكار نيرة وآراء سديدة.  
لقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة تحمل ألفاظها علامات الحزن والأسف على رحيل  
الفقيد .

ويقول في قصيدة يرثي فيها (شيلي الشميل) الأديب والفيلسوف (من الخفيف):

سكن الفيلسوف بعد اضطراب	إن ذاك السكون فصل الخطاب
لقي الله ربه قاتركوا المرء	لديانه فسيح الرحاب <sup>(١)</sup>
حزن العلم يوم مت ولكن	أمن الدين صيحة المرتاب <sup>(٢)</sup>
كنت تبغي برد اليقين على الأرض	وتسعى وراء لب اللباب
فاسترح أيها المجاهد واهداً	قد بلغت المراد تحت التراب
هل أتاك اليقين من طرق الشك	فشك الحكيم بدء الصواب

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن موت (شيلي الشميل) مبينا ما أثاره هذا الموت، وما خلفه من لوعة وأسى على فقيد العلم والأدب والفلسفة، وفي الوقت نفسه يشير إلى ما كان عليه الفقيد في حياته حيال الشك في البعث والحساب، فيسأله الشاعر عما، إذا عرف بموته برد اليقين الذي كان يبحث عنه وهو حي على وجه الأرض، ويسعى للوصول إلى أعماق أسرارهِ، وهل وقف على الحقيقة التي كان شكك فيها في حياته؟ ويقول له، بإمكانك الآن أن تشعر بالراحة وتهداً بعد أن حققت مرادك وأنت تحت التراب، ويسأله مرة أخرى هل توصل إلى اليقين عن طريق الشك؟ فغالبا ما يكون شك الحكيم بداية للصواب.

(١) الديان: من أسماء الله الحسنى وهو القاضي والمحاسب والحاكم والمجازي.

(٢) المرتاب: المتشكك.



ويقول فيها:

لم يكن ملحدا ولكن تصدى لشؤون المهيمن الوهاب<sup>(١)</sup>

رام إدراك كنه ما أعجز الناس قديما فلم يفز بالطلاب<sup>(٢)</sup>

في هذين البيتين ينفي الشاعر من أن يكون شبلي ملحدا وإنما هو أحد الفلاسفة الذين حاروا في إدراكهم قدرة الله - سبحانه - وعجزت عقولهم عن معرفة الحقيقة فهؤلاء في نظره لم يكونوا ملاحدة - بل كانوا يبحثون عن الحقيقة.

ويرى الشاعر أن بموت هذا الفيلسوف وما أثاره في حياته من جدل ونقاش واتهام فقد هدأت الأمور بعد اضطرابها فكان موته واضعا حدا لما أثير حوله من شكوك، وقطعت جهيزة قول خطيب.

ويقول فيها:

إيه (شبلي) قد أكثر الناس فيك القول حتى تفننوا في عتابي

قيل: ترثي ذلك الذي ينكر النور ولا يهتدي بهدي الكتاب

قلت: كفوا فإنما قمت أرثي منه خلا أمسى طويل الغياب<sup>(٣)</sup>

أنا والله لا أحاييه في القول فقد كان صاحبي لا يحابي<sup>(٤)</sup>

(١) المهيمن: القادر المسيطر.

(٢) كنه الشيء: حقيقته.

(٣) الخل: الصديق.

(٤) أحاييه: أصانعه وأداجيه.

أنا أرثي شائلا منه عندي      كن أحلى من الشهاد المذاب<sup>(١)</sup>  
كان حر الأراء لا يعرف الختل      ولا يستريح عيب الصحاب<sup>(٢)</sup>  
مفضلا محسنا على العسر واليسر      جميع الفؤاد رحب الجنب<sup>(٣)</sup>  
كان في الود موضع الثقة الكبرى      وفي العلم موضع الإعجاب  
يرد الشاعر في هذه الأبيات على الذين لاموه وتفننوا في عتابه لرتائه (الشبلي) بحجة أنه  
كان ملحدا، لكن الشاعر يفند أراءهم وأقوالهم مبينا لهم أن هذا الفقيد كان مثالا للأخلاق  
الحميدة، والاستقامة والطيبة والإحسان في حالتي يسره وعسره، ونموذجا للمودة والثقة،  
وموضعا للإعجاب بعلمه الغزير.

ويقول فيها:

نكب فيه الطب يوم تولى      وأصبيت روائع الآداب  
وخلا ذلك الندي من الأنس      وقد كان مرتع الكتاب<sup>(٤)</sup>  
وبكت فقدته الشأم وناءت      فوق ما ناهها بهذا المصاب<sup>(٥)</sup>  
كل يوم يهد ركن من الشام      لقد آذنت إذا بالخراب  
فهي (باليازجي) و (جرجي) و (شبلي)      فجعت بالثلاثة الأطناب

(١) الشهاد والشهد: العسل.

(٢) الختل: الكذب والنفاق.

(٣) جميع الفؤاد: قوي صلب.

(٤) الندي: النادي والمحفل.

(٥) ناءت: عجزت وثقل حملها.

فعلى الراحل الكريم سلام  
كلما غيب الثرى ليث غاب  
يشدت تأثر الشاعر لموت هذا الطبيب الفيلسوف، فبرحيله نكبة للطب والعلم والأدب،  
وبكته بلاد الشام التي أصبحت تنوء بهذا المصاب، وهي كل يوم تفقد ركنا من علمائها  
وأطبائها وفلاسفتها، وقد بكت قبل هذا الفقيد كلا من إبراهيم اليازجي وجورجي زيدان،  
ومن ثم يبعث بسلامه الموصول إلى الراحل الكريم كلما أخفى تراب القبور أسدا من أسود  
العلم والمعرفة.

لغة أبيات هذه القصيدة حافلة بألفاظ الحزن والأسى كقوله: سكن الفيلسوف، فتركوا  
المرء لديانه، كفوا فإنما قمت أرثي، أنا أرثي شمائلًا، بكت ففقدته الشام، فوق ما نابها بهذا  
المصاب، كل يوم يهد ركن من الشام، فجعت بالثلاثة الأطناب، كلما غيب الثرى ليث غاب  
كما استخدم الشاعر الصور البيانية كالاستعارات والتشبيهات والكنيات والإشارات  
العلمية والأدبية التي تضمنها أبيات القصيدة.

ويقول في قصيدة يرثي فيها الشيخ (سليم البشري) شيخ الأزهر (من الوافر):

أيديري المسلمون بمن أصيبوا	وقد واروا (سليما) في التراب
هوى ركن الحديث فأى قطب	لطلاب الحقيقة والصواب
(موطأ مالك) عز (البخاري)	ودع لله تعزية (الكتاب)
فما في الناطقين فم يوفي	عزاء الدين في هذا المصاب
قضى الشيخ المحدث وهو يملي	على طلابه فصل الخطاب
أشيخ المسلمين نأيت عنا	عظيم الأجر موفور الثواب

قد سبقت لك الحسنى فطوبى لموقف شيخنا يوم الحساب  
إذا ألقى السؤال عليك ملق تصدى عنك برك للجواب  
يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حزنه وفجعة المسلمين لوفاة هذا المحدث والعالم  
الديني الشهير حين واروا جثمانه التراب، وبوفاته انهك ركن الحديث، يصعب وجود من يقوم  
مقامه، ويطلب من موطأ مالك أن يقوم بواجب العزاء للبخاري (صاحب الصحيح الجامع  
لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم) بوفاة هذا الشيخ الذي قضى نحبه وهو يملئ على  
طلابه فصل القول، لقد رحل هذا الشيخ عنها مثوباً بعظيم الأجر ووافر الثواب، فهنئاً له  
بحسنه في الدنيا ولآخرته يوم القيامة.

لقد اتسمت لغة الشاعر بألفاظها الحزينة الملتاعة لرحيل الفقيد، وهذا ظاهر في قوله:  
أيدي المسلمون بمن أصيبوا، واروا (سليماً) في التراب، هوى ركون الحديث، (موطأ مالك)  
(عز البخاري) ودع لله تعزية (الكتاب) عزاء الدين في هذا المصاب، قضى الشيخ المحدث...  
كما اتسمت بتجسيد المعاني وإبرازها في صورة المادي المحسوس كمثّل قوله: هوى ركن  
الحديث، موطأ ملك عز البخاري...

ويقول في قصيدة بعنوان: (ولدي قد طال سهدي ونحيبي) (من الرمل):

ولدي قد طال سهدي ونحيبي جئت أدعوك فهل أنت مجيبي<sup>(١)</sup>  
جئت أروي بدموعي مضجعاً فيه أودعت من الدنيا نصيبي<sup>(٢)</sup>

(١) السهد: الأرق وعدم النوم.

(٢) المضجع: مكان الاضطجاع والنوم.

لم يدع آسبك جهدا إنما غاب علم الله عن علم الطبيب<sup>(١)</sup>

إية يا (عبد الحميد) انظر إلى والد جم الأسى بادي الشحوب<sup>(٢)</sup>

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات باسم (رمزي بك) في رثاء ولده (عبد الحميد)، حيث ينادي الوالد الثاكل ولده الميت داعيا إياه بأن يجيبه، ولكن هيهات الجواب، كما يعرب عن حزنه وأسائه وفجيعة بولده، وعن قلقه وحيرته أمام الموت الذي تخطف الولد من بين يديه، ولم يأل الطبيب جهدا في علاجه، ووقف علم الطبيب عاجزا أمام علم الله، ومن هول فجيعة الوالد الثاكل يتمنى على ولده المتوفى أن ينظر إليه ليرى ما يعانيه من أسى عميق فهو دائم الحسرة.

ويقول فيها:

طالعي يا شمس قبرا ضمه بالتحايا في شروق وغروب

واسكني يا رحمة الله به واجعلي فيضك منهل السكوب

يخاطب الوالد الثاكل الشمس طالبا منها أن تحيي القبر الذي احتضنه في شروقها وغروبها، ويضرع إلى الله أن يمطره بشايب رحمته التي لا تنقطع.

بهذه اللغة الآسية ينوب الشاعر عن الوالد المفجوع في التعبير عما أصابه من حزن عميق وألم أليم، بدا ذلك من خلال ألفاظها التي نطقت بهذه المعاني، كقوله: ولدي طال سهدي، جئت أروي بدموعي مضجعا، انظر إلى والد جم الأسى بادي الشحوب، طالعي يا شمس

(١) الأسى: الطبيب.

(٢) جم: كثير، الأسى: الحزن.

قبرا ضمه. اسكنني يا رحمة الله به ... هذا فضلا عن استخدامه للصور البيانية التي وشح فيها ما رمى إليه من معان ومقاصد.

ويقول في قصيدة يرثي فيها (حفني ناصف بك) (من الرمل):

أذنت شمس حياتي بمغيب	ودنا المنهل يا نفس فطيمي <sup>(١)</sup>
إن من سار إليه سيرنا	ورد الراحة من بعد اللغوب <sup>(٢)</sup>
قد مضى (حفني) وهذا يومنا	يتدانى فاستشي وأنبيي <sup>(٣)</sup>
أذكر الموت لدى النوم ولا	تغفلي ذكرته عند الهبوب
قد وقفنا ستة نبكي على	عالم المشرق في يوم عصب <sup>(٤)</sup>
وقف الخمسة قبلي فمضوا	هكذا قبلي وإني عن قريب <sup>(٥)</sup>
وفجعنا بعالم مصلح	عامر القلب وأواب منيب
عرفوا من غيـوه وكذا	تعرف الأقرار من بعد المغيب <sup>(٦)</sup>

(١) أذنت: اقتربت.

(٢) اللغوب: التعب.

(٣) يتدانى: يقترب رويدا رويدا.

(٤) اليوم العصب: الشديد الوقع: والشعراء الستة وفيهم حفني ناصف والشعراء الذين رثوا عالم المشرق (محمد عبده).

(٥) إشارة إلى الشعراء الخمسة الذين كانت وفياتهم قبل أن تحل الوفاة بالشاعر.

(٦) الأواب: التائب من ذنبه.



دوي الجرح ولم يقدر له      بعد ثاوي (عين شمس) من طبيب<sup>(١)</sup>  
أجذب العلم وأمسى بعده      رائد العرفان في واد جديب  
ليس في ميدان (مصر) فارس      يركب الأخطار في يوم الركوب  
كلما شارفه منافى      غاله المقدار من قبل الوثوب<sup>(٢)</sup>

يستشعر الشاعر في مستهل قصيدته دنو أجله حيث السكينة والراحة من بعد التعب، ويؤكد استشعاره هذا بعد موت (حفني ناصف بك) ويشير إلى الشعراء الخمسة الذين كانت وفياتهم قبل أن تحل به الوفاة، ثم ينتقل للتنويه بالفقيد الراحل فقد عرفوه حين غيبه التراب، لأن الأتقار تعرف قيمتها ويحتاج إلى ضوئها بعد مغيبها، ثم يعرب عن فجيعة هذا الإمام المصلح صاحب القلب الطيب الأبواب المنيب ... ويقول لقد وقف الطب عاجزا عن علاجه وشفائه فقصي نحيبه، وقد أصبح العلم بعده مجدبا، ولم يعد في (ميدان مصر) فارس يقوى على ركوب الأخطار عندما يدعو لها الداعي، فهكذا تسير الأمور، كلما حاول فتى الوصول على مواجهتها سارع القدر إلى اختطافه قبل أن يتمكن من الوثوب ليركب هذه الأخطار.

وقد جاءت لغة الشاعر تفيض بالألم والحزن على رحيل الفقيد (حفني ناصف بك) فشمس حياة الشاعر اقتربت من الأفول حزنا على الفقيد، ومنهل الموت دنا منه، وحفني مضى وقضى نحيبه، ويوم الشاعر يدنو منه شيئا فشيئا ويطلب من نفسه أن تتذكر الموت في نومه وفي يقظته، ثم يقف باكيا هو وخمسة من الشعراء على عالم المشرق في يوم شديد الوقع

(١) دوي الجرح: أصيب بالداء.

(٢) غاله: أصابه وفجعه.

على النفوس، وقد عرف الجميع قدر هذا الفقيد ومكانته؛ فالأقمار تعرف قيمتها والحاجة إلى ضوئها بعد مغيبها، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر، ناهيك عن استخدام الشاعر للصور البيانية التي جسدت هذه المعاني والتي برزت في الاستعارات والتشبيهات ... والقصيدة طويلة تقع في ثلاثة وأربعين بيتاً اكتفينا منها بما اجتزأناه من أبياتها التي تفي بما تقتضيه هذه الدراسة.

ويقول في قصيدة يرثي فيها (عبد الخالق ثروت) رجل الإدارة والقضاء، ورئيس الوزراء المصري المعروف (من الكامل):

لعب البلى بملاعب الألباب	ومحا بشاشة فمك الخلاب <sup>(١)</sup>
وطوى الردى (عمرو) الكنانة غافلاً	ورمى شهاب دهائه بشهاب <sup>(٢)</sup>
من كان يدري يوم سافر أنه	سفر من الدنيا بغير إياب <sup>(٣)</sup>
حزنت عليه عقولنا وقلوبنا	وبكت، وحزن العقل شر مصاب
القلب ينسيه الغياب أليفه	والعقل لا ينسيه طول الغياب <sup>(٤)</sup>
بالأمس مات أجلنا وأعزناً	جاهاً وأبقانا على الأحقاب
واليوم قد غال الحمام أسدنا	رأيا فطاح بحكمة وصواب <sup>(٥)</sup>

(١) الألباب: العقول.

(٢) الردى: الموت.

(٣) الإياب: الرجوع.

(٤) الأليف: المعاصر والصاحب.

(٥) غال: فتك، الحمام: الموت، طاح: ذهب.

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن تفجعه، لما أصاب الفقيد لما طواه الموت، وسافر إلى غير رجعة، وهو الذي عرف بفكره النيرورأيه السديد وقدرته على مغالبة ذوي الألباب، فكان الشهاب الثاقب، وهو (عمرو) كنانة مصر في دهائه وذكائه، وهذا مما يذكر (بعمرو بن العاص) المشهور بدهائه أثناء توليه مصر زمن عمرو بن الخطاب، كما يعرب الشاعر عن حزنه وحسرتة لرحيل الفقيد الذي أحبه بعقله قبل قلبه، لأن القلب قد ينسى أليفه، لكن هيهات للعقل أن ينسى من أحبه ونأى عنه.

هكذا عبر الشاعر عن حزنه لرحيل (عبد الخالق ثروت)، فقد ذهب البلى بملاعب الألباب، وطوى الردى (عمرو) الكنانة، ورمى شهاب دهائه بشهاب، سفر من الدنيا بغير إياب، حزنت عليه عقولنا وقلوبنا، وبكت، القلب ينسيه الغياب أليفه، والعقل لا ينسيه طول غياب، وقد جاءت هذه التعابير في صور بيانية زادت ألمانا وتأثيرا في نفس الشاعر.

ويقول فيها:

آيات ما يلقي من الأوصاب <sup>(١)</sup>	مبتسم وعلى معارف وجهه
لكبيرهم بذكائه الوثاب	هو ما تراه مفاوضا كيف انبرى
إلا نجا بدهائه من باب	لم يأت من باب لصيد دهائه
بليوننة ولباقة وخلاب	ويظل يرقبه ويغزو كبره

(١) الأوصاب: الأتعب، جمع وصب.

الفقيد دائم الابتسام، وتعلو تقاسيم وجهه علامات ما كان يواجهه من الأتعاب، بارع في قدرته على التفاوض مع أعدائه، ذكي ألمعي إلى حد لا يستطيع كبير الإنجليز أن يجاريه في قدرته على النقاش والحوار، مندوبا من قبل حكومة مصر..

الشاعر محزون ومعجب في آن واحد بمناقب الفقيد الخلقية والفكرية، جاء ذلك من خلال لغة اتسمت بالأسى والإكبار لرحيل الفقيد.

ويقول فيها:

وأتى (مصر) وأهلها بسيادة	مرفوعة الأعلام والأطناب <sup>(١)</sup>
غفرا فلست ببالغ فيك المدى	إني غذت إلى مدائك ركابي
خالفت فيك الجازعين فلم أنح	حزنا عليك وأنت من أترابي <sup>(٢)</sup>
النوح في الجلى اجتهدا مقصر	ألقي دعاء الصبر غير مجاب <sup>(٣)</sup>

يواصل الشاعر التحدث عن الفقيد فيذكر بأنه حقق للمصريين كثيرا من الإنجازات وفي مقدمتها، سيادة مصر واستقلالها، رافعة أعلامها فوق أرضها ثابتة البنيان.

ثم يعرب الشاعر عن عدم قدرته إيفاء الفقيد ما يستحقه من ثناء ومدح على جهوده التي أولاهها المصريون، طالبا منه أن يغفر له هذا التقصير إلا أنه يستدرك قائلا إنه خالف المحزونين

---

(١) الأطناب: الأوتاد.

(٢) أترابي: من هم في عمري، جمع ترب.

(٣) الجلى: الأحداث والمصائب الكبرى العظيمة.

عليه فم ينح كما ناحوا، لأنه يرى أن النواح والبكاء في عظام الأمور إنما تكون من صفات المقصرين حين ألفوا أن دعاء الصبر غير مستجاب.

يذكر الشاعر في البيت الأخير من هذه الأبيات بأنه لم يكن من الجازعين على الفقيد وأنه اتصف بالجلد والصبر، مع أنه ورد في الأبيات التي اخترناها من هذه القصيدة الكثير من ألفاظ الجزع والإشفاق على المرثي الراحل في مثل قوله: حزنت عليه عقولنا وقلوبنا، وبكت، وحزن العقل شر مصاب؟؟ وقد يوقعه هذا في مظنة التناقض، اللهم أن يكون قد ذهب في تعبيره مذهبا غير ما فهمناه.

ويقول في قصيدة تنوف أبياتها على الأربعين بيتا يرثي فيها (محمد إبراهيم المويلحي) الصحفي والكاتب المشهور (من الخفيف):

دمعة من دموع عهد الشباب	كنت خبأتها ليوم المصاب
لبت اليوم (يا محمد) لما	راعني نعي أكتب الكتاب
هدأت لوعتي وسرت قلبيلا	عن فؤادي ولطفت بعض ما بي
موكب الدفن خلف نعشك يمشي	في احتساب وحسرة وانتحاب
رب نعش قد شيعته ألوف	من سواد تعلوه سود الثياب
ليس فيهم من جازع أو حزين	صادق السعي أو أليف مصاب

يبكي الشاعر الفقيد بدمعة من دموع الشباب كان خبأها لهذا اليوم الذي أصيب به برحيل الفقيد، فجاءت هذه الدمعة عليه وسرت عن فؤاه ولطفت بعض ما يعانيه من ألم على هذا الفقيد، ثم يصف موكب تشييعه، فهو مسجى فوق نعش تشييعه الألوف من ذوي

الأخلاق والأحساب المعبرين عن صادق حزنهم وأساهم، وكم من موكب تشيع آخر ضم  
آلاف المشيعين لكن ليس فيه من هو صادق الحسرة واللوعة.

تفيض لغة الشاعر في هذه الأبيات بمعاني الحزن والحسرة على الفقيد، وبدا فيها مستعظما  
ومبالغا للخسارة التي حلت بالصحافة والكتابة بموت هذا الصحفي الكبير.

ويقول فيها:

جزت سبعين حجة لا تبالي	بشهاد تعاقبت أم بصاب <sup>(١)</sup>
وسواء لديك والرأي حر	روح (نيسان) أو لواقع (آب) <sup>(٢)</sup>
عشت ما عشت كالجبال الرواسي	فوق نار تذيب صم الصلاب <sup>(٣)</sup>
مؤثر البؤس والشقاء على الشكوى	وإن عضك الزمان بناب
كنت تخلو بالنفس والنفس تسوى	من كؤوس الهموم والأوصاب <sup>(٤)</sup>
فتسري بالذكر عنها وتنفي	ما عراها من غصة واكتئاب
بنت عنها وما جنيت وقد كابدت	بأساءها على الأحقاب <sup>(٥)</sup>

(١) الحجة: السنة، الشهاد والشهد: خالص العسل، والصاب: نبت شديد المروعة.

(٢) روح نيسان: هو شهر نيسان الموصوف بنسبات هوائه العليل الخفيف، لوافح (آب): هو شهر آب الموصوف بهوائه الشديد الحرارة.

(٣) صم الصلاب: كناية عن الجبال والحجارة.

(٤) الأوصاب: الأتعب.

(٥) الأحقاب: الأزمنة.

ونبذت الثراء تبذل فيه من إباء في بذله شر عاب<sup>(١)</sup>

ينوه الشاعر في هذه الأبيات ببعض مناقب الفقيد، فهو (أي الفقيد) غير عابئ بمر الحياة ونصبها، أبدا هو صاحب رأي صريح، سواء عليه نسمات شهر نيسان، ولفحات شهر آب، ثابت في مبادئه لا تهزه الصعاب ولا تلين من قناته صروف الدهر، يؤثر البؤس والشقاء على الشكوى وإن قسا واشتد به الزمان، ينفرد بنفسه التي تجرع كؤوس الهموم والأتعاب، تسري بها بالذكر وينفي عنها ما أصابها من غصة واكتئاب، فأكسبها العفة رغم مكابذتها للشدائد على مر الزمان، وكان زاهدا في الدنيا راضيا بالقليل من الكثير.

هكذا يذكر الشاعر بعضا من مناقب الفقيد، فعبّر عنها بلغته القوية وألفاظه الرزينة التي لا تنبو عن الفهم وضمنها من الصور البيانية بما يظهرها في روعة التعبير وجمال التصوير يبدو ذلك من خلال قوله، وسواء لديك والرأي حر روح (نيسان) أو لوافح (آب)، عشت ما عشت كالجبال الرواسي، فوق نار تذيب صم الصلاب وإن عضك الزمان بناب، النفس تسوى من كؤوس الهموم والأوصاب، ما عراها من غصة واكتئاب، من إباء في بذله شر عاب ... ولا يخفى ما تحمله هذه الألفاظ من معاني الحزن واللوعة على الفقيد.

ويقول فيها:

بلغ (البابلي) عني سلاما      كعبير الرياض أو كالملا<sup>(٢)</sup>  
قد أثار ر (المحمدان) دفيننا      في فؤادي وقد أطارا صوابي

(١) نبذت: طرحت وتجنبت.

(٢) الملا: نوع من العطور.



خلفاني بين الرفاق وحيدا      مستكينا وأمعنا في الغياب  
يطلب الشاعر إلى المرثي أن يزجي سلامه إلى البابلي (وهو محمد البابلي، الأديب والتاجر  
الظريف، وكان هذا قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، عرف بخفة دمه وروحه الذكية ودعابته  
وفكاهته ومزاجه الظريف) إنه يبكي الفقيد (المحمدين) محمد المويلحي ومحمد البابلي،  
وكلاهما ترب للشاعر وصديق ورفيق، وقد غادراه وتركاه وحيدا يعاني ما يعاني لطول عيابهما  
عنه.

بهذه اللغة يخاطب الشاعر صديقه المرثي (محمد المويلحي) وقد جاءت ألفاظها موشحة  
بالأسى والحزن، مثيرة ما يخترنه فؤاده من دفين اللوعة والحسرة على رفيقه الراحلين اللذين  
أفقداه صوابه وعقله بغياهما عنه وأعقباه حسرة لا تنقضي ولا تزول يبدو هذا في قوله: أثار  
(المحمدان) دفيننا في فؤادي، وقد أطارا صوابي، خلفاني بين الرفاق وحيدا مستكينا ....  
ويقول في أبيات يرثي بها (أحمد البابلي) وكان صديقا له وتربا (من الكامل):

بدأ المات يدب في أترابي	وبدأت أعرف وحشة الأجباب <sup>(١)</sup>
يا بابلي فداك إلفك في الصبا	وفدا شبابك في التراب شبابي <sup>(٢)</sup>
قد كنت خلصاني وموضع حاجتي	ومقر آمالي وخير صحابي <sup>(٣)</sup>
فاذهب كما ذهب الكرام مشيعا	بالمجد مبكيا من الأجباب

(١) الأتراب: جمع ترب، وهو الصديق في سن واحدة.

(٢) الإلف: الصديق.

(٣) الخلصان: موضع الإخلاص من الأصدقاء.

يتحسر الشاعر على صديقه الفقيد، ويذكر أن الموت بدأ يخترم أترابه واحدا واحدا، وهذا ما جعله يشعر بالوحشة بعد رحيلهم، ثم هو يعزي صديقه بنفسه، وهيهات ذلك، وينوه بمنزلة الفقيد لديه فقد كان موضع الإخلاص من الأصدقاء ومحط الآمال ومن خيرة الأصحاب، وأخيرا يودعه كريما مشيعا بالعظمة والإجلال ومبكيا عليه من الأحباب.

لغة الحزن واللوعة بارزة في هذه الأبيات، وألفاظها تحكي هذه المعاني وذلك في مثل قوله: بدأ الممات يدب في أترابي، وحشة الأحباب، فدا شبابك في التراب شبابي، مشيعا بالمجد مبكيا من الأحباب.

ويقول في قصيدة مؤبنا (سعد زغلول) في حفل أقيم بهذه المناسبة، وتقع في حوالي تسعين بيتا (من الخفيف) اجتزئ منها الأبيات التالية:

إيه يا ليل هل شهدت المصابا	كيف ينصب في النفوس انصبابا
بلغ المشرقين قبل انبلاج الصبح	أن الرئيس ولى وغابا <sup>(١)</sup>
وانع للنيرات (سعدا) فـ (سعد)	كان أمضى في الأرض منها شهابا <sup>(٢)</sup>
قل لها: غاب كوكب الأرض في الأرض	فغيبني عن السماء احتجابا
والبسيني عليه ثوب حداد	واجلسي للعزاء فالحزن طابا
أين (سعد) فذاك أول حفل	غاب عن صدره وعاف الخطابا

ويقول فيها:

(١) انبلاج: اندلاع وظهور.

(٢) النيرات: النجوم والكواكب.

حملوه على المدافع لما  
حال لون الأصيل والدمع يجري  
وسها النيل عن سراه ذهولاً  
ظن يا (سعد) أن يرى مهرجانا  
لم تسق مثله فراعين (مصر)  
خضب الشيب شيبهم بسواد  
واستهلت سحب البكاء على الوادي  
ويقول فيها:

يا كبير الفؤاد والنفس والآمال  
كيف ننسى مواقفك فينا  
كنت في ميعة الشباب حساماً  
لم ينهه من عزمك السجن والنفي  
أين اعتزمت الازهار  
كنت فيها المهيب لا الهيبا  
زاد صقلا فرنده حين شابا<sup>(٥)</sup>  
وساجلتها (بمصر) الضرابا<sup>(٦)</sup>

(١) الهام: الرؤوس.

(٢) الأصيل: ما قبل غروب الشمس.

(٣) الخضاب: الصبغ.

(٤) اليباب: القاحلة.

(٥) الحسام: السيف، ومثله الفرند: ماء السيف، وميعة الشباب: عفتوانه.

(٦) ينهه: يضعف.

سائلوا (سيشلا) أأوجس خوفا  
ليت (سعدا) أقام حتى يرانا  
وسلوا (طارقا) أرام انسحابا<sup>(١)</sup>  
كيف نعلي على الأساس القبابا  
ويقول فيها:

جمع الحق كله في كتاب  
ومشى يحمل اللواء إلى الحق  
واستثار الأسود غابا فغابا  
ويتلو في الناس ذاك الكتابا  
ثم يقول:

نم هنيئا فقد شهدت طويلا  
كم شكوت السهاد لي يوم كنا  
وسئمت السقام والأوصابا  
بالبساتين نستعيد الشبابا  
نحسب الدهر قد أناب وتابا  
وإذا حائم الردى كان قابا  
وذاك الحمى وتلك الرحابا  
خفت فينا مقام ربك حيا  
فتنظر بجتتيه الثوابا

بهذه الألفاظ والمعاني يؤبن حافظ إبراهيم زعيما من زعماء مصر الوطنيين الأحرار ففي  
المقطع الأول من الأبيات المستلة من القصيدة يعرب الشاعر عن فجيعة يموت (سعد  
زغلول) طالبا من الليل أن ينعى للكون كله نبأ الفجيعة (بسعد)، ومن النجوم والكواكب أن

---

(١) سيشل: اسم الجزيرة التي نفى إليها (سعد) وهي في شرق القارة الإفريقية، و(طارق) أي جزيرة جبل طارق، وكان (سعد) قد نفى إليها بعد سيشل، وفي ذلك إشارة الى طارق بن زياد حين مضى في فتح الأندلس واعتراضه البحر فقال قولته المشهورة البحر وراءكم والعدو أمامكم للمضي في وجهته.

تنعاه فقد كان في حياته أكثر منها بروزا ولمعانا، ويطلب إلى الليل أن يعلم النجوم أن كوكب الأرض (أي سعد) أصبح مغيبا في الأرض، فما عليها إلا أن تختفي من السماء حزنا على الفقيد، وأن تلبس ثوب الحداد عليه وتجلس استعدادا لتقبل العزاء فيه، فقد طاب وقته، ويسأل الشاعر عن (سعد) ويحزن عليه لغيابه عن الحفل الذي أقيم لتأبينه وهو الذي ما غاب عن حفل من قبل.

وفي الأبيات التي تلي هذا المقطع ينتقل الشاعر إلى وصف مشهد تشييعه، فقد كان حقا مأتما متهيبا لم تشهد له مصر مثيلا، حملت نعشه المدافع بعد أن عجزت هامات المشيعين ورؤوسهم عن حمله، ويزداد المشهد حزنا وتأثرا وتأثيرا، فالنيل غدا ساهيا ذاهلا عن مجراه وكأنه أخذته غشية حين رأى جموع المشيعين باكية متحبة، وكان قد ظن قبلا أنه يرى مهرجانا وإلا به يرى حشدا ضخما من المؤبين.

ثم يشير بعد ذلك في الأبيات السابقة إلى السجن الذي نفي إليه سعد، ولم يضعف أو يفت هذا النفي من عزمه وإرادته وقوته، ويستشهد على ذلك بالجزيرتين اللتين كانتا سجنا له، فقد شهدا على أن (سعد زغلول) لم يطرق الخوف قلبه ولم يفكر في التراجع عن مواقفه وآرائه الوطنية التحررية.

ثم يخاطب في المقطع الأخير من الأبيات المختارة (سعدا) بأن يهنأ في نومه في القبر بعد هذا العناء الذي عانى منه حين حمل هموم بني وطنه وهما (أي سعد والشاعر) في البساتين لاهيان غافلان يحسبان أن الدهر قد نسيهما وغفل عنهما وتاب عن إيذائهما، ولكن هيهات، فقد كان الرزء بالفقيد ليس بعيدا كان قاب قوسين أو أدنى، وكان حاتم الردى يحوم حولهما،

فاختطف (سعدا) وبهذا يكون قد حرم المصريين من ذلك الوجه المشرق وذلك الإنسان الذي يلوذ إليه المصريون وينزلون في رحابه.

وهكذا تفيض في هذه الأبيات لغة الحزن واللوعة والحسرة، جسدها الشاعر في ألفاظها التي تحكي هذه المعاني في مثل قوله: إيه ياليل هل شهدت المصابا، ولى، غابا، وانع للنيرات، البسيني ثوب الحداد، اجلسي للعزاء، الحزن طاب، حال لون الأصيل، والدمع يجري، تبكي انتحابا، مأتما، السجن، النفي، شهدت طويلا، السقام، الأوصاب، شكوت، الرزء، حائم الردى ... ناهيك عن الصور البيانية والمعاني البلاغية التي تمثلت فيما أورده من مجازات لغوية واستعارات وتشبيهات وكنيات تبدو واضحة جلية للمتمامل فيها.

وفي قصيدة يرثي بها الشيخ (محمد عبده) وتقع في أكثر من خمسين بيتا (من الطويل):  
يقول فيها:

سلام على الإسلام بعد محمد	سلام على أيامه النضرات <sup>(١)</sup>
على الدين والدنيا، على العلم والحجا	على البر والتقوى، على الحسنت
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله	فأصبحت أخشى أن تطول حياتي <sup>(٢)</sup>
فوا لهفي - والقبر بيني وبينه -	على نظرة من تلكم النظرات <sup>(٣)</sup>
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا	كأنني حيال القبر في عرفات <sup>(٤)</sup>

(١) النضرات: الزاهيات.

(٢) عادي الموت: شدة وقعه.

(٣) اللهفة: الحسرة.

(٤) حاسر الرأس: مكشوف بلا غطاء، عرفات: مكان اجتماع الحجاج قرب مكة.



لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا تجاليدَه في موحش بقلعة<sup>(١)</sup>

ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا بخير بقاع الأرض خير رفات<sup>(٢)</sup>

ينعى الشاعر فقد الدين والدنيا والعلم والتقوى والإحسان بعد فقد الشيخ (محمد عبده) فقد أضحت أيام الإسلام بعده ذاوية، وفقدت نضارتها وتألقها برحيله، ويعرب عن حزنه ويأسه من الحياة بعد فقد الميراثي، ويتحسر على الشيخ الراحل وقد أضحى مسجى في قبره، ويتأسى لدفن الشيخ الفقيد في هذا الموضع، وكان حريا بالمسلمين أن يواروا جثمانه في عرفات أو المسجد النبوي الشريف، لأن رفاته تستحق أن تدفن في خير بقاع الأرض قدسية وعظمة.

يبدو الشاعر في هذه الأبيات منفعلا ومتأثرا أشد التأثر لفقد الشيخ، فألفاظ الأبيات وعباراتها تفصح عن ذلك في مثل قوله: سلام على الإسلام بعد (محمد) أصبحت أخشى أن تطول حياتي، فوا لهفي، والقبر بيني وبينه، وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا. ويقول فيها:

رأيت الأذى في جانب الله لذة ورحت ولم تهتم له بشكاة<sup>(٣)</sup>

لقد كنت فيهم كوكبا في غياهب ومعرفة في أنفس نكرات

أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرقت بين النور والظلمات

(١) تجاليدَه: كناية عن جلده وبشرته.

(٢) ضرحوا: دفنوا في الضريح، أي القبر.

(٣) الشكاة والشكوى، واحد.



ووفقت بين الدين والعلم والحجا فأطلعت نورا من ثلاث جهات<sup>(١)</sup>

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى شدة جلد الشيخ محمد عبده فيما تحمله في حياته من ظلم وأذى استشعرها لذة ونشوة طالما هي في جانب الله - سبحانه - ومع ذلك ظل المنافع عن الدين والجامع للعقل والعلم والدين معا، وبين ما جاء في القرآن الكريم من أحكام وحكمة، وفرق ما بين الإيمان والضلال.

لقد استخدم الشاعر في هذا المقطع لغة تنم عن الإعجاب والحزن في آن واحد - بالشيخ الفقيه، وتحللتها الصور البيانية، ظهر من ألفاظها وعباراتها التي نلاحظها في قوله: رأيت الأذى في جانب الله لذة، قد كنت فيهم كوكبا في غياهب، فرقت بين النور والظلمات (وهنا تبدو المطابقة بن النور والظلمات والاستعارة في الوقت نفسه)، فأطلعت نورا من ثلاث جهات...

ويقول فيها:

وكم لك في إغفاءة الفجر يقظة	نفضت عليها لذة الهجعات <sup>(٢)</sup>
ووليت شطر البيت وجهك خاليا	تناجي إله البيت في الخلوات <sup>(٣)</sup>
وكم ليلة عاندت في جوفها الكرى	ونبهت فيها صادق العزمات

(١) الحجا: العقل.

(٢) الهجعات: الرقعات.

(٣) البيت: هو البيت الحرام بمكة، إشارة إلى حج البيت.

يتابع الشاعر الحديث في هذه الأبيات عن مواقف الفقيد الشجاعة التي عرف بها في حياته، ويبين فضائله وخشوعه وبره وتقواه والذود عن حمى الدين.

والتصوير البياني واضح في كلمات هذه الأبيات، فقد جعل للفجر إغفاءة، كما أظهر لذة الهجعات في صورة ما ينفض ويزاح، وظلمة الليل في هيئة شخص يعاند النعاس .... وهي صور شابهة الأسى والحزن على الفقيد.

ويقول فيها:

مشى نعشه يختال عجباً بربه	ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تقله	وتدفعه الأنفاس مستعرات <sup>(١)</sup>
بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة	وضاقت عيون اللون بالعبرات <sup>(٢)</sup>
ففي الهند محزون، وفي الصين جازع	وفي (مصر) باك دائم الحسرات <sup>(٣)</sup>
وفي الشام مفجوع، وفي الفرس نادب	وفي تونس ماشئت من زفرات
بكى عالم الإسلام عالم عصره	سراج الدياجي هادم الشبهات <sup>(٤)</sup>

يصف الشاعر في هذا الأبيات موكب التشيع، فهو موكب مهيب، يبعث على الخشوع، كانت تحيط به جموع المشيعين، وتودعه بالدموع، والكل مفجوع محزون، في الهند، في الصين،

(١) تقله: تحمله.

(٢) العبرات: الدموع.

(٣) جازع: فاقد، حزين.

(٤) الدياجي: الظلمات، وهادم الشبهات: كناية عن رد الشيخ على الافتراءات المثارة في وجه الإسلام.

في مصر، في الشام، في فارس، في تونس، في الشرق، إنهم جميعا يكون الشيخ الإمام إمام الهداة والمتقين.

يظهر التصوير البارع لهذا المشهد والذي لا يخلو من المبالغة، فقد جعل الشاعر موكب المشيعين مختالا ببقاء ربه، ويخطر بين اللمس والقبلات مزهوا بالرجوع إلى خالقه، كما أظهر الدموع الجاريات في صورة المادي القادر على حمل النعش، وأنفاس المشيعين وزفارتهم المستعرة تدفعه إلى مثواه الأخير، وعيون الكون ضاقت بما ذرفته من دموع، وعلمه الغزير يبدد الظلمات ويهدم الشبهات التي يلصقها أصحابها بالدين الحنيف، ولغة الحزن ظاهرة في هذه الأبيات من مثل: مشى نعشه، الدموع الجاريات تقله، تدفعه الأنفاس المستعرات، بكى الشرق، ضاقت عيون الكون بالعبرات، في الهند محزون، وفي الصين جازع، وفي مصر باك دائم الحسرات، وفي الشام مفجوع، وفي الفرس نادب، وفي تونس ما شئت من الزفرات ... بكى عالم الإسلام عالم عصره ...

ويقول في قصيدة يرثى بها (محمد فريد باشا) الزعيم الوطني والمحامي ورئيس الحزب الوطني (من الرمل):

من ليوم نحن فيه من لغد	مات ذو العزمة والرأي الأسد <sup>(١)</sup>
حل (بالجمعة) حزن وأسى	ومشى الوجد إلى يوم (الأحد) <sup>(٢)</sup>

(١) الأسد: الأكثر سدادا وصوابا.

(٢) الجمعة: أراد بها مسلمي مصر، الأحد: أراد به مسيحيي مصر من الأقباط، الوجد: الحزن.

وبدا شعري على قرطاسه      لوعة سالت على دمع جمد<sup>(١)</sup>

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حزنه وأسائه لفقد هذا الزعيم، ويرى أنه فقد فيه من كانت تحتاجه مصر في حاضرها ومستقبلها، ويصفه بذى العزيمة الماضية والرأي السديد، وقد حل برحيله الحزن بالمصريين كافة مسلميهم ومسيحيهم الأقباط... ووضح ما ورد في الأبيات من تصوير لهذا المشهد، حيث جعل الحزن يحل بالمصريين المسلمين في جمعتهم، والوجد يمشي بالمصريين المسيحيين في (أحدهم) وألفاظ الحزن حاضرة في الأبيات من مثل قوله: من ليوم نحن فيه من لغد، مات ذو العزيمة.

حل (بالجمعة) حزن وأسى، مشى الوجد إلى يوم (الأحد) بدا شعري على قرطاسه لوعة على دمع جمد.

ويقول فيها:

أيها النيل لقد جل الأسى      كن مدادا لي إذا الدمع نفذ<sup>(٢)</sup>

فلقد ولي (فريد) وانطوى      ركن (مصر) وفتاها والسند

يسترفد الشاعر عن نهر النيل ليمده بمائه وليكون حبرا إذا ما نفذ دمعته فالحدث جلل، والأسى حل ونزل بعد ذهاب (فريد) وانطوى برحيله ركن المصريين وفتاهم وسندهم.

والتصوير واضح في لغة الشاعر في قوله: كن مدادا لي إذا الدمع نفذ، انطوى ركن (مصر) كما تبدو فيها ألفاظ الحزن كقوله: جل الأسى، ولي (فريد)....

(١) القرطاس: الورق.

(٢) جل: عظم، الأسى: الحزن، المداد: الحبر.

ويقول فيها:

يا غريب الدار والقبر ويا	سلوة (النيل) إذا ما الخطب جد
فقدت (مصر فريدا) وهي في	موطن يعوزها فيه المدد
فقدت (مصر فريدا) وهي في	لهوة الميدان والموت رصد <sup>(١)</sup>
لم يكد يمتعها الدهر به	في ربوع (النيل) حيا لم يكد
ليتة عاش قليلا فترى	شعب (مصر) عينه كيف اتحد

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الفقيده فقد مات غريب الدار والقبر، لقد كان ملاذ أهل النيل إذا ما حزبهم أمر وادهمت الخطوب وحلكت الأيام، وكان موته خسارة كبيرة لمصر والمصريين، فلقد فقدته مصر وهي في أمس الحاجة إليه، ويتمنى لو أمهله الأجل قليلا لترى عينه كيف أصبح شعب مصر موحدا.

وتأثر الشاعر للفقيده واضح في ألفاظ لغته التي استخدمها للتعبير عن المصاب الجلل كقوله: جل الأسى، الدمع نقد، ولى (فريد) وانطوى، غريب الدار والقبر، سلوة النيل، فقدت (مصر فريدا) ... كما يبدو فيها التصوير البياني في قوله: سلوة النيل، لهوة الميدان، والموت رصد.

ويقول في قصيدة يرثي بها (عثمان السيد أباطة) المفتش العام (من البسيط):

ردا كؤوسكما عن شبه مفؤود	فليس ذلك يوم الراح والعود <sup>(٢)</sup>
--------------------------	--

(١) رصد: أي متربعا به.

(٢) مفؤود: مصاب في فؤاده، الراح: الخمرة.

يا ساقبي أراي قد سكنت إلى ماء المدامع عن ماء العناقيد<sup>(١)</sup>  
فإمسكا الراح إني لا أخامرها وبلغا الغيد عني سلوة الغيد<sup>(٢)</sup>  
تم امضيا ودعاني إنني رجل قد آل أمري إلى هم وتسهد  
يطلب الشاعر في هذه الأبيات من ساقبيه جريا على عادة الشعراء في مخاطبة اثنين أن يردا  
ويعيدا كؤوس الخمر فهو شبه مفؤود مصاب فؤاده بالكمد والحزن، فليس الوقت وقت  
احتساء الخمر والاستماع للغناء وعزف العود، وقد استعاض ماء الدموع بقاء عناقيد كروم  
العنب، ويطلب منهما أن يمسكا الخمرة، فهو لا يخامرها حاليا كما يطلب إليهما أن يبلغا  
الحسان من النساء أنه الآن في سلوة عنهن، كما يطلب إليهما أن يمضيا ويتركا مستسلما إلى ما  
آل إليه من هم وتسهد حزنا على الفقيد.

بهذا الأسلوب وهذه اللغة يصور الشاعر حزنه وأساه على الفقيد، فهو شبه مفؤود،  
وليس اليوم يوم خمر وغناء وغزل، وقد استسلم لدموع عينيه، واستغنى عن ماء العناقيد،  
وهو لا يشرب الخمرة، وقد أصبح في سلوة عن الغيد الحسان من النساء، وقد انتهى به الأمر  
إلى الارتقاء في أحضان الهموم والسهاد.  
ويقول فيها:

أبعد (عثمان) أبغي مأربا حسنا من الحياة وحظا غير منكود

(١) ماء العناقيد، كناية عن الخمرة.

(٢) أخامرها: أخالطها وأشربها، الغيد: الحسان من النساء.

إني ليحزننني أن جاء ينشده داعي المنون وإني غير منشود<sup>(١)</sup>  
يعرب الشاعر في هذين البيتين عن فقدان أمله في الحياة، فلم يعد له أمل يرجوه أو حظ  
ينتظره بعد رحيل الفقيد، كما يعرب عن حزنه حين جاء ملك الموت يطلب روح الفقيد ولم  
يكن هو المطلوب.

وألفاظ الحزن ظاهرة فيهما، حيث يقول: أبعد (عثمان) أبغي مأربا حسنا من الحياة،  
وحظا غير منكود، جاء ينشده داعي المنون.  
ويقول فيها:

يا راحلا أكبرتك الحادثات وما أكبرتها عند تليين وتشديد<sup>(٢)</sup>  
أبكيت حتى العلا والمكرمات وما جفت عليك مآقي الخرد الخود<sup>(٣)</sup>  
وبات آلك والأصحاب كلهم عليك ما بين محزون ومعمود<sup>(٤)</sup>  
يكون فقد امرئ منتسب بالبشر منتقب في الناس محمود<sup>(٥)</sup>

يصور الشاعر في هذه الأبيات أثر فقد المرثي على الأحبة والأهل وعارفيه، ويصفه  
بالراحل الذي أكبرته المصائب وهو يواجهها بحزم وقوة، ولم يكبرها في رخائها وشدتها،

---

(١) داعي المنون: هو الموت.

(٢) الحادثات: المصائب والنوازل.

(٣) المآقي: العيون، الخرد الخود: صفة للشابات الحسنان من النساء.

(٤) معمود: محزون.

(٥) منتقب: لا بس نقابا فيه نقائب ومحامد.



ويضيف قائلاً، لقد بكت عليه العلا والمكرمات، وجفت دموع النساء الحسان حزناً وغداً أهله وأصحابه محزونين معمودين؛ لأنهم فقدوا امرأ خيراً إذا مناقب حميدة.

ولقد عبر الشاعر عن مناقب الفقيد بلغة ضمنها العديد من المبالغات والتهويل، كقوله: أكبرتك الحادثات وما أكبرتها، وأبكيت العلا والمكرمات، جفت عليك مآقي الخرد الغيد، بات آلك والأصحاب كلهم عليك ما بين محزون ومعمود، سيكون فقد امرئ، منتسب بالبشر، منتقب في الناس محمود.

ويقول في قصيدة يرثي بها (سليمان أباطة باشا) ناظر المعارف المصرية (من الخفيف):

أيمـذا الثرى إلام التـمادي	بعد هذا، أأنت غرثان صادي <sup>(١)</sup>
أنت تروى من مدمع كل يوم	وتغذى من هذه الأجساد
قد جعلت الأنعام زادك في الدهر	وقد آذن الورى بالنفاد <sup>(٢)</sup>
لم تلدنا (حواء) إلا لنشقى	ليتها عاطل من الأولاد <sup>(٣)</sup>
أسلمتنا إلى صروف زمان	ثم لم توصها بحفظ الوداد

يتفجع الشاعر أسى في هذه الأبيات على وفاة المرثي، فيخاطب الثرى، أي التراب، سائلاً إياه أأنت جوعان عطشان لتمضي قدماً في فعلك هذا لتلتهم المزيد من أجساد البشر؟؟ ألا تعلم أيها التراب أنك تروي ظمأك من مدامع الثاكليين وتسد جوعك من أجساد الموتى؟

(١) التماذي: المضي قدماً في فعل الشيء.

(٢) الورى: الخلق.

(٣) عاطل من الأولاد: لا أولاد لها.

لقد جعلت الناس لك زادا وتماديت حتى أوشك الخلق على الانتهاء والزوال، ويرى أن أمنا (حواء) كانت سببا في شقائنا حين ولدتنا ويتمنى لو كانت عقيما لا تنجب الأولاد، فهي التي أسلمتنا إلى مصائب الزمان، ولم توصها بحفظ أواصر المحبة والوداد واللفظ بالأنام.

تبدو في هذه الأبيات لوعة الشاعر وتفجعه على المراثي، وعبر عن ذلك بإظهار الثرى في صورة التهامه لأجسام البشر وارتوائه من دموع الثاكليين وتغذيته بأجسام المدفونين واتخاذهم زادا له، وأظهر حواء في صورة من يتسبب بالشقاء للآدميين بعد أن أسلمتهم لصروف الزمان، وكأنه ينظر إلى قول أبي العلاء المعري:

فليت حواء عقيما غدت لا تلد الناس ولا تحبل  
ويقول فيها:

خبرينا جهين لا تكذبينا ما الذي يفعل البلى بالجواد  
كيف أمسى وكيف أصبح فيه ذلك المنعم الكثير الرماد<sup>(١)</sup>

يستخبر الشاعر هنا (جهينة) التي ورد ذكرها في الشعر القديم بقولهم: ((وعند جهينة الخبر اليقين)) يستخبرها عن سر فناء الأجواد والأسياد في التراب، ومنهم المراثي، ماذا فعل به البلى؟، وكيف يكون فيه مساء وصباح هذا الجواد؟.

وكأنني به ينظر في قوله (كثير الرماد) إلى بيت الخنساء في رثائها لأخيها (صخر):

رفيع العماد طويل النجاد كثير الرماد ساد عشيرته أمردا

(١) كثير الرماد: كناية عن الكرم والجود.

ويقول فيها:

رحم الله منه لفظا شهيا	كان أحلى من رد كيد الأعادي
رحم الله منه طرفا نقييا	ويمينا تسيل سيل الغوادي <sup>(١)</sup>
رحم الله منه شهما وفييا	كان ملء العيون في كل نادي
ألهم الله فيك صبرا جميلا	كل من بات ناطقا بالضاد
بت في حلة النعيم وبتنا	في ثياب من الأسى والسهاد
وسكنت القصور في بيت خلد	وسكنا عليك بيت الحداد

يستمطر الشاعر شأبيب الرحمة للفقيد، مستذكرا عذب لفظه وحديثه، وعفته، وكرمه وشهامته ووفاءه، مستلهما الصبر والعزاء الجميل، فقد بات الفقيد ينعم بحلة النعيم، وبات الشاعر والمحزونون في ثياب من الأسى وطول السهر وكثرة الأرق، وسكن المرثي جنة الخلد، وسكن هو والآخرون في بيوت الحزن والحداد.

ولغة الشاعر الحزينة حاضرة في هذه الأبيات قي مثل قوله: ما الذي يفعل البلى بالجواد، كيف أمسى وكيف أصبح، رحم الله منه لفظا شهيا، وطرفا نقييا، ويمينا يسيل سيل الغوادي، وشهما وفييا، ألهم الله فيك صبرا جميلا، بتنا في ثياب من الأسى والسهاد، وسكنا عليك بيت الحداد، كما أن التصوير البياني يبدو واضحا جليا فيها.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمود سامي البارودي) أحد رموز الثورة العربية، والشاعر الأملعي المعروف في مصر (من البسيط):

(١) الطرف: العين، الغوادي: السحاب الممطر في الغداة.

ردوا علي بياني بعد (محمود)      إني عييت وأعيى الشعر مجهودي<sup>(١)</sup>  
ما للبلاغة غضبي لا تطاوعني      وما لجلل القوافي غير ممدود  
ظنت سكوتي صفحا عن مودته      وأسلمتني إلى هم وتسهيدي<sup>(٢)</sup>  
ولو درت أن هذا الخطب أفحمني      لأطلقت من لساني كل معقودي<sup>(٣)</sup>  
يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن فجيعة وحزنه بالفقيد، حتى أنه بات لا يستطيع نظم الشعر ولا النطق لشدة وقع المصيبة عليه.

لقد صور الشاعر إحساسه هذا بلغة تفيض بالحزن والأسى، فبيانه في غياب ويطلب رده عليه، ونظم الشعر استعصى عليه، وذهبت جهوده في محاولته أدراج الرياح، والبلاغة غاضبة لا تنقاد إليه، وحبال قوافي الشعر غير ممدودة، وقد ظنت البلاغة عدم نظمه للشعر اعتذارا عن الرثاء، وأسلمته إلى الهموم والسهر الطويل، لكن غاب عنها أن هذا الحدث الجلل هو الذي أسكته، ولو علمت بذلك لأطلقت عقدة لسانه للقول بهذه المناسبة الخزينة، وقد أورد الشاعر هذه المعاني في صور بيانية رائعها تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

لييك يا مؤنس الموتى وموحشنا      يا فارس الشعر والهيجاء والجود  
لقد نزحت عن الدنيا كما نزحت      عنها لياليك من بيض وسود

(١) عييت: عجزت.

(٢) التسهيد: الحزن والأرق وعدم النوم.

(٣) أفحمني: أسكتني.

أغمضت عينيك عنها وازدريت بها  
ليك يا شاعرا ضن الزمان به  
قبل الممات ولم تحفل بموجود  
على النهى والقوافي والأناشيد  
يستحضر الشاعر الفقيد، وكأنه يناديه، فيجيبه ملبيا نداءه، قائلا له إن قبرك يؤنس الموتى  
حولك؛ لكنه أوحش الأحياء بموته وغيابه، ويضيف لقد كنت فارس الشعر والحرب  
والكرم، ولم تحفل بالدنيا وعرضها، فقد صرفت عينيك عنها ونظرتها نظرة ازدراء، واحتقار  
قبل أن ترحل، ولم تكن تحفل بما هو موجود بين يديك فيها.

هكذا صور الشاعر شدة وقع المصيبة عليه، وبين ما للفقيد من صفات حميدة قبل الممات  
وبعده، فقبره مؤنس للموتى، وموحش للأحياء، وعيونه ودعت الدنيا وزخارفها، وعز على  
الزمان أن يوجد بمثله أديبا وشاعرا وفارسا مقداما، ولغة الحزن موجودة في هذه الأبيات  
ظاهرة في ألفاظها، وفي هذه الألفاظ والعبارات تظهر الصور البيانية التي زادت المشهد تأثرا  
وتأثيرا.

ويقول فيها:

يا ويح للقبر قد أخفى سنا قمر  
مقسم الوجه محمود التجاليد<sup>(١)</sup>

يدعو الشاعر على القبر الذي أخفى كوكبا نيرا ووجها جميل القسمات وجسما محمود  
البشرة والجلد:

(١) التجاليد: كناية عن البشرة وجلدة البدن.

ويقول فيها:

محمود إني لأستحيك في كلمي      حيا وميتا وإن أبدعت تقصيدي  
فاعذر قريضي واعذر فيك قائله      كلاهما بين مضعوف ومحدود  
يأخذ الشاعر على نفسه عهدا بأنه سيقى يحيي (الفقيد) في شعره حيا وميتا، ويطلب منه  
أن يعذر شعره وقائله، فكلاهما بين مضعوف ومحدود، وكأنه يشعر بعدم إيفاء المراثي حقه من  
الإطراء.

ويقول في قصيدة يرثي بها (ملك ناصف) المعروفة باسم باحثة البادية، وهي من سيدات  
مصر المشهورات في الدفاع عن حرية المرأة (من مجزوء الكامل):

(ملك) النهى لا تبعدي      فالخلق في الدنيا سير  
إني أرى لك سيرة      كالروض أرجه الزهر<sup>(١)</sup>  
ربي أبوك الناشئين      فعاش محمود الأثر  
وسلكت أنت سبيله      في الناشئات من الصغر

يثني الشاعر على (ملك ناصف) فهي إنسانة ذات مواهب عقلية وفكرية، وهي ذات  
سيرة طيبة وحسب أصيل، وتربية حكيمة، وفضيلة حميدة.

لقد أورد الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والإكبار للمريثة، فسيرتها عطرة كالروض  
الذي فاح عقب أزهاره وانتشر في الأرجاء، وقد عبر عنها الشاعر في ثوب من الصور البيانية  
الجميلة.

(١) أرجه: عطره.

ويقول فيها:

فخـرت بوالـدها ووالـدها بحـليـتها افتـخر  
بـالـعلم حـلت صـدرها لـا بـالـآلئـى والـدر  
فـانـظـر شـمائل فـكرها بـالله يـوم (المـؤمـر)  
واقـرأ (مـحـاضـرة الجـريـدة) والمـقـالات الغـرر  
وارـجـع إلـى ما أودـعت عـند المـجـلات الكـبر  
تـعلم بـأنـا قـد فقـدنا خـير ربـات الفـكر  
ذـنـب المـنـيـة فـي اغـتـيال شـبابها لا يـغـفـر  
يـالـيتها عـاشـت (مـصر) ولم تـغيـها الحـفر

يتفجع الشاعر في هذا المقطع على الفقيدة الأدبية التي كانت تفخر بوالدها وإبداعه في فن الكتابة كما يفخر بها والدها بما هي عليه من مواهب متعددة، وقد كانت مثالا للفضيلة والإصلاح، وأنموذجا للشماثل الرفيعة، كما كانت ذات حضور لافت في عالم الكتابة والإبداع، وكان قلمها سيالا لا يفتر ولا يعرف الملل، فمقالاتها وكتابات مودعة لدى المجلات الكبيرة، ولكن المنية ارتكبت ذنبا لا يغتفر حين اختطفها وهي في ميعة الشباب، فليتها عاشت طويلا من أجل مصر والمصريين، بهذه اللغة الشفافة أعرب الشاعر عن إحساسه بالحسرة لفقد الميراث التي اتخذت من العلم زينة حلت به صدرها، لا بالآلئى والدرر، والتصوير البياني زاد هذا التعبير جمالا وتأثيرا.



ويقول فيها:

لا كان يومك يوم لاح الحزن مختلف الصور  
علمت هاتفة القصور نواح هاتفة الشجر  
وتركت أتراب الصبا حزنا يقطع عن الشعر  
يكيين عهدك في الصباح وفي المساء وفي السحر  
أنالم أذق فقد البنين ولا البنات على الكبر  
لكنني لما رأيت فؤاده وقد انفطر  
أدركت معنى الحزن حزن الوالدين فما أمر  
وشهدت زوجك مطرقا مستوحشا بين السمر  
فعلمت أنك كنت عقد هنائه فقد انتشر

يصور الشاعر في هذا المقطع حالة الهلع والفرع التي اعترت الجميع لفقد (ملك ناصف) حزن أترابها ورفيقاتها، حزن والدها المفجوع، حزن زوجها الملتاع المعنى، حزن الشاعر نفسه حين عرف حزن الوالدين على فلذات الأكباد، فحزنهم وبكاؤهم لا ينقطع، والشاعر لم يمر بتجربة فقد البنين ولم يعرف لوعة فقدهم إلا عندما رأى ما كان عليه والدها وزوجها من أمارات الحزن والأسى لفقد (ملك).

لقد أعرب الشاعر عن هذا الحدث بلغة تنطق بالحزن والأسى وأورد فيها من الصور البيانية ما زادها قوة وتأثيرا في النفوس كقوله: يوم لاح الحزن مختلف الصور، وعلمت هاتفة القصور (أي المرأة النائحة)، النواح لهاتفة الشجر (أي الطير الهادلة)، أتراب الصبا يقطع عن

الشعر، لما رأيت فؤاده وقد انفطر، شهدت زوجك مطرقاً مستوحشاً بين الصور، كنت عقد  
هنائه وقد انتثر.

ويقول فيها:

صبرا أباً (ملك) فإن الباقيات لمن صبر  
يأبره بالوالدين أبوك بعدك لا يقرر  
فسلي إلهك سلوة لأبيك فهو به أبر  
وليهنك الخدر الجديد فذاك دار المستقر<sup>(١)</sup>

يطلب الشاعر من والد (ملك) أن يتحلى بالصبر على المصائب، ويطلب من (ملك)  
البارة بالديها بأن تضرع إلى الله أن يلهم أباه الصبر والسلوان فهو بهما أجدر وأحق.. كما  
يبارك للفقيده بموئلتها الأخير، ملتصقا ومنها الرحمة لوالديها والدعاء لهما.

لغة سهلة معبرة ذات دلالات عميقة صور بها الشاعر لوعة الآباء المفجوعين بأولادهم  
وكأن لسان حاله يحكي قول الشاعر:

أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض  
لقد توزعت ألفاظ الشاعر وعباراته في هذه الأبيات التي اجتزأناها من القصيدة،  
توزعت بين الإعجاب بالمرثية والتأثر البالغ لفقدها، وقد ظهرت فيها اللغة الملتاعة التي  
تمثلت في قوله: ذنب المنية في اغتيال شبابها لا يغتفر، يا ليتها لم تغيبها الحفر، يوم لاح الحزن

(١) الخدر الجديد: كناية عن موئلتها وهو القبر.

مختلف الصور، تركت أتراب الصبا حزنا يقطعن الشعر، يبكين، أدركت معنى الحزن، حزن  
الوالدين، مطرقا مستوحشا، صبرا أبا (ملك).

ويقول الشاعر في قصيدة يرثي بها (اسماعيل صبري باشا) المحامي والقاضي والشاعر  
المعروف (من المتقارب):

نعاك النعاة وحم القدر	ولم يغن عنا وعنك الحذر <sup>(١)</sup>
طوت ذبحة الصدر صدر الندي	فلم تطو إلا سجل العبر <sup>(٢)</sup>
فأمسيت تذكر في الغابرين	وإن قل مثلك فيمن عبر <sup>(٣)</sup>
اهني الثرى أم أعزي الورى	لقد فاز هذا وهذا خسر <sup>(٤)</sup>
إذا ذكرت سير النابهين	فسيرة (صبري) تجب السير

يستهل الشاعر في هذه الأبيات مرثاته معربا عن أثر الفجعة بالفقيد الذي كان مثالا للبر  
والتقوى ولنباهة الذكر.

لقد صور الشاعر فجيعته بالفقيد بهذه اللغة التي تفيض حزنا وأسى، بدا ذلك من خلال  
ألفاظها التي تمثلت في قوله: نعاك النعاة وحم القدر، لم يغن عنا وعنك الحذر، طوت ذبحة  
الصدر صدر الندي، ثم يأتي تصويره البليغ حين عبر عن حيرته في إزجاء التهئية أهو يهنئ  
التراب أم يعزي الناس؟ وحيال هذا التساؤل يرى أن الثرى (التراب) ربح باحتضان جثمان

(١) حم القدر: حان القدر.

(٢) الندي: النادي والمحفل.

(٣) الغابرون: الماضون.

(٤) الثرى: التراب.

المرثي بينما خسر الوري (الناس) بغيابه عنهم، كما ظهر فيها التجانس بين الثرى والورى والمطابقة بن فار وخسر، وسيرته العطرة تجب سيرة الناهبين الذين غبروا ومضو قبله.

ويقول فيها:

وشعرك كالماء في صفوه	على صفحته تراءى الصور
عيون القصائد مثل العيون	وشعرك فيهن مثل الحور <sup>(١)</sup>
وكم لك شكوى هوى أو أسى	لها نفثات تذيب الحجر
وكم كنت تشعل فحم الدجى	بأنفاس صب طويل السهر <sup>(٢)</sup>
فيا ويح قلبك ماذا ألح عليه	من الداء حتى انفطر <sup>(٣)</sup>
أينفك تحت الدجى وحده	لذكرى أليف سلا وهجر <sup>(٤)</sup>
إذا قيل (صبري) ذكرت (الوليد)	ومرت بنفسي ذكرى (عمر) <sup>(٥)</sup>

ينوه الشاعر في هذه الأبيات بعبقريّة الفقيّد الشعريّة، وعذوبه أشعاره، وتنوع أغراضه من شكوى وغزل وغيرها من الأغراض الوجدانية الصادرة عن قلب صادق الحس والفكر والشعور.

(١) الحور: شدة سواد العين وبياضها.

(٢) الصب: العاشق المهيان.

(٣) انفطر: تشقق.

(٤) الأليف: الحبيب والرفيق.

(٥) الوليد: هو اسم البحري الشاعر العباسي، وعمر: هو عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزل.

وقد أعرب الشاعر عن إحساسه هذا بلغة تتابعت فيها الصور البيانية، فشعر المرثي كالماء في صفوه، وعيون قصائده المشهورة كعيون اللواتي يتغزل بهن من النساء الحسنات، وغزله فيهن كالحور في عيونهن، وظلام الليل كان يشعله بنفثات وتأوهات عاشق مغرم بالحسان، وشكواه من الحب والأسى نفثات تصهر الحجارة الصلبة، والداء ألح على قلبه حتى انخلع، وهو دائم الخفقات في ظلمة الليل لذكرى حبيب سلاه وهجره.

وإذا ذكر اسماعيل صبري في غزله تبادر إلى الذهن حضور الوليد (أسم البحري الشاعر العباسي) كما تتمثل أمامه صورة الشاعر عمر بن أبي ربيعة في حبه وغزله...

تظهر في هذه الأبيات وغيرها من أبيات القصيدة المبالغة والتهويل في التعبير عن إحساسه تجاه الفقيد، كما تظهر في تعداد مناقب الفقيد.

ويقول فيها:

خلعت الشباب فلم تبكه	وساءك أنك لم تحتضر
وقد ذقت طعم الردى عندما	أصيب قطارك يوم السفر
فأقسمت أنك ألفتيه	لذيذ المذاقة إذ تحتضر
تمنيت أن لم تعد للحياة	ولكن أباه عليك القدر

ينوه الشاعر من جديد بأخلاق الفقيد، زهده في الشهرة، صبره في البلاء، وخاصة عندما تعرض للموت في حادث قطار أثناء سفره.

تبدو المبالغة في هذه الأبيات كما تبدو الصور البيانية في لغتها الحزينة، فالمرثي يخلع ثياب شبابه ولا يبلى، ويسوؤه عدم موته، ويذوق طعم الردى (الموت) يوم سفره في حادث قطار،

ويقسم أنه وجد الموت لذيق الطعم وهو يحتضر، ويتمنى ألا يعود للحياة مرى أخرى، ولكن القدر لا يستجيب لأمنيته.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمد سليمان أباطة) الضابط الإداري الناجح (من السريع):

من لم يذق فقد أليف الصبا	لم يدر ما أبدي وما أضمر <sup>(١)</sup>
أفقدني الموت به وافيًا	لا يعرف الختل ولا يغدر <sup>(٢)</sup>
تقرأ في عينيه كل الذي	في نفسه عن نفسه يستر
ثلاثة لم تعر عن عفة	لسانه والذيل والمئزر <sup>(٣)</sup>
أوشك أن يفقره جوده	ومن صنوف الجود ما يفقر
أصيب فيه المجد يوم انطوى	والعرف والسائل والمعسر <sup>(٤)</sup>

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن فجيئته بصديقه الفقيد، فقد كان مثالا للوفاء والصدق والإخلاص والعفة والكرم، وقد صاغ الشاعر هذه المعاني في صور تعبيرية رائعة لم تخل من المبالغة، فمن لم يذق فقد أليف الصبا، لا يعرف ما يديه الشاعر وما يخفيه، ففقده فقد الوفاء والصدق والإخلاص والشفافية، فهو لا يعرف المراوغة والكذب والغدر، دافئ اللسان، شريف عفيف طاهر الذيل، كريم جواد قاده جوده إلى الفقر، وبموته أصيب المجد، والعرف السائد، والسائل المحتاج، والفقير المعسر.

(١) الأليف: الرفيق، أضمر: أخفي: أستر.

(٢) الختل: الغدر.

(٣) المئزر: الثوب.

(٤) المعسر: الفقير المعدم.

ويقول فيها:

فكم لنا من مجلس طيب	يشتاقه (هارون) أو (جعفر)
نلعب باللفظ كما نشتهي	ونضم المعنى فما يظهر
ونرسل النكتة محبوبكة	عن غيرنا في الحسن ولا تصدر
ثم انطوى هذا وهذا وما	يطوى من الأيام ما لا ينشر
كم دوحة أودى بها عاصف	والنجم من مأمنه ينظر <sup>(١)</sup>

يتذكر الشاعر في هذه الأبيات وأبيات أخرى سبقتها أيام صباه بصحبة المرثي ومجموعة أخرى من الأصدقاء والأصحاب، ويصف الشاعر هذه الأيام بأنها كانت مجالس طيبة أنيسة يشتاقيها هارون الرشيد الخليفة العباسي ووزيره جعفر من آل برمك، كان الشاعر وصحبه يتجاذبون الأحاديث الشهية المحببة للنفوس يلعبون بالفاظها حيناً ويضمرون معناها حيناً آخر، وكان وصحبه يرسلون النكت المضحكة الذكية ولكن كل هذه المجالس والذكريات طوتها الأيام ولم تعد تذكرها، فكم من شجرة كبيرة اجتثتها الرياح العاصفة، والنجم ينظرها أمناً في سمائه، ولا يخفى ما تضمنته هذه الأبيات من الألفاظ والعبارات التي تحمل معاني الأسى والحزن على أيام الصبا الخوالي.

ويقول في قصيدة يرثي بها الزعيم الوطني (مصطفى كامل) وقد أنشدها في حفل أقيم إحياء لمرور أربعين يوماً على وفاته (الأربعينية) (من الكامل):

(١) الدوحة: الشجرة الكبيرة.



نثروا عليك نوادي الأزهار  
وأثيت أنثر بينهم أشعاري<sup>(١)</sup>  
زين الشباب وزين طلاب العلا  
هل أنت بالمهج الحزينة داري؟<sup>(٢)</sup>  
غادرتنا والحادثات بمرصد  
والعيش عيش مذلة وإسار  
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا  
عاد وصاح الصائحون بدار<sup>(٣)</sup>  
يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حزنه وأسأه لفقد هذا الزعيم الوطني الكبير الذي  
ترك فراغا ما بعده فراغ في الساحة الوطنية المصرية.

بهذا الاستهلال يصور الشاعر وداع المصريين للفقيد (مصطفى كامل)، فقد نثروا  
الأزهار الندية الطرية على قبره، وتقدم الشاعر ناثرا عليه أشعاره الحزينة، واصفا إياه بزين  
الشباب وزين طلاب العلا، ولا يدري فيما إذا كان الفقيد داريا بنفوس المصريين التي تتفطر  
حزنا عليه، لقد غادر المرثي مصر والحادثات ترصدهم، وعيشهم عيش مذلة وهوان وقهر،  
وكم كانت حاجة المصريين إليه إذا ما اعتدى عليهم ظالم، واستغاثه المستغيثون ليسارع  
لنجدتهم.

ويقول فيها:

تسعون ألفا حول نعشك خشع  
يمشون تحت (لوائك) السيار  
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى  
للحزن أسطارا على أسطار

(١) نوادي الأزهار: الأزهار الندية الرطبة منها.

(٢) المهج: النفوس.

(٣) عدا: ظلم، بدار: اسم فعل أمر بمعنى سارع.

أنا يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكعبة الزوار<sup>(١)</sup>  
وتخالهم أنا لفرط خشوعهم عند المصلى ينصتون لقاري  
غلب الخشوع عليهم فدموعهم تجري بلا كلح ولا استنثار<sup>(٢)</sup>

يصور الشاعر مهابة موكب تشيع المرثي وسط الآلام والصياح والجلبة والتهنيدات،  
والخشوع وانهمار الدموع حزنا على الفقيد.

وقد جاء هذا التصوير مفعما بلغة الحزن والأسى، فنعش الفقيد يحيط به تسعون ألفا من  
المشييعين خاشعين ذاهلين سائرين تحت لوائه السيار، ودموع الحزن خطت على وجه التراب  
خطوطا تعلوها خطوط، وضجيج صياحهم يتوالى فكأنهم جموع الحجاج في زيارة الكعبة  
لا هجين بالتلبية والدعاء، مستسلمين للخشوع وذرف الدموع التي تسيل غزيرة ودونها  
عبوس وتهجم.

وهذه الأبيات وسابقتها لا تخلو من المبالغة والتهويل، وقد يكون للشاعر عذره فهو  
منفعل بالحدث أشد الانفعال الذي ذهب به إلى هذا الحد من المبالغة والتهويل الذي يبدو  
واضحا في تصويره لمشهد التشيع، إضافة إلى ما ورد فيها من الصور البيانية.

ويقول فيها:

قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سيل دافق وشرار  
أسمى فيأخذني اللهيب فأئنثي فيصني متدفق التيار

(١) الحجيج: جماعة الحجاج، حجاج بيت الله الحرام.

(٢) كلح: عبوس وتهجم.

## لوم ألد بالنعش أو بظلاله لقضيت بين مراحل وبحار<sup>(١)</sup>

يلتفت الشاعر في هذه الأبيات إلى تصوير حاله أثناء تشييع الفقيد، حيث كان بين حشود المشيعين الذين يذرفون الدموع وينفثون الزفرات في مشهد مهيب، مما دفع الشاعر إلى البحث عن موضع يلوذ إليه ليحمي نفسه من هذا السيل الجارف الذي يوشك أن يجرف كل ما يصادفه في طريقه، وحيال هذا المشهد يكاد الشاعر يقضي من شدة هذا الزحام وهذا الحشد الذي يصعب وصفه.

هكذا يصور الشاعر تشييع الفقيد، مستخدماً لغة حزينة أليمة ممزوجة بالمبالغة والتهويل جاءت في صور تعبيرية متتالية، فالشاعر كان أثناء التشييع تحت دموع المشيعين وزفراتهم، وكان بين سيل جارف من الدموع وشرار قادم من الزفرات، كان يسعى فيأخذه هيب الزفرات فينثي، فيصده تيار متدفق من الدموع، وكاد يقضي من أثر الزحام، فيبادر إلى الاحتماي بالنعش وبظلاله.

ويبدو في هذه الأبيات كما في غيرها من أبيات القصيدة، استخدام لغة المبالغة والتهويل، وخاصة عندما يصور دموع المشيعين التي شكلت بحارا مائجة هائجة يلتهم تيارها من يدنو منها، وعندما يصور زفرات المشيعين التي شكلت مراحل نارية تحرق من يقترب منها، وكذلك عندما يصور نفسه في صورة الواقع ما بين الخشية من دموع المشيعين وما بين الخوف من نيران زفراتهم فيلجأ إلى النعش وظلاله طالبا منه حمايته.

ولكن هذا خيال لشاعر وهذا إحساسه وانفعاله!!

---

(١) المراحل والبحار: أي مراحل الدموع والزفرات وبحار البشر ودموعهم.

ويقول فيها:

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى	هتكت عليك حرائر الأستار <sup>(١)</sup>
سفرت تودع أمة محمولة	في النعش لاخبرا من الأخبار <sup>(٢)</sup>
أمنت عيون الناظرين فمزقت	وجه الخمار فلم تلذ بخمار <sup>(٣)</sup>
قد قام ما بين العيون وبينها	ستر من الأحزان والأكدار <sup>(٤)</sup>

يصور الشاعر في هذه الأبيات حال النسوة اللاتي شاهدن موكب التشيع، لقد كن نادبات مولولات باكيات حزينات.

وهنا يأتي الشاعر على دور المرأة في المشاركة بالتشيع، فكم من امرأة مصرية عندما علمت بموت الفقيد بادرت إلى تمزيق ما عليها من ثياب حريرية حزنا عليه، وقد خرجت سافرة تودع أمة محمولة في رجل (في النعش) لا فردا واحدا من الأفراد، وبادرت إلى تمزيق خمارها عندما أمنت عيون الناظرين ولم تستتر بخمار آخر، لأن الأحزان والآلام البادية على وجوه المشيعين شكلت ساترا ما بينها وبين عيونهم.

لا شك أن المبالغة في إبراز حزن النساء واضحة في لغة الشاعر، فذات الخدر هتكت حرائر الأستار، وسفرت تودع أمة محمولة في النعش وليس رجلا واحدا، وأمنت عيون

(١) ذات الخدر: كناية عن المرأة، الخدر: الستر، هتكت: مزقت.

(٢) سفرت: خرجت سافرة وأبدت زينتها وشعرها.

(٣) الخمار: غطاء الرأس للمرأة.

(٤) الأكدار: الأحزان.

الناظرين أثناء التشييع فمزقت خمارها، وقام ما بين العيون وبينها ستر من الأحرار والأكراد:

ويقول فيها:

واها على تلك المواقف إنها كانت مواقف ليث غاب ضاري<sup>(١)</sup>  
فاهناً بمنزلك الجديد ونم به في غبطة وانعم بخير جوار<sup>(٢)</sup>  
واستقبل الأجر الكبير جزاء ما ضحيت للأوطان من أوطار<sup>(٣)</sup>  
نعم الجزاء ونعم ما بلغته في منزليك ونعم عقبى الدار

يتحسر الشاعر في هذه الأبيات على مواقف الفقيد الجريئة الشجاعة، ويتمنى له الراحة في منزله الجديد والهناء وحسن الثواب والجزاء.

ولغة التحسر والحزن ظاهرة في هذه الأبيات، تبدو في قوله: واها على تلك المواقف، فاهناً بمنزلك الجديد، ونم به في غبطه، وواضح التصوير في قوله كانت مواقف ليث غاب ضار، عندما شبه الفقيد بأسد غاب شجاع جريء.

وصفوة القول في هذه الأبيات المستلثة من قصيدة طويلة قالها الشاعر في أربعينية (مصطفى كامل) إنها جاءت طافحة بالفاظ الحزن والأسى والمبالغة في آن واحد...

ويقول في قصيدة يرثي بها الشاعر (عبد الحليم المصري) (من الطويل):

(١) واها: أسفا وحسرة، وضار: شجاع.

(٢) الغبطة: السرور.

(٣) الأوطار: جمع وطر: وهو الغاية.

لك الله قد أسرع في السير قبلنا  
وأثرت يا (مصري) سكنى المقابر  
وقد كنت فينا يا فتى الشعر زهرة  
تفتح للأذهان قبل النواظر  
فلهفي على تلك الأنامل في البلى  
فكم نسجت قبل البلى من مفاخر<sup>(١)</sup>  
ويا ويح للأشعار بعد نجيها  
وويح القوافي ساقها غير شاعر<sup>(٢)</sup>

في هذه الأبيات يتلهف الشاعر حسرة على صديقه الذي قضى سريعا وهو في ميعة الصبا.

لقد صور الشاعر هذه الحسرة بلغة زانتها الصور البيانية كمثل قوله: كنت فينا يا فتى الشعر زهرة، وكم نسجت قبل البلى من مفاخر فلهفي على تلك الأنامل، كناية عن نظمه للشعر الجيد.

ويقول فيها:

وأورثتنا حزنا عليك وحسرة  
على فقد سباق كريم المحاضر  
فلم تشويا (عبد الحليم) بحفرة  
ولكن بروض من قريضك ناضر  
عليك سلام ما ترنم منشد  
وقام خطيب فوق هام المنابر<sup>(٣)</sup>

يذكر الشاعر هنا أن أشعار المرثي أورثت المصريين حزنا وحسرة، فقد كان سباقا إلى كل فعل حسن، وكان ذا حضور كريم، ويرى أن المرثي ثوى برياض من الشعر، لا بحفرة من

(١) البلى: الرثاء والفناء.

(٢) نجيها: مناجيها.

(٣) هام المنابر: رؤوسها، ترنم: تغنى.

التراب، ويتمنى للفقيد الرحمة والهناء في منزله الجديد، مسلماً عليه سلاماً موصولاً ما شدا  
شاعر بشعره وقام خطيب على المنابر ناثر ادرر كلامه.

ولقد أورد الشاعر في هذه الأبيات ألفاظاً تحمل معاني الأسى والحزن واللوعة وتحالطها  
المبالغة، كمثّل قوله: آثرت سكنى المقابر، فلهفي على تلك الأنامل في البلى، فكم نسجت قبل  
البلى من مفاخر، ويا ويح للأشعار بعد نجيتها، ويح القوافي ساقها غير شاعر.

ويقول في قصيدة يرثي بها (عبد الحليم العلايلي) النائب في مجلس الشعب المصري (من  
الخفيف):

يا بن (عبد السلام) لا كان يوم	غبت فيه عن هالة الأحرار <sup>(١)</sup>
كنت فيهم كالرمح بأسا ولينا	كنت فيهم كالكوكب السيار
كنت فرعاً بدوحة العز تأوي	تحت أفنانه عفاة الديار <sup>(٢)</sup>
قصفته المنون وهو نضير	مورق عوده جني الثمار <sup>(٣)</sup>
كنت تأسو جراحهم وتقبيهم	وتقيل العثار عند العثار <sup>(٤)</sup>

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حسرته وحزنه على الفقيد، الرجل الوطني الحر  
العريق النسب والحسب، المجاهد المتحرر والسباق لنصرة الآخرين.

(١) الهالة: دائرة القمر أو الشمس .

(٢) الفرع: الغصن، الدوحة: الشجرة العظيمة، العفاة: طالبو المعروف والجود .

(٣) نضير: ريان زاهر، جني الثمار: كثيرها .

(٤) تأسو: تعالج، العثار: السقوط .



يصور الشاعر مكانة المرثي بين صحبه من الأحرار، مستخدماً لغة الإعجاب والإكبار  
ممزوجة بالحزن والتحسر للغياب عنهم، فهو هالة الأحرار، ورمج البأس واللين، والكوكب  
السيار بين الوطنيين، اختطفه الموت وهو في مقتبل العمر النضير، وفي قمة عطائه الكثير،  
والمواسي لجراح المكالمين، والمقبل لعثرة العاثرين ... وقد ساق الشاعر هذه المعاني في صور  
بيانية تمثلت في التشبيهات والاستعارات كمثل قوله: كنت فيهم كالرمح، كنت فيهم  
كالكوكب السيار، قصفته المنون وهو نضير، مورك عوده جني الشار، تأسو الجراح، تقيل  
العتار.

ويقول في البيت الأخير من القصيدة:

فمن الحزن ما يدك الرواسي      ومن الحزن ما يهد الضواري  
يعود الشاعر ثانية للتعبير عن لوعته وحزنه وتبلغ حداً في تأثيرها عليه إلى درجة تهتز منه  
الجبال وتفت فيه شجاعة الشجعان، والمبالغة حاضرة بصورة ملحوظة في هذا البيت.  
ويقول في قصيدة: نشدها في حفل أقيم لذكرى مرور أربعين يوماً على وفاة (رياض  
باشا) رئيس مجلس النظار (من الطويل):

رياض أفق من غمرة الموت واستمع      حديث الوري عما كنت تصنع  
أفق واستمع منى رثاء جمعته      تشاركني فيه البرية أجمع  
لتعلم ما تطوي الصدور من الأسى      وتنظر مقروح الحشا كيف يجزع  
لئن تك عمرت دهر القديكى      عليك مع الخلائق أربع

مضاء وإقدام وحزم وعزيمة من الصارم المصقول أمضى وأقطع<sup>(١)</sup>

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات الفقيد مستحثاً إياه على الاستماع لحديث الناس عنه فيما فعله من صنائع حميدة، وليعلم ما تنطوي عليه صدورهم من الحسرة على فقدته، وينظر ما يعتلج في أحشائهم من قروح وجروح، وقائلاً له: لئن كنت عشت طويلاً ثم رحلت فلقد بكى عليك مع الناس أربعة أمور: مضاء وإقدام وحزم وعزيمة أشد حدة وقطعا من السيف المحكم الصنع.

هكذا يصف الشاعر هذا المشهد في تأيين الفقيد (رياض باشا)، مصوراً ما تنطوي عليه الصدور من اللوعة والحسرة على فقدته، وجامعاً الرثاء الذي يشاركه فيه جميع الناس، فالأسى يعيش في صدورهم، والجروح والقروح تدمى بها أحشاؤهم، ومع عمر المرثي الطويل بكته بعد رحيله شمائل أربع، مضاء وثبات على المبادئ، وإقدام وشجاعة في معمرة المخاوف، وحزم وصمود في تنفيذ المبادئ، وعزيمة أشد حدة من السيف الصارم، لا تلين ولا تضعف. كما هو ملاحظ الأبيات لا تخلو من المبالغة المشوبة بالحزن والإشفاق على المرثي.

ويقول فيها:

وكم لك في (مصر) وفي (الشأم) من يد لها أين حلت نفحة تنضوع<sup>(٢)</sup>  
رفعت عن الفلاح عبء ضريبة ينوء بهل أيام لا غوث ينفع<sup>(٣)</sup>

(١) الصارم: السيف، أمضى أكثر مضاء وحدة وقطعا، الخلائق: الطبائع، مقروح: مجروح، البرية: الناس.

(٢) يد: فضل، نعمة، تنضوع: تفوح وتنشر.

(٣) عبء، ثقل، ينوء: يشقى.

وأرهبتم حكام الأقاليم فارعوا<sup>(١)</sup> وكانوا أناسا في الجهالة أوضاعوا<sup>(٢)</sup>

فخافوك حتى لو تناجوا بنجوة خالوا (رياضا) فوقهم يتسمع

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حسرته ولوعته على الفقيد الذي كان ناصرا وعونا للفلاح، وإنصافا له في وقوفه في وجه الحكام المستبدين.

ويظهر في هذه الأبيات تصوير الشاعر ليد المرثي التي عم خيرها أرجاء مصر وعقت نفحة عطره تفوح بشذاها الذي يسر أنوف مستنشقيها، والتي خلصت الفلاح من عبء الضرائب، التي ينوء بها، والمرثي مهيب مخوف أرهب الحكام الجائرين الظالمين الذي كانوا يحسبون له ألف حساب ويتخيلونه فوقهم لو تناجوا فيما بينهم بنجوى، أو نبسوا بينت شفة رهبة وفزعا منه.

ولا يخفى ما يظهر في هذه الأبيات من مبالغة وبخاسة في البيت الرابع منها، وهي مبالغة درج الشاعر على تضمينها في رثائه، وهذا يعود إلى عاطفة الشاعر تجاه من يرثيه، كما أشرنا إلى ذلك آنفا ومرارا.

كما أن ألفاظ الحزن حاضرة في الأبيات التي اجتزأناها من قصيدة طويلة، في مثل قوله: أفق من غمرة الموت واستمع، استمع رثاء جمعته، تطوي الصدور من الأسى، مقروح الحشا، كيف تجزع، بكى عليك مع الباكي أربع، ينوء بها أيام لا غوث ينفع.

(١) فارعوا: عادوا إلى وعيهم ورشدهم.

(٢) تناجوا: تكلموا سرا ومناجاة.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمد المويلحي) وكان من بين المشيعين في جنازته (من السريع):

غاب الأديب أديب (مصر) واختفى      فلتبكه الأقلام أو تتقصفا<sup>(١)</sup>  
لهفي على تلك الأنامل في البلى      كم سطرت حكما وهزت مرهفا<sup>(٢)</sup>  
مات (المولحي) الحسان ولم يمت      حتى غزا ((عيسى)) العقول وثقفا<sup>(٣)</sup>

يأسى الشاعر في هذه الأبيات لوفاة المويلحي الكاتب والأديب الأملعي المشهور. وجاء تعبير الشاعر عن هذا الإحساس بلغة مصورا فيها معاني الحزن، فالمرثي غاب وانتهى، ولتتقدم أقلام الأدباء لثريته وإلا فمن الأفضل أن تتكسر، ولهفة الشاعر الحرى على الفقيد لا توصف، وأنامل المرثي سطرت الحكم البليغة، وهزت المسامع المرهفة، مات المويلحي الفائق الحسن، ولكنه لم يمت إلا بعد أن بهر كتابه الموسوم بـ (حديث عيسى بن هشام) العقول وأسر القلوب ببلاغته وروعة بيانه.

وفي بيتين قلما ارتجالا حالما قوبل بالتصفيق وهو يهيم بإلقاء قصيدة يرثي بها (اسماعيل صبري) (من السريع):

أكثرتم التصفيق في موطن      كان البكا فيه بنا أليقا  
فأكرموا (صبري) بإنصاتكم      وليعذر الدمع إذا صافقا

(١) تتقصف: تتكسر.

(٢) المرهف: صفة للسيف.

(٣) الحسان: الفائق الحسن، للمبالغة، والمقصود بـ (عيسى) كتاب الفقيد الموسوم بـ (عيسى بن هشام).

يعترض الشاعر على التصفيق الذي علا احتفاء به، قائلاً لمن أكثروا التصفيق كان الأجدر بكم أن تكثروا من ذرف الدموع على الفقيد طالبا إليهم أن يكرموا المرثي بالإنصات لما سينشده حزنا عليه، وأن يصفقوا بدموعهم قبل أن يصفقوا بأكفهم.

ويظهر في البيتين التصوير الرائع والمبالغ فيه في قوله: وليعذر الدمع إذا صفقا فقد جعل من الدمع شخصا يمتلك القدرة على التصفيق.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمد أبو شادي) الصحفي والمحامي والنائب في ذكره (من السريع):

عجبت أن جعلوا يوما لذكراكا      كأننا نسينا يوم منعاكا<sup>(١)</sup>  
إذا سلت يا (أبا شادي) مطوقة      ذكر الهديل فثق أنا سلوناكا<sup>(٢)</sup>  
في مهجة (النيل) والوادي وساكنه      رجع لصوتك موصول بذكراكا  
يأسى الشاعر في هذه الأبيات على فقد المرثي الذي ما زال حيا في قلوب المصريين، ويبيدي عجبه من أن يجعل المصريون يوما لذكرى وفاة الفقيد، وكأنهم نسوا يوم نعيه، لكن الشاعر يؤكد على عدم نسيانه، قائلاً: نكون قد نسيناك إذا كانت الحمامة المطوقة تستغني عن هديلها فوق الشجر، وهذا من المحال، فأنت لا زلت تعيش في مهج المصريين وواديهم (النيل) وصدى أصواتهم موصول بذكر صوتك.

(١) منعاك: نعيك.

(٢) المطوقة: الحمامة ذات الطوق في العنق.

ولغة الحزن ظاهره في الأبيات في مثل قوله: يوم منعاك، سلت مطوقة، سلوناكا، رجع لصوتك.

ويقول فيها:

يا مدمن الذكر والتسبيح محتسبا      هأنت في الخلد قد جاورت مولاكا  
لو لم يكن لك في دنياك مفخرة      سوى (زكي) لقد جهلت دنياكا  
يطمئن الشاعر الفقيد إلى أنه سيكون نزيل جنان الخلد في جوار ربه، ويثني على خلفه وولده (زكي) أي (أحمد زكي أبو شادي).

يصور الشاعر إحساسه في هذين البيتين تجاه الفقيد بلغة تترجم حياة الفقيد الدينية فقد كان دائم التلاوة للقرآن الكريم وتسبيح الله مدمنا عليهما، ولهذا طاب منزلا في رحاب الرحمن مولاه، ومفاخر الفقيد في دنياه عديدة، وإذا ما سكت عن ذكرها فيكفيه فخرا خلفه أحمد زكي أبو شادي ...

ويقول في قصيدة يرثي بها (قاسم أمين) نصير المرأة (من الكامل):

لله درك كنت من رجل      لو أمهلتك غوائل الأجل<sup>(١)</sup>  
خلق كأنفاس الرياض إذا      أسحرن غب العارض الهطل<sup>(٢)</sup>  
وشمائل لو أنهما مزجت      بطبائع الأيام لم تحل<sup>(٣)</sup>

(١) الغوائل: المصائب.

(٢) غب: بعد، العارض: السحاب الممطر.

(٣) الشمائل: المناقب الحميدة.

جـم المحامد غير متهم      جـم التواضع غير مبتذل  
يا دولة الأخلاق رافلة      من (قاسم) في أبهج الحلول  
كيف انطويت به على عجل      أكذا تكون مصارع الدول  
يأسى الشاعر في هذه الأبيات لفقد (قاسم أمين) منوها بأخلاقه، وشمائله، ومحامده،  
وتواضعه.

ولقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والإكبار للمرثي، فالمرثي رجل أي رجل،  
ويتمنى لو أمهله الموت، وتأتي الصورة البيانية في جعل أخلاقه كأنفاس الرياض ساعة السحر  
وبعد سقوط المطر عليها، وشمائل المرثي لا تزول مع مرور الأيام، ومحامده كثيرة لا تعد،  
وتواضعه كبير لا يحد، ودولة مصر دولة الأخلاق تزهر بأخلاق قاسم أمين في أبهى حللها،  
ويعجب الشاعر من انطوائها بهذه العجلة والسرعة، قائلًا أهكذا تكون نهاية دول الأخلاق،  
وألفاظ الأبيات حافلة بمعاني الحزن واللوعة على رحيل قاسم أمين المبكر.

ويقول فيها:

أو كلما أرسلت مرثية      من أدمعي في إثر مرتحل  
هاجت بي الأخرى دفين أسى      فوصلت مدامع المقل  
إن خانني فيما فجعت به      شعري فهذا الدمع يشفع لي  
ولقد أقول وما يطالني      عند البديهة قول مرتحل  
يا مرسل الأمثال يضر بها      قد عز بعدك مرسل المثل



يبدو الشاعر في هذه الأبيات هلعاً فزعاً لفقد المراثي وفقد غيره من رجالات مصر الأعلام فكأنما النحس وسوء الطالع كتباً على مصر والمصريين، وكأنما الشاعر ما ينتهي من تأبين صديق حتى ينتقل إلى تأبين آخر.

الانفعال والتأثر للفقيد واضحان في هذه الأبيات، فالأحرار تتوالى وتترى فما أن ينتهي من مراثية، ينتقل إلى مراثية أخرى، ودموع عينيه متواصلة لا تنقطع ولا تحف، وإن خافه شعره في فجعية؛ فإن دموعه تقوم بواجبها فتشفع له تقصير شعره، ويقول الشعر أحياناً مرتجلاً لا يجاريه فيه مرتجل ... ولا تخلو هذه الأبيات من المبالغة في التعبير عن تأثر الشاعر لرحيل الفقيد.

ويقول فيها:

لهفي عليك قضيت مرتجلاً	لم تشك، لم تستوص، لم تقل
شغلتك عن دنياك أربعة	والمرء من دنياه في شغل
حق تناصره ومفخرة	تمشي إليها غير متحل
وحقائق للعلم ينشدها	مال للحكيم بهن من قبل
وفضيلة أعييت سواك فلم	تمدد إليه يدا ولم يصل
إن رأيت رأيا في الحجاب ولم	تعصم، فتلك مراتب الرسل

يتحسر الشاعر على الفقيد الذي قضى مرتجلاً ويتلهف على حكمته وعقله ونصرته الحق، ونزاهته في القضاء، ونشدانه الحقيقة والعلم، ونصرة المرأة، والدفاع عنها، ودعوته لسفور المرأة، وقد أعرب الشاعر عن هذه المعاني بلغة تنم عن الإعجاب بالمراثي الذي كان مثلاً يحتذى به، فلقد مضى مرتجلاً، لم يشك، لم يستوص، ولم يقل، لم تشغله دنياه بحطامها

وبهرجها التي عادة ما تشغل الإنسان، وإنما شغله أربعة أشياء: مناصرة الحق، وتحقيق مفخرة في غير مباهاة، ونشدان حقائق العلم، وفضيلة عجز الآخرين عن الاتصاف بها، ويضيف الشاعر قائلاً: إن كان لك رأي في حجاب المرأة ولم تكن معصوماً عن الخطأ في المناداة بخلعه، فالعصمة للرسول وحدهم وليس لك.

ويقول فيها:

واها على دار مررت بها      قفرا وكانت ملتقى السبل<sup>(١)</sup>  
ساءلتها عن (قاسم) فأبت      رد الجواب فرحت في خبل  
متعثرا، يتتابني وهن      مترنحا، كالشارب الثمل  
يتأوه الشاعر ويتأسف لفقد المراثي، متذكرا أيامه الغابرة، ومروره بالدار التي كان يسكنها الفقيد، وقد عبر الشاعر عن إحساسه وشعوره بلغة اتسمت ألفاظها بالحزن والأسى، كقوله: واها، مررت بها قفرا، كانت ملتقى السبل، ساءلتها عن (قاسم)، أبت رد الجواب، فرحت في خبل، متعثرا يتتابني وهن، مترنحا، يشبه شارب الخمرة الثمل الذي فقد عقله، والمبالغة لا تغيب عن هذه الأبيات كسابقتهما.

والأبيات التي عرضتها في هذه المراثية اجتزأناها من قصيدة طويلة، تظهر مدى قدرة الشاعر على اختيار الألفاظ التي تعبر عن المعاني والأهداف التي عمد إليها.

ويقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم لتأبين (علي أبي الفتوح باشا) وكيل المعارف، (من مجزوء الكامل):

(١) واها: أسفا.

جل الأسى فتجمل	وإذا أبيت فأجلى <sup>(١)</sup>
يا مصر قد أودى فتاك	ولا فتى إلا (علي) <sup>(٢)</sup>
قد مات نابغة القضاء	وغاب بدر المحفل
حلال عقد المعضلات	قضى بداء معضل
ويح الكنانة مالها	في غمرة لا تنجلي
يا زهرة الماضي ويا	ريحانة المستقبل
كننا نعدك للشدائد	في الزمان المقبل

في هذا الشعر يستفزع الشاعر موت الفقيد، ويعزي مصر والمصريين بهذا القاضي النابغة الفذ، الذي خدم مصر والمصريين خدمات جلى.

وقد أعرب الشاعر عن هذا المصاب الجلل بلغة الأسى والحزن، معزيا المصريين بموت فتاها (علي) ولا فتى لها بعده، فهو نابغة القضاء، وهو بدر المحفل، حلال المشاكل المستعصية المعضلة، مات بداء عضال، فيا حزن أرض الكنانة، إنها تعيش في غمة لا تنكشف، وكان زهرة الماضي، والريحانة المرجوة للمستقبل، وهو الفتى المدخر إذا ما حزبتهم الشدائد ... وتبدو في هذه المقاطع بعض الصور البيانية التي يلحظها الناظر فيها، إضافة إلى ما تخللها من المبالغة في بعض صورها.

ويقول فيها:

(١) جل: عظم، الأسى: الحزن، أجلى: تصبري.

(٢) أودى: هلك.

أبكى بكاء الثاكلات	وأصطلي ما أصطلي <sup>(١)</sup>
لم يبق لي يوم	الفقيد عزيمة لم تفلل
يوم عبوس قد مضى	يفتى أغر محجل <sup>(٢)</sup>
من لم يشاهد هولاه	عند القضاء المنزل
لم يدر ما قصم الظهور	ولا انخزال المفصل <sup>(٣)</sup>

يتحسر الشاعر على الفقيد فيكيه بكاء مرا، مستعظما يوم رحيله وشدة وقعه على نفسه عندما نزل به قضاء الله...

وقد أعرب الشاعر عن إحساسه هذا بلغة اتسمت بالأسى والمرارة، وبصور بيانية زادت روعة وتأثيرا ومبالغة، فهو يبكي المراثي بكاء النساء الثاكلات الفاقات لأولادهن، ويصطلي بما يصطليه من نار الفراق، يوم رحيله كان يوما عبوسا، لم يبق للشاعر عزيمة إلا وأفلها، ومن لم يشاهد هول المصيبة التي حلت بالمصريين لفقده، لا يدري ما يصاب به الثاكل من قصم ظهره وانخزال مفصله.

ويقول فيها:

يا قبر ويحك ما صنعت	بوجهه المتـهلل
عبست منه نضرة	كانت رياض المجتلي

(١) الثاكلات: جمع ثكل: الفاقات أبناءهن، أصطلي: أعاني هبها.

(٢) عبوس: غضوب، وأغر: أبيض، ومحجل فيه حجلة وتكون في قائمة الفرس وفيها بياض.

(٣) انخزال المفصل: الانقطاع والانفصال.

وعبثت منه بطرة	سوداء لما تنصل <sup>(١)</sup>
يا قبر هل لعب البلى	بلطف تلك الأتمل
لهفي عليها في الطروس	تسيل سيل الجدول <sup>(٢)</sup>
لهفي عليها في الجدال	تحل عقد المشكل
يا قبر ضيفك بيننا	وكان خير مؤمل
إني حللت رحابه	فنزلت أكرم منزل
ونهل من أخلاقه	فوردت أعذب منهل

يخاطب الشاعر في هذا المقطع قبر المرثي، متسائلا متحسرا ما الذي صنعه بوجهه الوضيء وطرة شعره الأسود، وأنامله اللطيفة، وما خطته في الورق من بديع الكلام؟ ومشيرا إلى ضيافة القبر للمرثي الذي كان محطا للآمال، طالبا منه أن يحسن ضيافته، فالشاعر كان قد حل في رحابه فأكرمه أحسن إكرام، ونهل من أخلاقه فكانت أعذب مشرب، وقد أعرب الشاعر عن هذه المعاني بلغة أكسبت ألفاظها جمالية التعبير وتأثره بفقد المرثي، يسأل القبر ماذا فعل بوجهه الوضيء المشرق؟ هل غير بياضه سوادا؟ فهذا الوجه كان بمنزلة الروض المزهر للرائي، وماذا فعل بطرة شعره السوداء التي لم يخطها الشيب؟ وهل عبث البلى بأنامله اللطيفة التي رقت على الورق أجمل المعاني وأعذبها، ويطلب من القبر أن يحسن وفادة المرثي، فضيفه كان خير مؤمل لأبناء وطنه، يحسن إكرامهم وينهلون من أخلاقه النبيلة.

وهذا المقطع كسابقه يتسم بلغة الحزن والمبالغة التي تضمنتها ألفاظه وعباراته.

(١) الطرة: مقدم شعر الرأس، لما تنصل: لم يظهر فيها الشيب.

(٢) الطروس: الورق.

ويقول في قصيدة راثيا بها كلا من (ابراهيم حسن باشا) و (محمد شكري باشا) الطبيين المشهورين وكانت وفاتها سنة ١٩١٧ (من الكامل):

لا مرحبا بك أيها العام	لم يرع عندك للأساة ذمام <sup>(١)</sup>
في مستهلك رعتنا بمآتم	لننافعين من الرجال تقام
علمان من أعلام (مصر) طواهما	فيك الردى فبكتها (الأهرام) <sup>(٢)</sup>
غيت (شكري) وهو نابه عصره	وأصبت (إبراهيم) وهو إمام
ورأى عليل النيل أن أساته	بذوا الأساة فلم يرعه سقام

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حسرته وحزنه لموت هذين الطبيين العلمين اللامعين اللذين كانا قدوة لناشئة مصر وطلابها ومتعلميها.

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني مستهلا أبيات قصديته بعدم الترحيب بهذا العام؛ لأنه لم يحفظ للأطباء عهودهم، فقد فجعهم في بدايته بالمآتم التي تقام لرسل الإنسانية، فقد طوى الموت علمين لامعين من أعلام مصر وأطبائها، وبكتها أهرام مصر، وغيب الردى محمد شكري الطبيب الفذ نبيه عصره، وإبراهيم حسن الطبيب الإمام اللذين بذوا وتفوقا الأطباء كافة، وهذا مما خفف على ابن النيل العليل مرضه، ولم يعد يخشى السقام أو تروعه علة، ولغة الحزن والأسى حاضرة في هذه الأبيات في مثل قوله، رعتنا بمآتم، طواهما فيك الردى، غيت (شكري) وأصبت (إبراهيم)، وعليل النيل، فلم يرعه سقام.

(١) ذمام: عهود.

(٢) الردى: الموت.



ويقول فيها:

يا (مصر) حسبك ما بلغت من المنى	صدق الرجاء وصحت الأحلام
ومشى بنوك كما، اشتهيت إلى العلا	وعلى الولاء - كما علمت - أقاموا
ورفعت رأسك عند مفتخر النهى	بين الممالك حيث تحنى الهام <sup>(١)</sup>
كم فيك جراح كأن يمينه	عند الجراحة بلسم وسلام <sup>(٢)</sup>
فبهؤلاء الغر يا (مصر) اهتئي	فبمثلهم تتفاخر الأيام
وعلى طبيبك اللذين رماهما	رامي المنون تحية وسلام

في هذه الأبيات وأبيات قبلها لم نذكرها هنا ينوه الشاعر بمصر ونهضتها العلمية المتمثلة بالأطباء، جراحين وأطباء عيون وأطفال عيون وأطفال ونساء، حاثا مصر على التباهي والتفاخر بمثل هؤلاء وخصوصا بالفقيدين المرحومين المذكورين في القصيدة.

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة الإكبار والإعجاب بما بلغت مصر من تقدم ونهضة في ميدان الطب، فمصر يكفيها ببلوغ مناهها وصدق رجائها، وتحقيق أحلامها، فأبناؤها شقوا طريقهم نحو العلا والولاء والانتماء لها، ورفعت رأسها مفتخرة بعقول أبنائها النيرة بين الأمم حيث تحنى الرؤوس إكبارا وإعظاما لها، وجراحوها ماهرون أيانهم (جمع يمين) بلسم شاف عند إجراء العمليات الجراحية وحق لك يا مصر أن تنتهي فخرا بهذه الكوكبة من أطبائك المتخصصين في شتى العلوم الطبية، وأخيرا يزجي الشاعر سلامه إلى روحي

(١) النهى: العقل، الهام: الرؤوس.

(٢) البلسم: الشفاء.



الفقيدين المرثيين اللذين اخترمتها يد المنون ... وألفاظ الأبيات هنا موشحة بمعاني الحزن والأسى التي لا تغيب عنها المبالغة.

ويقول في قصيدة يرثي بها كلا من (حسن عبد الرزاق) و (إسماعيل زهدي) وهما من حزب الدستوريين الأحرار، وقد قضيا إثر اعتداء غاشم عليهما (من مجزوء الكامل):

علمان من أعلام مصر	عدا الردى فطواهما <sup>(١)</sup>
(حسن) و (زهدي) لم	يمتدح بالشباب كلاهما
سلكا سبيل الحق ما	عاشا وما أولاهما
داس الأثيم حماهما	تحت الدجى ودهاهما <sup>(٢)</sup>
فرمى النهى والفضل مجتمعين	حين سقاهما <sup>(٣)</sup>
إن تذكروا همم الرجال	فقدموا ذكراهما
أو تسألوني عن شهيدي	مبدل فيهما هما <sup>(٤)</sup>

يذكر الشاعر هذين العلمين اللذين أوديا إثر اعتداء غاشم أليم، ويموتها ذهب الخلق والعقل والفضل.

(١) الردى: الموت.

(٢) تحت الدجى: في ظلمة الليل.

(٣) النهى: العقل.

(٤) فيها هما: تأكيد لمكانتيهما من العقل والفضل.

يبدو الشاعر حزينا متأثرا لموت هذين العلمين اللذين لم يهنأ بشبابهما، جاء ذلك بتصوير الموت العادي الذي يطوي النفوس، لقد عاشا حياتهما سالكين طريق الحق لا يحيدان عنه، وفي ظلمة الليل يتسلل غاشم أثيم إلى حماهما، فيرديهما قتيلين بريئين، وبفعلته الظالمة يكون قد قضى على العقل والفضل، فجسدهما الشاعر في صورة شيء مادي يستهدف فيرمى بأداة فيقضى عليهما ... ويحث الشاعر الآخرين على تذكرهما وأن يقدموهما على غيرهما عند ذكرهم الرجال؛ لأنهما شهيدا الحق والمبادئ الوطنية، وعنصر المبالغة باد في قول الشاعر: فرمى النهى والعقل مجتمعين حين رماهما. ولغة الحزن تظهر في قوله: عدا الردى فطواهما، لم يتمتع بالشباب كلاهما، داس الأثيم حماهما تحت الدجى ودهاهما، شهيدي مبداء فهماهما.

ويقول في رثاء (عبد الحليم العاليلي) سكرتير حزب الدستورين الأحرار والنائب في الجمعية العمومية المصرية (من الوافر):

مضيت ونحن أحوج ما نكون	إليك ومثل خطبك لا يهون <sup>(١)</sup>
برغم (النيل) أن عدت العوادي	عليك وأنت خادمه الأمين <sup>(٢)</sup>
أجل مناه لو يحويك ميتا	ليجبر كسره ذاك الدفين <sup>(٣)</sup>
أسال من الدموع عليك بحرا	تكاد بلجه تجري السفين <sup>(٤)</sup>

(١) الخطب: المصيبة.

(٢) العوادي: الشدائد والمصائب.

(٣) يجبر: يعالج.

(٤) لجة البحر: وسطه المتلاطم الأمواج.

وقام النادبات بكل دار      وكبر في مآذنه الأذنين<sup>(١)</sup>  
فتى الفتیان غالتك المنايا      وغصنك لا تطاوله غصون  
يستفزع الشاعر في هذه الأبيات موت العلايلي، كما استفزع موته المصريون، حتى نهر  
النيل بكى هذا الراحل الكبير.

وقد أعرب الشاعر عن وقع هذه المصيبة عليه وعلى المصريين، بما ترتب عليها من فراغ  
بفقد المرثي، فلقد مضى في وقت كان المصريون أحوج ما يكونون فيه إليه، فالخطب جلل لا  
يهون، رحل الفقيد رغم وجود النيل الذي هو الذائد والحاني على المصريين، أصابه الموت  
وهو خادم النيل الأمين، وأعظم منى النيل أن يحتضنك ميتا ليعالج كسره عندما يفيض ماؤه،  
لقد بكاه أبناء النيل بدموعهم الغزيرة والتي شكلت بحرا تكاد تجري بلجته السفن، وبكته  
النساء النادبات في كل بيت وكبر المؤذنون في مآذن المساجد، فهو فتى فتیان مصر الذي نال  
منه الموت، وهو الغصن المورق الذي لا تطاوله أي غصون أخرى.

وقد اتسمت لغة الشاعر بمعاني الحزن والأسى في مثل قوله: مضيت، مثل خطبك لا  
يهون، عدت الصواري، لو يحويك ميتا، فقام النادبات بكل دار، غالتك المنايا، كما تبدو  
المبالغة والتهويل في البيت الرابع، حين جعل الدموع تشكل بحرا تسير في لجته السفن.

ويقول فيها:

مضى لسبيله لم يحن رأسا      ولم يبرح سريرته اليقين  
تركت أليفة ترجو معينا      وليس سوى الدموع لها معين

(١) الأذنين: المؤذن.

تنوح على القرين وأين منها      وقد غال الردى ذاك القرين<sup>(١)</sup>  
سمعت أنينها والليل ساج      فمزق مهجتي ذاك الأنين  
دهاها الموت في الإلف المفدى      وكدر صفوها الدهر الخؤون<sup>(٢)</sup>  
وفت لأليفها حيا وميتا      كذاك كريمة (اللوزي) تكون<sup>(٣)</sup>  
ستكفيها العناية كل شر      ويحرس خدرها (الرح الأمين)

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عما كان عليه المرثي من مبادئ ثابتة، ويصور حال قرينته وفضاعة مصابها، كيف باتت رهينة اللوعة والأسى، ومع هذا فإن الله - سبحانه - لن يتخلى عنها؛ لأنها من أكرم النساء عفة وأدبا ومحتدا.

جاء حديث الشاعر عن هذه المعاني من خلال تصويره لهول الفجعة التي حلت بقرينته، فالزوج مضى لسبيله رافع الرأس، نقي السريرة، ثابت الإرادة واليقين، وغدت الزوجة أسيرة الحزن والأسى على هذا الزوج الذي أهلكه الموت، وأنتها حرى في هدأة الليل، وقد تنامت إلى مسمع الشاعر، فمزقت نياط قلبه، نكبها الموت بحليلها المفدى، وعكر الدهر الخؤون صفو حياتها، وكانت مثال الزوجة لزوجها في حياته ومماته، ولا غرو في ذلك فهي سليلة أسرة مصرية كريمة النسب والحسب، وليس لها سوى الرعاية الإلهية، وحراسة الروح الأمين الملائكية في خدرها.

(١) القرين: الزوج.

(٢) الإلف: القرين والزوج.

(٣) اللوزي: اسم العائلة التي تنتمي إليها الزوجة الشكلى.

لغة الحزن والأسى والمبالغة تبرز في هذه الأبيات في مثل قوله: تنوح على القرين، غال الردى ذاك القرين، سمعت أنينها والليل ساج، فمزق مهجتي ذاك الأنين، ليس لها سوى الدموع معين، دهاها الموت في الإلف المفدى، كدر صفوها الدهر الخؤون، وتظهر المبالغة في قوله سمعت أنينها والليل ساج، فمزقت مهجتي ذاك الأنين، وفي قوله: ويجرس خدرها (الروح) الأمين إشارة إلى جبريل عليه السلام ...

ويقول في رثاء (محمود سليمان باشا) وهو من رجال مصر الوطنيين (من البسيط):

مسدي الجميل بلا من يكدره	ومكرم الضيف أمسى ضيف (رضوان) <sup>(١)</sup>
تجتازنا عبقة من روضة أنف	إذا أملت بنا ذكرى (سليمان) <sup>(٢)</sup>
فقل لآل (سليمان) إذا جزعوا	ردوا النفوس إلى صبر وسلوان
ما إن رأيت دفيناً قبل شيخكم	تحت التراب وفوق النجم في آن

يشاطر الشاعر ذوي الفقيد حزنهم على فقيدهم، مطمئناً إياهم إلى أن فقيدهم ينعم في جنات الخلد.

وقد صور الشاعر هذه المشاطرة، بالثناء على الفقيد، فهو المسدي الجميل بدون من يعكر صفوه، وكالماء الفرات، ومكرم الضيف، أمسى في ضيافة رضوان خازن الجنة، وإذا ما هبت نفحة بكر، ذكرتنا سيرة المرثي الطيبة الأثر والذكر الحسن، ويطلب إلى ذوي الفقيد أن يتحلوا

(١) المسدي: المعطي، المن: العطاء أو التشوف بالعطاء، رضوان: اسم خازن الجنة.

(٢) الأنف: البكر.

بالصبر والسلوان، فدفنهم ليس كأبي دفين، إنه على حاله تحت التراب في مماته وفي علو النجوم في حياته في آن واحد.

وقد جاءت لغة الشاعر متسمة بالحزن والمبالغة كقوله: إذا أملت بنا ذكرى (سليمان)، إذا جزعوا ردوا النفوس إلى صبر وسلوان، ما إن رأينا دفينا، وتبدو المبالغة في قوله: أمسى ضيف (رضوان)، ما إن رأيت دفينا قبل شيخكم، تحت التراب وفوق النجم في آن. ويقول فيها:

وكم غرست وكان المعوز الجاني	وكم صفحت عن الجاني ولم تره
وكم مشيت في صلح بين إخوان	وكم أقلت كريما عند عثرته
من الجلال على جنبه نوران	إني رأيتك قبل الموت في فلك
سكينة حركت نفسي ووجداني	نور اليقين ونور الشيب بينهما
فضل ونبل وإحسان وعرفان	أنجبت أربعة سادوا بأربعة
وأورقت في ذراه عزة الشأن <sup>(١)</sup>	أورثتهم شمساً هاش الإباء له
صرحاً من المجد أعلى ركنه الباني <sup>(٢)</sup>	يذكرن براً رحماً قد أقام لهم
بشكرها لك عند الموت أوصاني	كم نعمة لك (يا محمود) عند أبي

(١) الشمم: العلو والارتفاع، هش: ابتسم.

(٢) الصرح: البناء العالي.

ينوه الشاعر في هذه الأبيات ببر الفقيد وإحسانه، وإصلاح ذات البين، والصفح عن الجاني وإقالة عثرة الكريم إذا عثر، كما يشيد بما ترك الفقيد، وحسبه أولاده الذين كانوا قمة في الفضل والنبيل والإحسان والعرفان.

وقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والإكبار للمرثي، فهو مقيل عثرة الكريم إذا كبا، والمصلح بين الإخوان في فض نزاعاتهم، وهو قبل الموت في هالة من الجلال والعظمة، يحيط جانبيه نوران، نور اليقين، ونور المشيب، بينهما سكينه الضمير التي هزت نفس الشاعر ووجدانه، وقد أنجب الفقيد أربعة من الأبناء كانوا خير خلف لأحسن سلف في الفضل والنبيل والإحسان والعرفان، وقد أورثهم علو الهمة وعزة النفس، وقد ابتسم لهم الإباء، وعزه شأنهم أينعت أوراق شجره، كما أقام لهم صرحاً من المجد أعلا بنيانه، ورفع ركن سمائه، وفي البيت الأخير يشير الشاعر إلى رابطة الصداقة التي كانت بين والد الشاعر وبين الفقيد المرثي.

والمبالغة لا تخلو منها هذه الأبيات وبخاصة في الثاني والرابع منها، ولا ندرى كيف أوصاه أبوه بشكر المرثي.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمود عبده الحمولي) (من السريع):

شوقتماني أيها الفرقدان	لبدر ثم غاب قبل الأوان <sup>(١)</sup>
وكلما أشرقتما مرة	علمتما عيني نظم الجمان <sup>(٢)</sup>

(١) الفرقدان: نجان معروفان في السماء الشمالية.

(٢) الجمان: الفضة واللؤلؤ كناية عن الدموع.



على عزيز قد تولى ولن      يؤوب حتى يرجع القارظان<sup>(١)</sup>  
عجلت يا (محمود) في رحلة      فرت به أعين حور الجنان  
كأنما آخر عهد هنا      قد كان من ليلة المهرجان

يأسف الشاعر لفقد (محمود) في ريعان شبابه، ويتحدث عن مكانته العزيزة عنده، وقد أعرب الشاعر عن أسفه مخاطبا الفرقدين اللامعين في القطب الشمالي بأنها شوقاه للفقيد مصورا إياه بالبدر ليلة تمامه والذي سرعان ما اختفى قبل أوان أفوله، وأنها كلما ظهرها في إشراقتها في كل مرة ألها عيني ذرف الدموع على الفقيد، الذي قضى ولن يرجع إلا برجوع القارظين وهذا من المحال، ولقد تعجل الراحل (محمود) في رحلته الأخيرة التي قرت بها أعين حور الجنان، مشيرا إلى فقد غب عقد قرانه بقليل الذي كنى عنه بليلة المهرجان، أي العيد، أي عيد زواجه.

ومعاني الحزن والأسى تبرز في هذه الأبيات كقوله: غاب قبل الأوان، علمتما عيني نظم الجمان، عجلت يا (محمود) في رحلة، كأنما آخر عهد هنا.  
ويقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم تكريما للشهداء وفي رثاء (أمين الرافعي) (من البسيط):

أما (أمين) فقد ذقنا لمصره      وخطبه من صنوف الحزن ألوانا  
لم تنسنا ذكره الدنيا وإن نسجت      للراحلين من النسيان أكفانا  
مضى نقيًا عفيف النفس محتسبا      فهد من دولة الأخلاق أركاننا

(١) يؤوب: يرجع، القارظان: جانب القرظ يضرب بها المثل في الغياب.

لم يلوه المال عن رأي يدينُ به (ولو حملت) إليه الدهر ملانا  
ظلم من القبر أن تبلى أنامله  
عشرون عاما على الطرس الطهور  
يجول بين رياض الفكر مقتظفا  
فينشق الذهن من أسطاره أرجا  
وتبصر العين فوق الطرس بستانا<sup>(١)</sup>

يتحسر الشاعر على فقد (أمين) وما سببه موته من الحزن، كما ينوه بعفته، وخلقه ودينه  
وجراته في الحق، وقوله (ولو حملت إليه الدهر ...) شطربيت للمتنبي أوله: (قد علم البين  
منا البين أجفانا)، كما يأسف الشاعر لفناء أنامل الفقيد، تلك الأنامل التي طالما بذلت الخير  
والمعروف، وخطت روائع الكلم.

لقد أعرب الشاعر عن هذه المعاني مصورا الحزن ألوانا، فذكره باقية لا تمحوها الدنيا بما  
تنسجه من أكفان للراحلين وفي هذا التشخيص تبدو الدنيا تجيد نسج الأكفان للأخلاق  
وانهيارها كما يسقط البناء، ولم تأخذ الدنيا بعرضها الزائل، ويأسف الشاعر لفناء أنامل  
الفقيد التي بقيت طيلة عشرين عاما تخط كلمات تحت على بذل الخير والمعروف، وتكتب  
روائع الأدب، وكان الفقيد بين رياض الفكر فيقطف ما طاب من غرسها ومن ثمارها وردا  
وريجانا، وليتفتق حينها من كلامه أرج فواح، وستبصر العين فوق ورقه ألوانا من بساتين  
الفكر والمعرفة.

(١) الطرس: الورق، البهتان: الزور.

(٢) الأرج: الريح الطيب.

والألفاظ الحزن واضحة في هذه الأبيات، كقوله: من صنوف الحزن ألوانا، نسجت للراحلين أكفانا، هد دولة الأخلاق، ظلم من القبر تبلى أنامله، كما يبدو فيها التصوير البياني في البيت الثاني والبيت الثالث، والبيت السابع. ويقول فيها:

إلى فتى لا يرى للمال سلطانا	(أمين) فارقتنا في حين حاجتنا
ترى به القوت يا قوتا ومرجانا <sup>(١)</sup>	إن القناعة كنز كنت حارسه
أن يورث الحلو مر العيش أحيانا	أودى بك (السكر) المضني ولا عجب
فأنت أرحمنا في الحشر ميزانا	(أمين) حسبك ما قدمت من عمل
حظا وإن كنت في دنياك أشقانا	أبشر فإنك في أخراك أسعدنا
واذكر لهم ما يعاني قومنا الآن	بلغ ثلاثكم عنا تحيتنا
أن يحرس النيل ممن رام طغيانا	واضرع إلى الله في الفردوس مبتهلا

في هذه الأبيات يأسف الشاعر لمفارقة الفقيد، ولقناعته، ولتمسكه بالحق، يأسى لهذا الرجل الذي صارع مرض السكري طويلا ثم قضى المرض عليه، كما يكبر همته وسعيه، محملا إياه تحيته إلى من فقد من الأصحاب، وليهنأ في نعيم الله وفردوسه.

وقد صور الشاعر هذه المعاني بإظهار الفقيد بالحاجة إليه كفتى زاهد في الدنيا ليس للمال عليه سلطان، يرى القناعة كنزا لا يفنى، القوت فيه كالياقوت والمرجان في قيمته، ويكفيه ما قدمه من أعمال الخير، سيكون يوم الحشر أرجح ميزانا من الآخرين، وسيكون أسعد حظا في

(١) الياقوت والمرجان: من الأحجار الكريمة.

الآخرة وإن كان في الدنيا أكثر شقاء من غيره، وتحية الشاعر موصولة إلى صحبه الثلاثة الذين قضوا قبل موت المرثي، موصيا إياه بذكر ما يعانيه قومهم من الحزن في هذه الأثناء، وبالتضرع إلى الله بالابتغال ليحفظ النيل وأهله ممن أراد بهما شرا وطغيانا.

والأفاظ الحزن ترى في هذه الأبيات كقوله: أودى بك (السكر) المضني. كنت في دنيالك أشقانا، ما يعاني قومنا الآن، كما يبرز في شطر البيت الثالث، مثل سائر، وفي البيت الخامس لون من فنون علم البديع في المطابقة والمقابلة: فإنك في أخراك أسعدنا حظا وإن كنت في دنيالك أشقانا.

ويقول في بيتين أنشدهما على ضريح (عبد الله أباطة) عضو مجلس الأمة (من البسيط):

يا عابد الله نم في القبر مغتبطا      ما كنت عن ذكر رب العرش باللاهي  
يا رحمة الله هذا قبره فقفي      وأنسي روحه يا رحمة الله  
يطمئن الشاعر هذا الفقيد أن يخلد في قبره منشراحا مسرورا، فقد كان لا يغفل عن ذكر الله، ضارعا إليه - سبحانه - أن تحل رحمته في قبره وتؤنس روحه من وحشته.  
ويقول في بيتين راثيا فيهما ابنة (محمود سامي البارودي) (من السريع):

وديعـة ردت إلى ربهـا      ومالك الأرواح أولى بهـا  
ألم يكن صبرك في بعدها      يربو على شكرك في قربها<sup>(١)</sup>  
يتضرع الشاعر في هذين البيتين إلى الله سبحانه أن يخفف من مصائب والد الفقيدة، ملتئما لها الرحمة وله الصبر والسلوان.

(١) يربو: يزيد، الوديعه: كناية عن الفقيدة، أي الأمانة، وما يودع.

صور الشاعر هذه المعاني بأن قال: بأنها وديعة ردت إلى بارئها، ولا بد يوماً أت ترد الودائع، وعزرائيل أولى بها من غيرها فهو ملك الموت، وقد كان صبر والدها على بعدها عنه عندما توفاه الله يفوق شكره لله على قربها منه في حياتها، وقد طابق الشاعر في البيت الثاني بين بعدها وقربها.

والألفاظ الحزينة تبرز في قوله: وديعة، مالك الأرواح أولى بها، صبرك في بعدها.

ويقول في قصيدة يرثي بها (السلطان حسين كامل) (من الخفيف):

دك ما بين ضحوة وعشي	شامخ من صروح (آل علي)
وهوى عن سماء العرش ملك	لم تمتع بعهد الذهبى
قد تساءلت يوم مات (حسين)	أفقدنا بفقده كل شي
أم ترى يسعد الكنانة باريها	ويقضي لها بلطف خفي

يفزع الشاعر لفقد السلطان (حسين كامل) ويعتبر كل شيء فقد بفقده إلا أن يلطف الله بالمصريين ويخفف من مصابهم بأن يمن عليهم بسلطان يخلفه، فيكون خير سلف لأحسن سلف.

وقد أعرب الشاعر عن هذا الإحساس بلغة اتسمت بالحزن والتصوير، فبموت الفقيد انهد صرح من صروح (آل علي) وهم أسرة الفقيد التي يرجع نسبها إلى (محمد علي باشا الكبير)، وبموت الفقيد هوى عرش الملك، ويتساءل: أفقدنا كل شيء بموت هذا السلطان؟ لكن أمله لا ينقطع فلعله - سبحانه - أن يعوضهم بفقده من يخفف مصابهم...

ويقول فيها:

لم يكدينعم الفقير بعيش      من نداءه وفيضه الحاتمي<sup>(١)</sup>  
حجب الموت مطلع الجود      يا (مصر) فجودي له بدمع سخي<sup>(٢)</sup>  
وقضى كافل اليتامى فويل      لليتامى من الزمان العتي<sup>(٣)</sup>

ينوه الشاعر في هذه الأبيات بحكم الفقيد، وعدله، وجوده، وكفالة اليتامى، وهو الذي لم يدم حكمه طويلا، ويستحث المصريين أن يذرفوا عليه الدموع السخية.

لقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والثناء على الفقيد، فالفقير لم ينعم طويلا بكرم المراثي وجوده الحاتمي؛ لأن الموت سارع في اخترامه، فحجب هذا الجود، فما على المصريين إلا أن يجودوا عليه بالدموع السخية، لقد مات كافل اليتامى، ويا ويلهم، لا يدرون ماذا ينبغي لهم الزمان الظالم بعد رحيل الفقيد.

كما تظهر في الأبيات معاني الحزن مثل قوله: حجب الموت، مطلع الجود، فجودي له بدمع سخي، قضى كافل اليتامى، ويل لليتامى من الزمان العتي، كما تبدو فيها المبالغة.

ويقول فيها:

حبس الخطب فيك ألسنة      القول وأعياء قريحة العبقري<sup>(٤)</sup>

(١) نداء: جوده، الحاتمي: نسبة الى حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود.

(٢) سخي: غزير.

(٣) العتي: الظالم.

(٤) أعياء: أعجز.



وإذا جلست الخطوب وطمت  
أعجزت في القريض طوق الروي<sup>(١)</sup>  
إن شر المصاب ما أطلق الدمع  
وراع المفوهين بعبي<sup>(٢)</sup>  
لهف نفسي على انبساطك للضيف  
وذيالك الحديث الشهي  
يحسب الدار داره وهو يمشي  
فوق زاهي بساطك الأحدي  
يأسف الشاعر لفقد المرثي، قبل الأوان، فكان رحيله شديد الوقع على الشعراء، كما يثني  
على كرمه واحتفائه بضيفه.

لقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الحسرة واللوعة على الفقيد، فالخطب عظيم، ومن  
هول المصاب لجمت ألسنة القول، وعييت قريحة الشعراء عن تحقيق الروي في قصائدهم،  
وأصيب الملسنون الفصحاء بالعجز والكلام، ويتلهف الشاعر على خلق الراحل  
وأريحيته، فهو يستقبل ضيفه هاشا باشا مشعرا إياه وكأنه في داره، يستقبله بالخفاوة والتكريم،  
وكأن لسان حاله يقول:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل  
هكذا رثى الشاعر الفقيد هذه الأبيات التي اجتزأناها من قصيدة طويلة، يبدو فيها  
الشاعر متأثرا كثيرا كما هو شأن المصريين لرحيل الفقيد، ويبدو هذا في ألفاظها وعباراتها من  
مثل قوله: دك شامخ من صروح (آل علي)، هوى من سجاوة العرش ملك، تساءلت يوم  
مات، أفقدنا بفقده كل شيء حجب الموت مطلع الجود، قضى كافل اليتامى، فويل لليتامى من

(١) طمت: طفحت، القريض: الشعر، الروي: آخر حرف في القافية.

(٢) راع: أفزع وأذهل، العبي: العجز عن النطق، المفوهون: الملسنون الفصحاء.



الزمان العتي، حبس الخطب ألسنة القول، أعياء قريحة العبقري، جلت الخطوب، وطمت، إن شر المصاب ما أطلق الدمع، راع المفوهين بعبي، لهف نفسي على انبساطك للضيف.. وكلها مفردات وعبارات تزيد المشهد تصويرا وتأثيرا.

ويقول في رثاء (مصطفى كامل) زعيم الحزب الوطني سنة ١٩٠٨ (من الطويل):

أيأقبر هذا الضيف آمال أمة      فهل وكبر والق ضيفك جائيا<sup>(١)</sup>  
عزيز علينا أن نرى فيك (مصطفى)      شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا  
أيأقبر لو أنأفقدناه وحده      لكان التأسي من جوى الحزن شافيا<sup>(٢)</sup>  
ولكن فقدنا كل شيء بفقده      وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا  
في هذه الأبيات يناجي الشاعر قبر الفقيد، منبها على أن هذه القبر يضم في أحشائه أحد أعلام مصر الخالدين، لا بل هو يضم أمة في رجل.

أورد الشاعر هذه المعاني بلغة تفيض بالأسى والحزن على الفقيد، مناجيا فيها قبره الذي حل فيه أن يحسن وفادته فهو آمال المصريين جميعهم، حاشا القبر على التهليل والتكبير واستقبال ضيفه جائيا على ركبتيه إكبارا وإجلالا، وفي هذا التعبير تشخيص للقبر وإظهاره في صورة شخص يقابل ضيقه بالبشاشة والترحيب، ويعز على الشاعر والمصريين كافة أن يروا في هذا القبر شهيد مصر ذاويا وهو في عمر الزهر، كان من الممكن أن يسد الحزن والتأسي على

(١) جائيا: خاضعا على ركبتيك.

(٢) التأسي: العزاء، الجوى: شدة الحزن.

الفقيد فيكون لهم بلسما شافيا لو فقدوه وحده، ولكن هيهات لقد فقدوا بفقده كل شيء فلن  
يجود الدهر بمثله ثانية.

وتبدو المبالغة والتهويل في البيتين الأخيرين من هذه الأبيات، ولكن نقول هذا هو  
إحساس الشاعر تجاه المراثي ومكانته عند المصريين.

ويقول فيها:

ومات الذي أحيا الشعور وساقه	إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا
مدحتك لما كنت حيا فلم أجد	وإني أجد اليوم فيك المراثيا
عليك، وإلا ما لذا الحزن شاملا	وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوي للنفوس ولا يرى	لما فيه من داء النفوس مداويا
شهيد العلاما زال صوتك بيننا	يرن كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا: هذا بناء أقمته	فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا لا تشعروا الناس أنني	قضيت وأن الحي قد بات خاليا <sup>(١)</sup>
يناشدنا بالله ألا تفرقوا	وكونوا رجالا، لا تسروا الأعاديا
فروحي من هذا المقام مطلية	تشارفكم عني وإن كنت باليا <sup>(٢)</sup>
فلا تحزنوها بالخلاف فإنني	أخاف عليكم في الخلاف الدواها <sup>(٣)</sup>

(١) قضيت: مت.

(٢) باليا: ميتا.

(٣) الدواهي: المصائب والخطوب.

يبكي الشاعر في هذه الأبيات بوفاة (مصطفى كامل) المروءة، والوفاء، والحكمة والعقل والجرأة، فلا غرابة أن تكون مصر كلها في حداد على هذا الرجل العظيم، الذي يناشد المصريين بأن لا يشعروا الناس بأنه قد مات وأن مصر أصبحت خالية منه، ويهيب بهم أن يكونوا موحدين رجالا بكل معنى الرجولة لئلا يشمت بهم الأعداء، ويناجيهم بروحه المطلة عليهم وإن كان ميتا، بأن لا يختلفوا، لأن في خلافهم تحل بهم المصائب الشديدة والدواهي العظيمة.

ولقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة الإكبار والتقدير للفقيد، مصورا إياه بالإنسان الذي أحيا شعور الأمة واستنهضها من سباتها، لتسمو إلى المجد، وأعاد إلى النفوس حياتها الحرة، والشاعر مدحه حيا، وهو اليوم يجيد القول في رثائه، ويلذ له الحزن في بكائه، كما يلذ للمصريين بكاءهم عليه، فهو شهيد المبادئ السامية، والآراء السديدة، وصوته المجلجل لا يزال مدويا في مسامع المصريين، ويهيب بهم الفقيد بأن يحافظوا على البناء الذي أقامه من أجل حريتهم ودفعتهم فلا يكونون أول من يهدمه.

وألفاظ الحزن لا تغيب عن هذه الأبيات، فهي تظهر في قوله: مات وإلا ما لذا الحزن شاملا، وإلا ما لذا الشعب باكيا، يموت المداوي للنفوس، لا يزال صوتك بيننا يرن، فروحي من هذا المقام مطلة، وإن كنت باليا، فلا تحزنوها بالخلاف، أخاف عليكم في الخلاف الدواهي.

ويقول فيها:

ثلاثون عاما بل ثلاثون درة      بجيد الليالي ساطعات زواهيا<sup>(١)</sup>  
ستشهد في التاريخ أنك لم تكن      فتى مفردا بل كنت جيشا مغازيا  
يبين الشاعر في هذين البيتين أن الفقيد عاش ثلاثين عاما، وقضى في وقت مبكر،  
وسيكون التاريخ شاهدا على وطنيته وغيرته على المصريين فهو لم يكن فردا بشخصه، بل كان  
أمة وجيشا في حقيقته.

هكذا يصور الشاعر عمر الفقيد وذكره الخالدة، فعمره القصير الثلاثون عاما كانت درة  
ثمينة في عنق الليالي تسطع بها زاهية متباهية، وفي هذا التعبير ما لا يخفى من براعة التصوير  
وجماله، كما أن التاريخ سيكون شاهدا حيا على عظمة هذا الرجل الكبير الذي خدم مصر  
والمصريين، فكان في نظرهم جيشا عرمرما لا فردا واحدا.  
وبعد ....

فقد طالت رجلتنا مع مراثيات الشاعر الكثيرة والتي اقتطفنا أبياتا من قصائدها تخدم  
أهداف هذه الدراسة، ولا عجب في ذلك، ألم نقل فيما سبق أنه قال:

إذا تصفحت ديواني لتقرأني      وجدت شعر المراثي نصف ديواني  
مات حافظ إبراهيم تاركا ديوانا شعريا نصفه في المراثي، وقد قيل - كما ذكرنا سابقا -  
الوفاء في الرثاء - ومن هنا جاء وفاء أحمد شوقي لحافظ إبراهيم، فرثاه في قصيدته التي  
مطلعها :

قد كنت أوثر أن تقول رثائي      يا منصف الموتى من الأحياء

(١) ثلاثون عاما: هي عمر الفقيد، الجيد: العنق.

ويجدر بالذكر هنا أن حافظ إبراهيم كان على رأس الشعراء العرب الكبار من مختلف البلدان الناطقة بالضاد في اللقاء الذي جمعهم لاختيار أمير للشعر العربي وأسفر عن مبايعة شوقي بالإمارة وكان حافظ إبراهيم على رأس المبايعين حين قال:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا      وهذي وفود الشعر بايعت معي  
كانت علاقة حافظ بشوقي ودية لا عدائية، وإن قيل بأنه الصديق اللدود لشوقي، وأن العلاقة بينهما كانت ندية وتناقضية، وتنازعا على امتلاك ناصية الشعر، وتعلقا لا يستطيع أحدهما فراق الآخر، وليس من قبيل الصدفة أن يغيب الموت شوقي بعد رفيقه بأيام.

ولم يكن بين شوقي وحافظ تنافس إلا من هجائياتها المتبادلة التي هي أقرب إلى المداعبات واللطائف على سبيل التنكيت، ولكن هذا الصراع لم يفقد بين حافظ وشوقي للود قضية، وإن المتأمل لهذا التهاجي المتبادل بين القطبين تصيبه حيرة شديدة، فكيف يصل الهجاء إلى هذه الحدة الفاطحة فيما تتصل المجالس الودودة الحميمة بين الشاعرين نفسيهما اللذين يتبادلان الهجاء، ومثال واحد على الهجاء يكفي، فحافظ يهجو شوقي بقوله:

يقولون إن الشوق نار ولوعة      فما بال شوقي اليوم أصبح باردا  
فللهذه الأولى يشعر القارئ أن حافظا يتكلم عن شوقه، وأن الياء الخاصة بالملكية في شوقي عادية، لكن المقصود بها شوقي الشاعر، ولكن شوقي رد عليه بأفطع منها فقال:

حملنا الإنسان والكلب أمانة      فخانها الإنسان والكلب حافظ  
والمعنى في رد شوقي مفهوم واضح، ولا يحتاج إلى الشرح.

وثمة لبس كبير وقع فيه الكتاب المؤلفون حين صوروا حافظا وشوقي عدوين، غير أن العلاقة بينهما كانت على النقيض من ذلك، فهما كانا متنافسين حقا، ولكل منهما مدرسة شعرية مختلفة تماما عن مدرسة رفيقه، لكن تشجيع الأدباء وتحزيمهم أدى إلى انقسامهم بين شوقي وحافظ، وأشاع وهم العداوة، والواقع التاريخي يقول إن أكثر مجالس حافظ لم تكن تخلو من شوقي.

وعلى الرغم من كل ما قيل في علاقتهما؛ فإن شوقي تلقى نبأ وفاة حافظ ببالغ من الحزن والأسى، وثمة رواية شهيرة تقول إنه حين توفي حافظ إبراهيم، كان شوقي بالإسكندرية، ودخل عليه سكرتيه ليلبغه وفاة الصديق اللدود، وكان كتم الخبر عنه ثلاثة أيام - عامدا - لرغبة السكرتير في إبعاد الأخبار السيئة عنه - كان شوقي شديد التشاؤم بأخبار الموت في أيامه الأخيرة، كما أن السكرتير كان يعلم بأنه على الرغم من التنافس الظاهر بين حافظ وشوقي على عرش الشعر آنذاك؛ فإن حافظا كان قريبا إلى قلب شوقي، وحين ألقى السكرتير الخبر في وجه أمير الشعراء، شرد شوقي لحظات، ثم رفع رأسه وقال أول بيت من مراثيه الشهيرة في حافظ، وتقع في اثنين وخمسين بيتا، اجتزأت منها الأبيات التالية:

قد كنت أؤثر أن تقول رثائي	يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت، وكل طول سلامة	قدر - وكل منية بقضاء
الحق نادى فاستجبت، ولم تزل	بالحق تحفل عند كل نداء
وأيت صحراء الإمام تذوب من	طول الحنين لساكن الصحراء <sup>(١)</sup>

(١) صحراء الإمام: المقبرة التي دفن فيها، وهذه الصحراء تنسب للإمام الشافعي لوقوع ضريحه (رضي الله عنه في نطاقها).



فلقيت في الدار الإمام محمدا  
أثر النعيم على كريم جبينه  
فشكوتما الشوق القديم، وذقتما  
إن كانت الأولى منازل فرقة  
وودت لو أي فداك من الردى  
إسكندرية يا عروس الماء  
نشأت بشاطئك الفنون جميلة  
بنت الحضارة مرتين ومهدت  
وسمت بقرطبة ومصر، فحلتا  
ماذا حشدت من الدموع (( لحافظ ))  
ووجدت من وقع البلاء بفقده  
الله يشهد وفيت سحرة  
في زمرة الأبرار والحنفاء<sup>(١)</sup>  
ومراشد التفسير والإفتاء  
طيب التداني بعد طول تنائي  
فالسمة الأخرى ديار لقاء<sup>(٢)</sup>  
والكاذبون المرجفون فدائي  
وخيلة الحكماء والشعراء<sup>(٣)</sup>  
وترعرعت بسمائك الزهراء  
للملك في بغداد والفيحاء  
بين الممالك ذروة العلياء<sup>(٤)</sup>  
وذخرت من حزن له وبكاء  
إن البلاء مصارع العظماء  
بالدمع غير بخيلة الخطباء

(١) الإمام : هو المرحوم الشيخ محمد عبده العالم الديني الكبير، وقد اشتهر المرحوم حافظ في حياته باكتساب عطفه ورضاه.

(٢) الأولى: الحياة الدنيا.

(٣) نظم المرحوم شوقي هذه القصيدة وهو في الإسكندرية، فكان لا بد لشاعريته المستوعبة من وصف هذه المدينة وفاء لإقامته فيها وقتئذ.

(٤) قرطبة: إحدى عواصم الأندلس الكبرى وكانت في المغرب مثل بغداد في المشرق، كلتاها منبع للعلوم والفنون في أزهر عصور الإسلام.



وأخذت قسطاً من مناحة ماجد  
هتف الرواة الحاضرون بشعره  
لبنان يبكيه، وتبكي الضاد من  
عرب الوفاء وفوا بدمية شاعر  
يا حافظ الفصحى وحارس مجدها  
ما زلت تهتف بالقديم وفضله  
جددت أسلوب (الوليد) ولفظه  
وجريت في طلب الجديد إلى المدى  
ماذا وراء الموت من سلوى، ومن  
أشرف حقائق ما رأيت، ولم تزل  
رتب الشجاعة في الرجال جلائل  
كم ضقت ذرعاً بالحياة وكيدها  
فهلهم فارق يأس نفسك ساعة  
وأشر إلى الدنيا بوجه ضاحك

جم المآثر، طيب الأنباء  
وحداً به البادون في البيداء<sup>(١)</sup>  
حلب إلى الفيحاء إلى صنعاء  
باني الصفوف، مؤلف الأجزاء  
وإمام من نجلت من البلغاء<sup>(٢)</sup>  
حتى حميت أمانة القدماء  
وأيتت للدنيا بسحر (الطائي)<sup>(٣)</sup>  
حتى اقترنت بصاحب البؤساء<sup>(٤)</sup>  
دعة، ومن كرم، ومن إغفاء  
أهلاً لشرح حقائق الأشياء  
وأجلهن شجاعة الآراء  
وهتفت بالشكوى من الضراء  
واطلع على الوادي شعاع رجاء  
خلقت أسرته من السراء

(١) البادون: السائرون في البادية.

(٢) نجلت: أي ولدت.

(٣) الوليد: هو أبو عبادة البحري الشاعر العباسي الشهير، والطائي: هو حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام.

(٤) البؤساء: كتاب لفكتور هوجو، عربيه الفقيد حافظ إبراهيم.

وهدى إليك حوائج الفقراء  
عبء السنين وألق عبء الداء  
وتركت أجيالاً من الأبناء  
للدهر إنصاف وحسن جزاء

يا طالماً لآل الندي بشاشة  
اليوم هادنت الحوادث فاطرح  
خلفت في الدنيا بياناً خالداً  
وغدا سيذكرك الزمان، ولم يزل



## الخاتمة

وبعد...

هذا هو حافظ إبراهيم في شعره، وصف وتغزل، ومدح وهجاء، وشكا ورثي، فجاءت قصائده تعبيراً عن هذه المعاني، وقد اخترت منها واجتزأت أبياتاً من بعضها ما يخدم هذه الدراسة، كان حافظ فيها - بحق - شاعراً للأحزان وحاملاً لهموم الإنسان أينما كان، أحس بحاله وبواقع شعبه وأمته، فنظمه شعراً، واستفزته مصائب الإنسانية فصورها في قصائده، وأعطى هذه وتلك من ذوب فؤاده وحشاشة نفسه من القول، والوصف لها ما يكاد ينفرد به عن غيره من شعراء عصره.

كان حافظ إبراهيم فقيراً معدماً شاكياً لنفسه ولغيره من الحياة وشظفها وقسوتها وهي التي أطلمت في وجهه ولم تحن عليه وتلطف به ومن هم في بيئته إلا قليلاً، ولم ينل من حطام الدنيا مثل ما ناله من حب الشعب له حتى أسموه شاعر الشعب، ولقد جسدت قصائده حياته في طفولته وشبابه وتقدم عمره، كما صورت أحداث وطنه وعصره، وما كان يدور في محيطه العربي والعالم الأجنبي، فكانت قصائده تصور شعور إنسان بإنسان، يعيش واقعا حقيقيا، لا برجاً فضائياً، فكان الرائد الذي لا يكذب أهله وإنسانيته، وكان الشاعر الذي ذاع صيته وانتشر ذكره، حباه الله عاطفة جياشة شدة ما جعلته يهتز لما يستثيرها من أحداث بسرائها وضرائها، ولم يكن حافظ - برأيي - متزلفاً أو مرأبياً بقدر ما كان ذا شعور مرهف، تحركه الأحزان، ويؤلمه الحرمان، وتأخذه الغيرة بالأخذ بأيدي من قست عليهم الدنيا - كما هو - ورمتهم في متاهاتها، وتوجعه الوليات والمصائب التي تلحق بالبشرية بأجمعها.

لقد ذكر لنا التاريخ ما كان لإلقاء حافظ للشعر من الأثر البعيد في نفوس سامعيه، ولا ريب أن لهذه الخاصية في الإلقاء فضلاً في توجيه حكم معاصريه من النقاد على شعره، فلابد لنا الآن وقد طوى التاريخ (حافظاً) وما شاب حياته من أحوال وظروف أن ننظر في آثاره نظرة المدقق الهادئ ونظرة المتفحص المحايد، ويكاد النقاد يجمعون على أن شعر (حافظ) يخلو من روعة العنصر المعنوي واستلهاهم الخيال المجنح، وعليه يبقى جمال شعره في قوة عاطفته وصدقها وجزالة ألفاظه وموسيقاها، فعاطفته اتسمت برقة الشعور وخبرة شخصيته بالألم وأنواع الذل واليأس والحرمان والضياع، فحفل شعره بوصف آماله وإخفاقه وضجره من الحياة ولوعته على ما فاته من السعد والجاء، وعلو المنصب، وثورته على كيد الناس وخداعهم، ولم يكن شعوره وقفاً على لواجع نفسه وأحداث حياته، فقد شارك الشعب في مصائبه، وسمع شكاوى المظلومين، وعزى المفجوعين، ولم تكن حدود الإقليمية والوطنية وحوافز الأثرة القومية والدينية لتحد من شمول عاطفته التي انتظمت الإنسانية جمعاء، ورددت صدى الكوارث البعيدة والأحزان العالمية؛ ولذا أجاد (حافظ) مواقف الرثاء، ووصف الفواجع، فهو يستوحي الإلهام من كامن حزنه وتقديره الحقيقي والصادق لمن فقد من الأصحاب وأعلام الوطن ومن شففته المرفرفة على المآسي البشرية فكان شعره صادق اللهجة والتعبير، بعيد الأثر والتأثير.

وأما الموسيقى فما هي في شعر (حافظ) سوى انعكاس شخصيته ونتيجة ثقافته، فهو رجل البؤس، ليس فقط عن الجوع والظمأ، بل عن النفس الحزينة التي جفت فيها الأمانى، والقلب الذي تتنازع العواطف المتناقضة، والتأوهات الملتهبة، والعين التي تبكي لمصاب الشعب والوطن والإنسانية، ولذلك شاع في شعره توقيع شجي مطرب، وهو رجل القلق والاضطراب الذي لا يتفرغ للعمل، ولا يتعمق في القضايا والبحث عن الأنسب أو الأوفق؛

ولذلك انقاد إلى السهولة، ولم يعن نفسه بالغوص وراء المعاني وخلق الصور، بل حفل برنة اللفظ، وهو رجل الثقافة السطحية الذي تلمذ للفن العباسي من حيث هو صيغة مشرقة، ولفظ متساق ووزن منسجم، وأثر شعراء اللفظ على شعراء المعنى، وقد تهيأ له، لقوه حافظته، وكثرة مطالعته، ثورة ضخمة من التراكيب والألفاظ ونموذجات السلف، فتخير منها ما كان ملائماً لنزعته الموسيقية.

وبالرغم ما يوجه إلى شعر (حافظ) من سياط النقد، ومعاول الخط من شأن الكبار من الشعراء، وكلام النقد بأن (حافظاً) كان مبالغاً في تصويره لأحداث عصره، وحركاته الوطنية، ورياءاته الوطنية والإنسانية، فهذا شأن الشاعر في إحساسه المرفه وعاطفته الصادقة، جاء شعره حاكياً حال شعبه وواصفاً أحداث عصره، وراثياً رجال وطنه، وزعماءه الأحرار، ومشاركاً البشرية في كوارثها وفجائعها، لا زلنا نقرأ شعره، نتذوقه ونعجب به، صاغه بلغته السلسة، وبأسلوبه السهل الممتنع بعيداً عن التفرع والتكلف. من يقرأه يدركه ويقع على مراميه.

وقد ذهبت في هذه الدراسة مذهب الوصف السهل والتحليل الواضح القريب للفهم والنقد الموضوعي، وابتعدت عن اللغة الضبابية أو البحث عن غوامضها وبواطنها، مؤثراً التوضيح والتصريح والتفصيل حيناً ومكتفياً بالإيجاز والتلميح حيناً آخر، مستمياً القارئ عذراً إن كنت أطلت الوصف والتحليل والنقد للنماذج التي اختزلتها من القصائد المختارة؛ فإن طبيعة الدراسة اقتضتها.

### كما خلصت فيها إلى الحقائق التالية:

- يستهل (حافظ) في معظم قصائده بالتصريح وهو اتفاق عروض البيت الأول وضربه وزنا وقافية شأنه في ذلك شأن شعراء عصره والقدامى منهم.
- لم يقتصر في شعره على وزن معين أو محدد وإنما نظم في شتى الأوزان العروضية المشهورة.
- يحتل الرثاء مساحة واسعة في شعره، ويطول نفسه فيه، وقد تصل بعض قصائده فيه إلى ما يزيد على التسعين بيتا، ولا يخلو فيه من المبالغة والتهويل.
- يحفل قاموسه اللغوي في الرثاء بتكرار ألفاظ: الحزن، الحسرة، اللوعة، الوجد، الخطب، الموت، الفجعة، الدمع، دموع، النواح، الأنين، الزفرات، البكاء، رثائي، الردى، الأسى، المنون، العوادي، النعي، أودي، طوى، نعاك، رثاك، غال، عدا، تولى، بكى، بكاك، ونحن في حاجة، ونحن في حاجتنا إليك.
- يكثر من ذكر الإشارات التاريخية والدينية والسياسية والأدبية والفكرية.
- يستخدم الحكم والأمثال الشعبية الدارجة تصريحاً وتلميحاً.
- يضمن شعره بيتاً أو شطربيت من شعر الأقدمين بصورة مباشرة أو غير مباشرة.
- يشمل شعره في الرثاء الرجل والمرأة، والزعماء والقادة الوطنيين الأحرار، والحكام والقادة ورجال الفكر العالمين.
- لم يحتل الغزل والهجاء مساحة واسعة في شعره، وكان مقلاً فيها.



- يكثر في شعره من التلميح الذي يأتي على هيئة مثل سائر، أو شعر نادر، أو قصة مشهورة، أو ما يجري مجرى المثل، وهو ما يسميه بعضهم ب (التلميح) بتقديم الميم، كأن يأتي في بيت من أبياته الشعرية بنكتة حسنة تزيد الكلام سلاسة وجمالا.

- يورد الشاعر المعاني التي يريد التعبير عنها في صور جميلة قريبة من الفهم بليغة في تأثيرها.

- يراوح شعره ما بين التقليد حيناً والتجديد حيناً آخر، وهو أقرب إلى القديم منه إلى الحديث .

ويبقى حافظ إبراهيم شاعراً مصرياً عربياً وإنسانياً، أحب الجميع فأحبوه، فرح لفرحهم، وحزن لحزنهم، فخلدوه في قلوبهم ونفوسهم، فكان بحق، وكما أسموه ((شاعر النيل وشاعر الشعب)) رحمه الله.



## المراجع :

- ١- ديوان حافظ إبراهيم/ الأعمال الشعرية الكاملة/ دار العودة، بيروت ١٩٩٦ .
- ٢- في الأدب الحديث، عمر الدسوقي ١٩٤٨، القاهرة.
- ٣- التجديد في الأدب العربي الحديث، عبد الوهاب حمودة، القاهرة.
- ٤- شعراء مصر، عباس محمود العقاد ١٩٣٧، القاهرة.
- ٥- حافظ وشوقي، حسن كامل الصيرفي ١٩٤٩، القاهرة.
- ٦- ذكرى الشاعرين، أحمد عبيد، دمشق.
- ٧- حافظ وشوقي، طه حسين ١٩٣٣، القاهرة.
- ٨- أدب مصر الحديث، مصطفى زيد ١٩٤٩، القاهرة.
- ٩- مقدمة في دراسة الأدب العربي الحديث، عبد الرحمن ياغي ١٩٧٥، عمان.
- ١٠- شرح ديوان حافظ إبراهيم، د. يحيى شامي، دار الفكر العربي ١٩٩٨، بيروت.
- ١١- المنجد في اللغة، لويس معلوف، دار المشرق ١٩٨٦، بيروت.
- ١٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، إبراهيم مصطفى ورفاقه ١٩٦١.



## مطالع القصائد والمقطوعات الواردة في الكتاب

### ١ - الوطنية والقوميات

ص

سكت فأصغروا أدبي	وقلت فأكبروا أربي ٢٣
(قصر الدبارة) قد نقضت	العهد نقض الغاصب ٣٣
لا تلم كفي إذا السيف بنا	صح مني العزم والدهر أبى ٣٤
أيها المصلحون ضاق بنا العيش	ولم تحسنوا علينا القياما ٣٥
لمصر أم لربوع الشام تتسب	هنا العلا وهناك المجد والحسب ٣٨

### ٢ - المقاومات والمنددات بالاستعمار والمستعمرين

بنات الشعر بالنفحات جوذي	فهذا يوم شاعرك المجيد ٤٠
أيها القائمون بالأمر فينا	هل نسيتم ولاءنا والودادا ٤٥
بنيتم على الأخلاق أساس ملككم	فكان لكم بين الشعوب ذمام ٤٩
لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت	حواشيه حتى بات ظلها منظما ٥٠
حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا	واطمسوا النجم واحرمونا النسيما ٥١
لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم	فمصابكم ومصابنا سيان ٥٢
أي (مكمهون) قدمت بالقصد الحميد وبالرعايه	٥٣

### ٣ - المنوهات والداعمات لدور ( رعاية الأطفال )

قضيت عهد حداثتي	ما بين ذل واغتراب ٥٦
-----------------	----------------------

هـذا صبي هائم	تحت الظلام هيام حائر ٥٩
سائلوا الليل عنهم والنهارا	كيف باتت نساؤهم والعدارى ٦٢
أيها الطفل لك البشرى فقد	قدر الله لنا أن ننشرا ٦٤
شبحا أرى أم ذاك طيف خيال	لا، بل فتاة بالعراء حيالي ٦٧
أيها الطفل لا تخف عنت الدهر	ولا تخش عاديات الليالي ٧٧

٤ - الجامعات

إن كنتم تبذلون المال عن رهب	فنحن ندعوكم للبذل عن رغب ٨٠
حياكم الله أحيوا العلم والأدبا	إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا ٨٣
رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي	وناديت قومي فاحتسبت حياتي ٨٤

٥ - الإنسانية

ألبسوك الدماء فوق الدماء	وأروك العدا بعد العدا ٨٩
يحبك من أرض الكنانة شاعر	شغوف بقول العبقريين مغرم ٩٢
نبئاني إن كنتما تعلقان	مادهى الكون أيها الفرقدان ٩٥
إن الذي كانت الدنيا بقبضته	أمسى من الأرض يحويه ذراعان ١٠٣
أعزي القوم لو سمعوا عزائي	وأعلن في مليكتهم رثائي ١٠٤
رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى	لمدحك من كتاب مصر كبير ١٠٥
أهلا بأول مسلم	في المشرقين علا وطار ١٠٧
أخت الكواكب ما رماك	وأنت رامية النسور ١١٠

٦- الخمریات

- |     |                          |                           |
|-----|--------------------------|---------------------------|
| ١١٣ | ياساقي علي بالصهباء      | هذا الظلام أثار كامن دائي |
| ١١٤ | بين هم وبين ظن وحدس      | أوشك الديك أن يصيح ونفسي  |
| ١١٦ | جددوا بالله عهد الغائبين | فتية الصهباء خير الشاربين |

٧- الغزليات

- |     |                             |                                   |
|-----|-----------------------------|-----------------------------------|
| ١١٩ | أعيزك من وجد تغلغل في صدري  | أنا العاشق العاني وإن كنت لا تدري |
| ١٢٠ | جفنه قد واصل السهرا         | قالتت الجوزاء حين رأت             |
| ١٢٠ | ود لو يسري بها الروح الأمين | سور عندي له مكتوبة                |

٨- الهجائيات

- |     |                            |                            |
|-----|----------------------------|----------------------------|
| ١٢٢ | منه الوقاية والتجليد للكتب | أديم وجهك يا زنديق لو جعلت |
| ١٢٣ | وبألف ألف ترزق الأموات     | أحيأؤنا لا يرزقون بدرهم    |
| ١٢٤ | لغير تفريق وتضليل          | جرائد ما خط حرف بها        |
| ١٢٤ | أيدي البطانة وهو في تضليل  | لا تعجبوا فمليكم لعبت به   |
| ١٢٥ | هبلت لا ترم الحصونا        | يا ساكن البيت الزجاج       |



٩ - الإخوانيات

- |     |                             |                            |
|-----|-----------------------------|----------------------------|
| ١٢٦ | إني عهدتك قبلها محسودا      | إن هناؤك بها فليست مهتئا   |
| ١٢٧ | أجل خلقا منه في الظاهر      | كحافظ إبراهيم لكنه         |
| ١٢٩ | فسالت نفوس لتذكراها         | شجنتنا مطالع أقمارها       |
| ١٣٠ | ليس لي فيها أنيس            | أننا في الجيزة ثناو        |
| ١٣٢ | ونزداد فخرا من (علي) بمبضع  | نفاخر من (شوقيتنا) ببراءة  |
| ١٣٢ | وعيني لازمت سكب الدموع      | يا بابلي إليك شوقي         |
| ١٣٢ | ماذا تحاول بعد ذاك          | يا شاعر الشرق أتتد         |
| ١٣٣ | أم تناس منك أم ملل          | أدلال ذاك أم كسل           |
| ١٣٥ | واستقبلا التمس ولا تأفلا    | سيرا أيا بدري سماء العلا   |
| ١٣٦ | وعصاني الطبع السليم         | ملكوت علي مذهبي            |
| ١٣٨ | وذكرى ذلك العيش الرخيم      | أثرت بنا من الشوق القديم   |
| ١٤٠ | طريد دهر جائر الأحكام       | من واجد منفرد المنام       |
| ١٤٢ | ويا أديب الزمان             | يا سيدي وإمامي             |
| ١٤٤ | قصف المدافع في أفق البساتين | يرغي ويزيد بالقافات تحسبها |
| ١٤٦ | صاد ويسقي ربا مصر ويسقينا   | عجبت للنيل يدري أن بلبله   |

١٠ - الشاكيات والباكيات

وماذا أصبت من الأسفار والنصب	وطيك العمر بين الوخذ والخبب ١٤٧
رميت بها على هذا التباب	وما أوردتها غير السراب ١٥٢
جراب حظي قد أفرغته طمعا	بباب أستاذنا (الشيبي) ولا عجا ١٥٤
سليل الطين كم نلنا شقاء	وكم خطت أناملنا ضريحا ١٥٥
يا ساهد النجم هل للصبح من خبر	إني أراك على شيء من الضجر ١٥٦
ما لهذا النجم في السحر	قد سها من شدة السهر ١٥٧
مرضنا فما عادنا عائد	ولا قيل: أين الفتى الألمي ١٥٩
قد أجذبت دار الحجا والنهي	بعدك من آرائك النافعه ١٦٠
أقضيه في الأشواق إلا أقله	بطيء سرى أبدى إلى اللبث ميله ١٦٠
سعت إلى أن كدت انتعل الدما	وعدت وما أعقبت إلا التندما ١٦١
يامن خلقت الدمع لطفنا	منك بالباكي الحزين ١٦٤
نعمن بنفسي وأشقيتني	فيا ليتهن ويا ليتني ١٦٥
لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا	إلا بقية دمع في مآقينا ١٦٦
كم مربي فيك عيش لست أذكره	ومربي فيك عيش لست أنساه ١٦٨
تناءيت عنكم فحلت عرا	وضاعت عهود على ما أرى ١٧٠

١١ - المترجمات

- |                           |                                |
|---------------------------|--------------------------------|
| يا أيها الحب امتزج بالحشا | ١٧٢ فإن في الحب حياة النفوس    |
| لا أبالي أذى العدو فحطني  | ١٧٣ أنت يارب من ولاء الصديق    |
| تمثلي إن شئت في منظر      | ١٧٣ يا (جوليا) أنكر فيه الغرام |
| غضي جفون السحر أو فارحي   | ١٧٤ متيما يخشى نزال الجفون     |

١٢ - المراثيات

- |                             |                                 |
|-----------------------------|---------------------------------|
| لا، والأسى وتلهب الأحشاء    | ١٧٥ ما بات بعدك معجب بوفاء      |
| ما أنت أول كوكب             | ١٧٨ في الغرب أدركه المغيب       |
| صونوا يراع (علي) في متاحفكم | ١٨٠ وشاوروه لدى الأرزاء والنوب  |
| سكن الفيلسوف بعد اضطراب     | ١٨٢ إن ذاك السكون فصل الخطاب    |
| أيدري المسلمون بمن أصيبوا   | ١٨٥ وقد واروا (سليما) في التراب |
| ولدي طال سهدي ونحيبي        | ١٨٦ جئت أدعوك فهل من مجيبي      |
| أذنت شمس حياتي بمغيب        | ١٨٨ ودنا المنهل يا نفس فطبيبي   |
| لعب البلى بملاعب الألباب    | ١٩٠ ومحابشة فمك الخلاب          |
| دمعة من دموع عهد الشباب     | ١٩٣ كنت خبأتها ليوم المصاب      |
| بدأ الممات يدب في أترابي    | ١٩٦ وبدأت أعرف وحشة الأحباب     |
| إيه يا ليل هل شهدت المصايبا | ١٩٧ كيف ينصب في النفوس انصايبا  |
| سلام على الإسلام بعد (محمد) | ٢٠١ سلام على أيامه النضرات      |

من ليوم نحن فيه من لغد	مات ذو العزيمة والرأي الأسد ٢٠٥
ردوا كؤوسكما عن شبه مفؤود	فليس ذلك يوم الراح والعود ٢٠٧
أي هذا الثرى إلام التماذي	بعد هذا، أنت غرثان صادي ٢١٠
ردوا علي بياني بعد (محمود)	إني عييت وأعياء الشعر مجهودي ٢١٣
(ملك) النهى لا تبعدي	فالخلق في الدنيا سير ٢١٥
نعاك النعاة وحم القدر	ولم يغن عنا وعنك الحذر ٢١٩
من لم يذق فقد أليف الصبا	لم يدر ما أبدي وما أضمر ٢٢٢
نثروا عليك نوادي الأزهار	وأيتت أنثر بينهم أشعاري ٢٢٤
لك الله قد أسرعت في السير قبلنا	وآثرت يا (مصري) سكنى المقابر ٢٢٩
يا بن (عبد السلام) لا كان يوم	غبت فيه عن هالة الأحرار ٢٣٠
(رياض) أفق من غمرة الموت واستمع	حديث الورى عما كنت تصنع ٢٣١
غاب الأديب أديب (مصر) واختفى	فلتبكه الأقلام أو تتقصفها ٢٣٤
أكثرتم التصفيق في موطن	كان البكا فيه بنا أليقا ٢٣٤
عجبت أن جعلوا يوما لذكراكا	كأننا نسينا يوم منعاكا ٢٣٥
لله درك كنت من رجل	لو أمهلتك غوائل الأجل ٢٣٦
جل الأسى فتجملي	وإذا أبيت فأجملي ٢٤٠
لا مرحبا بك أي هذا العام	لم يرع عندك للأساة ذمام ٢٤٣
علمان من أعلام مصر	عدا الردى فطواهما ٢٤٥

- مضيت ونحن أحوج ما نكون إليك ومثل خطبك لا يهون ٢٤٦  
مسدي الجميل بلا من يكدره ومكرم الضيف أمسى ضيف (رضوان) ٢٤٩  
شوقتماني أيها الفرقدان لبدر ثم غاب قبل الأوان ٢٥١  
أما (أمين) فقد ذقنا لمصرعه وخطبه من صنوف الحزن ألوانا ٢٥٢  
يا عابد الله نم في القبر مغتبطا ما كنت عن ذكر رب العرش باللاهي ٢٥٥  
وديعة ردت إلى ربها ومالك الأرواح أولى بها ٢٥٥  
دك بين ضحوة وعشي شامخ من صروح (آل علي) ٢٥٦  
أي قبر هذا الضيف آمال أمة فهلل وكبر والق ضيفك جاثيا ٢٥٩  
قد كنت أؤثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء ٢٦٢

## فهرس المحتوى

حافظ إبراهيم (شاعر النيل)  
شاعر الأحران وحامل هموم الإنسان  
دراسة وصفية تحليلية نقدية

تقع هذه الدراسة في مقدمة وباين ، وخاتمة، وفهرسة، جاءت على النحو التالي:

المقدمة .....	٥
الباب الأول/ الشاعر ويشمل ما يلي: .....	٢٣
١- اسمه، ولادته، يتمه المبكر، نشأته .....	٢٣
٢- بيئته الخاصة والعامة .....	٢٥
٣- ثقافته .....	٢٧
٤- حياته العلمية، وفاته، آثاره الأدبية، صفاته الخلقية والخلقية .....	٢٨
الباب الثاني / شعره، ويشمل ما يلي: .....	٣١
١- الوطنية والقوميات .....	٣١
٢- المقاومات والمنددات بالاستعمار والمستعمرين .....	٤٠
٣- المنوهات والداعمات لدور رعاية الأطفال .....	٥٥



٨٠	الجامعيات	٤
٨٩	الإنسانيات	٥
١١٣	الخمريات	٦
١١٩	الغزليات	٧
١٢٢	الهجائيات	٨
١٢٦	الإخوانيات	٩
١٤٧	الشكايات والعائبات	١٠
١٧٢	المترجمات	١١
١٧٤	المراثيات	١٢
٢٦٩	الخاتمة	
٢٧٥	المراجع	
٢٧٧	مطالع القصائد والمقطوعات الواردة في الكتاب	
٢٨٥	فهرس المحتوى	